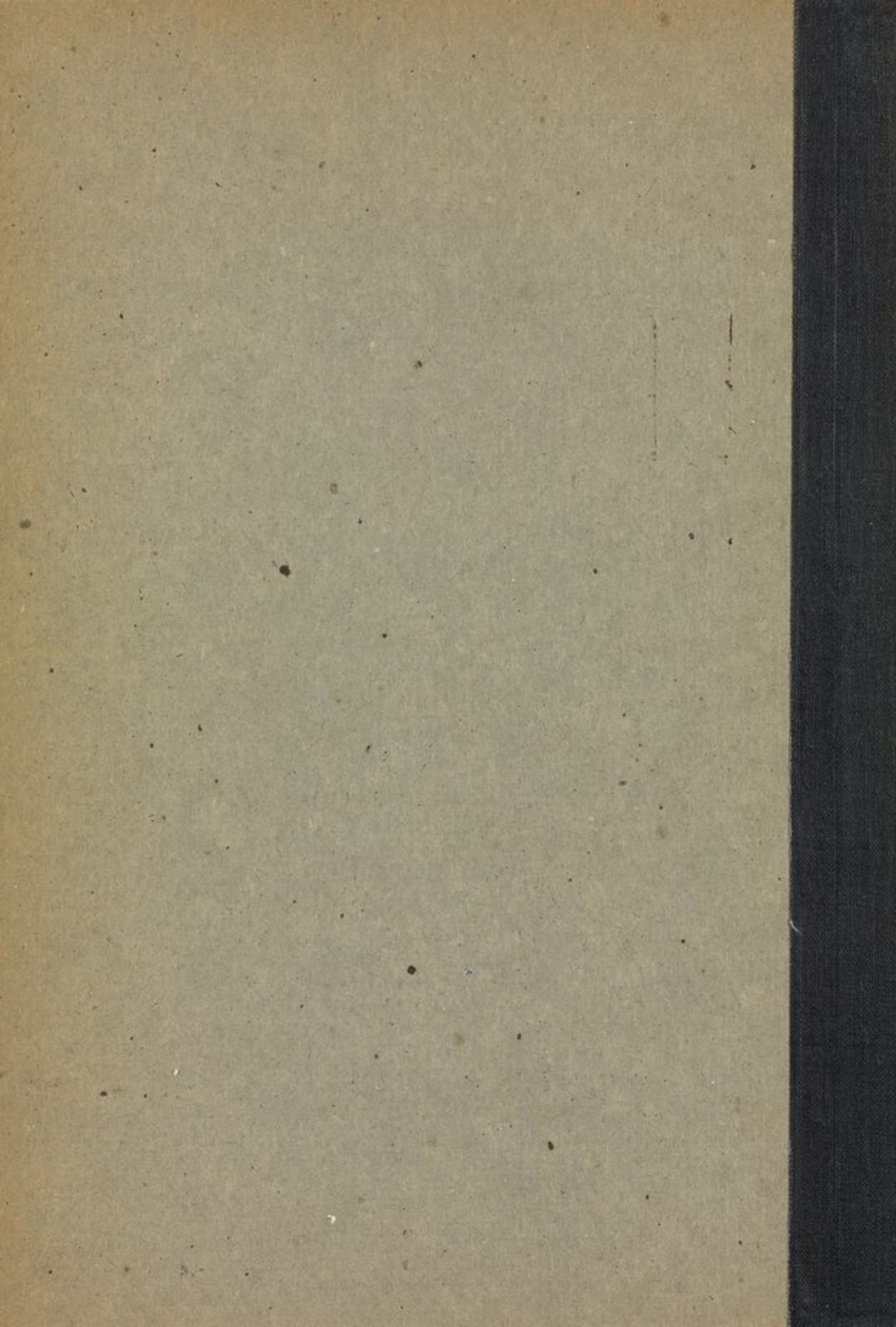
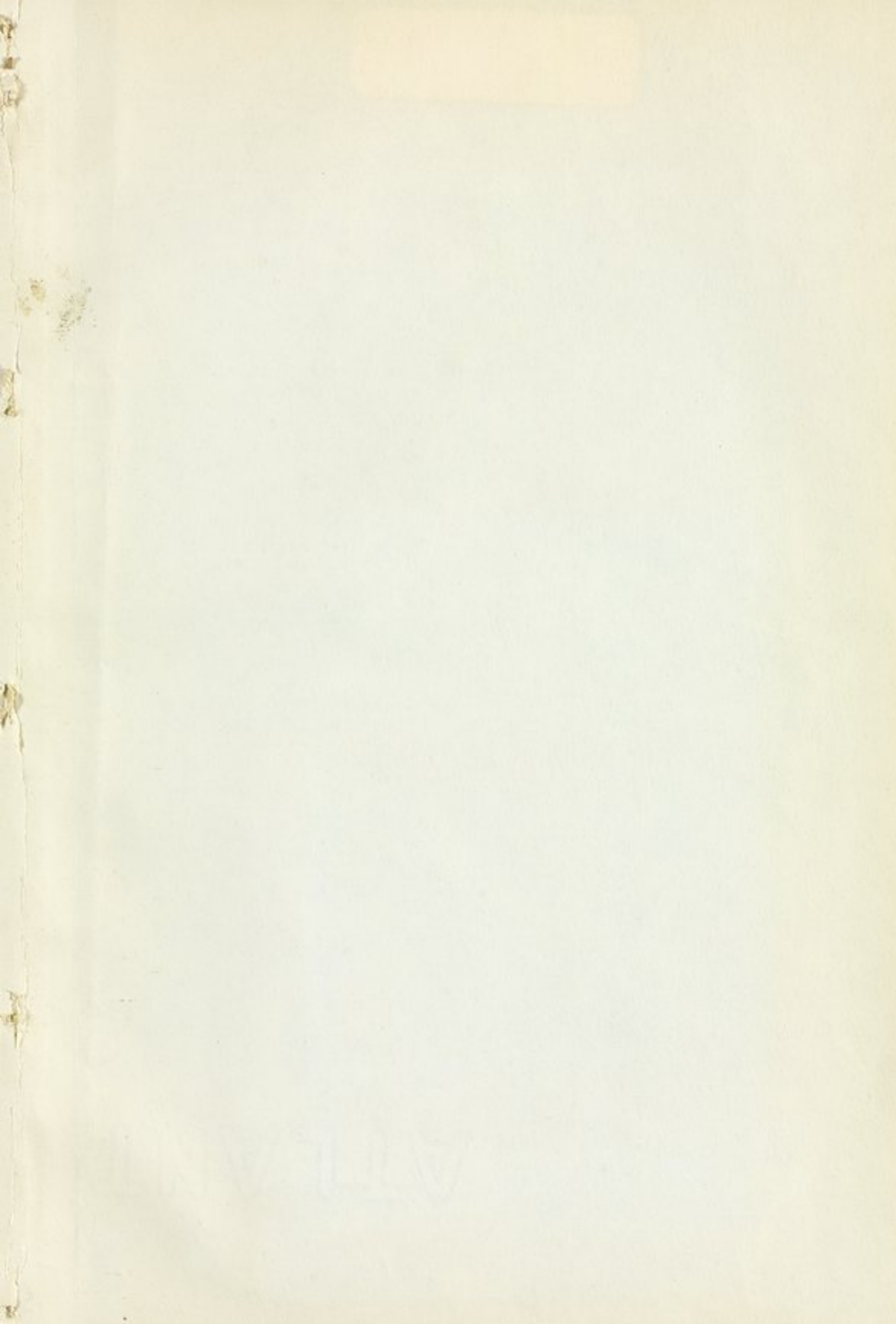




Princeton University Library



32101 074328814



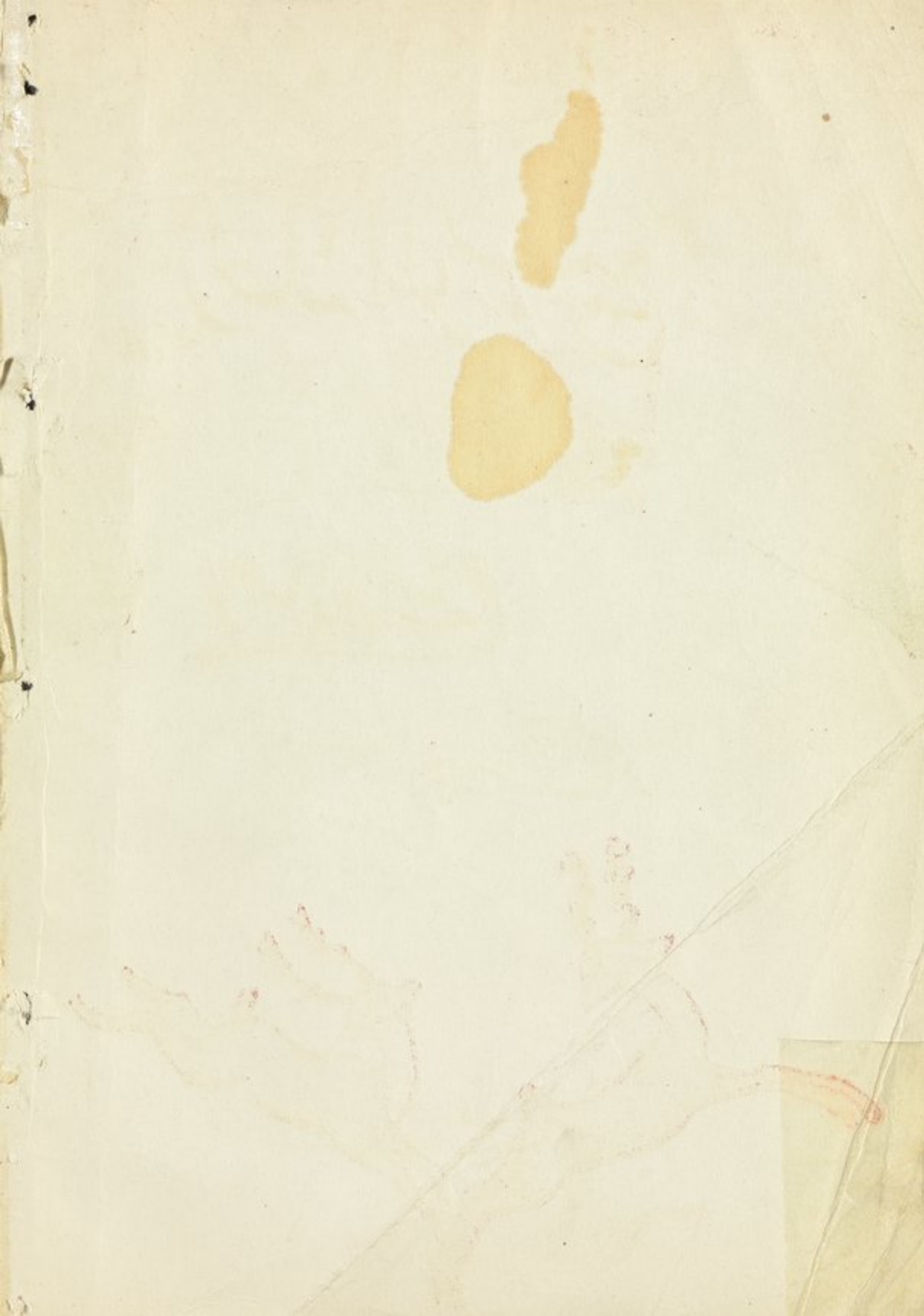


فَيَا أَلْحَى عَنْ نَجْدٍ، أَوْ عَنْ يَاضَةٍ
فَدَيْتَكَ، لَهْدَ أَبْقَضِ مَا فِي رُبِّي نَجْدٍ

رَحِمَةُ الرَّبِّ

فَوَادِشُكُمْ





Shākir, Fu'ād

Rihlat al-rabi'

رحلة الربيع

بقلم

فؤاد شاكر

١٩٤٦ - ١٣٦٥ م

طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية
لاصحابها عيسى السبايحي وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

١ - يرى القراء أننا افتتحنا الكتاب بعد اسم الله تعالى ، بمقتطفات مختارة من أقوال حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ولقد وجدنا في أقوال جلالته بحاراً زاخرة بأفانين الحكيم ، وجوامع الكلم ، لا يمكن أن يتسع لختاراتها نطاق محدود كهذا ، ولكن حرصنا على أن نتوَّج افتتاح الكتاب بما يستطيع اقتناصه من نفائس تلك الآلىء الخالدة .

٢ - لم يكن الغرض من وضع هذا الكتاب هو مجرد تسجيل حركات رحلتنا ولكن الغرض الذى استهدفناه هو تسجيل المعلومات المنطوية عليها هذه الرحلة فيما يمس الصالح العام عن قرب أو عن بعد .

٣ - لم نتوخَّ في تأليف هذا الكتاب أن نحشو الأذهان بالمعلومات الجغرافية الجافة ، أو التاريخية المملة ، وإنما قصدنا أن نضع تحت نظر القراء الصور الواقعية ، عن حقيقة المشاهد التى هى فى قلب نجد ، وما تقتضيه المناسبة الملحة من سياق أدبي ، أو استطراد تاريخي ، أو تحقيق اجتماعي ، أو توضيح ذى شأن ومساس .

٤ - حرصنا على أن نعطي القراء صورة واضحة عن أمراء آل سعود ، ولكن الظروف العاجلة التى طبع فيها الكتاب لم تهيئ لنا تحقيق ما نبتغيه ، مع أسباب أخرى ستيسر فى الظروف المقبلة إن شاء الله . وكذلك فيما يختص بالجانب التصويري فى الكتاب ، فقد كنا نحصر على أن نزينه بأكثر عدد ممكن من الصور ، ولكن نفس الأسباب المتقدمة هى التى حالت دون أداء هذا الواجب وتحقيق تلك الأمنية .

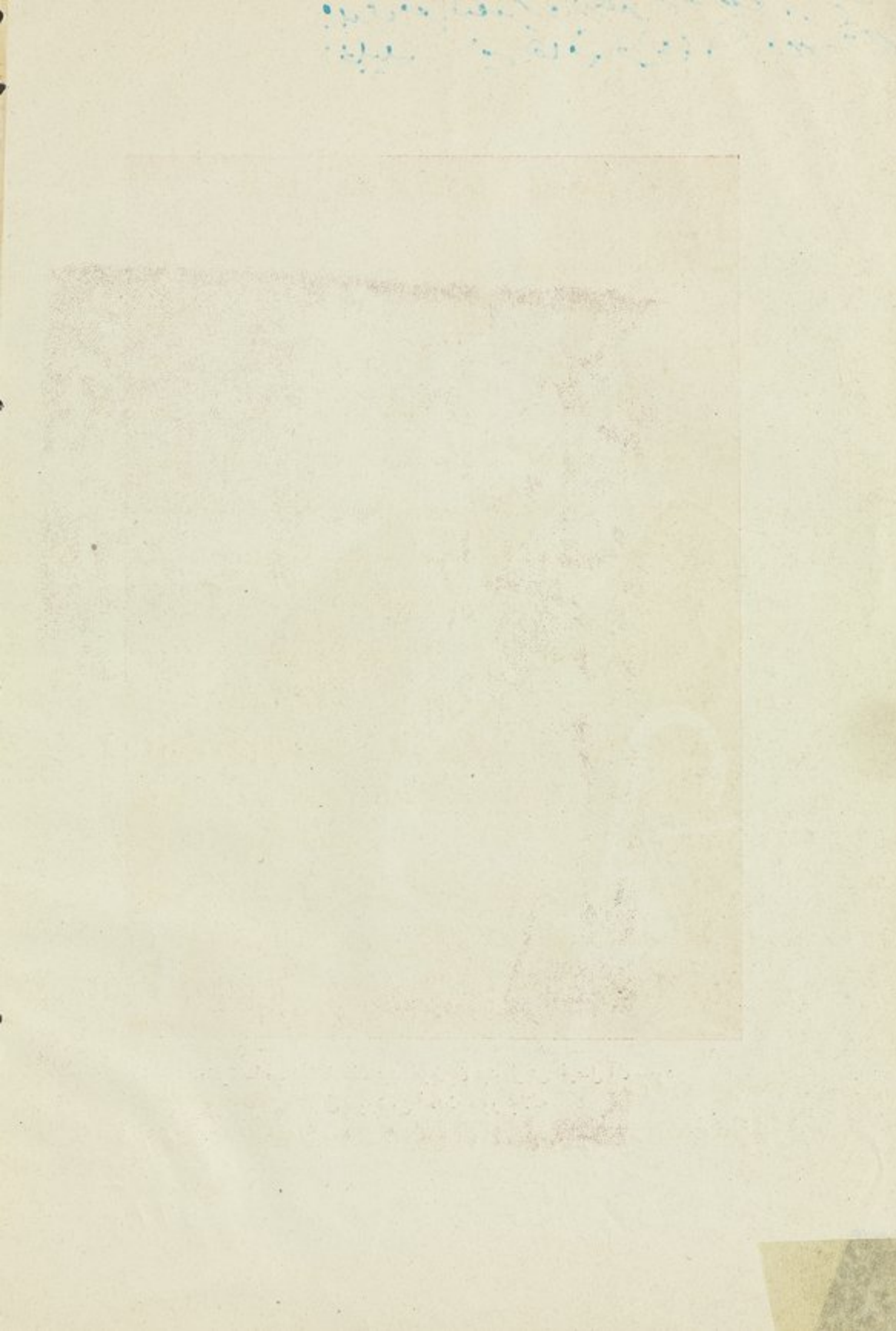
فؤاد شاكر

مهدى مع التقدير والاحترام للسيد النفيعي
المجلد سبعة قوائم قرأتها في سنة ١٣٥٢



حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود
في صورة من أحدث صور جلالاته

2274
87512
.377



مقدمة

بفلم الطنب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد

يصف الاجتماعيون الأوروبيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو - على الأصح - أمة مؤرخة .

ولا يعنون بذلك أنها أمة عريقة في التاريخ ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج إلى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الأجناس ، وإنما يعنون أنها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الأنباء والروايات من السلف إلى الخلف بغير انقطاع في سلسلة الاسناد ، وإنك إذا صادفت منها رجلاً في عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه إلى زمن بعيد ، أو أن تعرف منه مالست تعرفه من كل فرد في كل أمة ، ولو كان لها تاريخ مدون مذكور .

وهذه مزية « مخصوصة » وليست بالميزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة . فإن من الأمم العريقة أمماً تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ إليه فإذا هو لا يذكرها بغير المراجعة والسؤال ، وهذه هي الأمم التي توصف بأنها « حاضرة » مبتوتة أي تعيش فيما حضرها من الزمان ، ولا تعنى كثيراً بما بينها وبين الماضي من الأواصر في حياة الفرد أو حياة الجماعة .

تتجلى هذه الحقيقة في طريقة من الطرائف الممتعة التي رواها لنا الشاعر الأديب صاحب هذه الرحلة وهو يبحث عن منزل من المنازل التي ذكرها امرؤ القيس في معلقته الخالدة حيث يقول :

فتوضح فالمقرات لم يعرف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

وقد دعاه إلى هذا البحث أنه اقترب من محلة تعرف باسم « مرات » وفي جوارها « التوضحية » وعندها غدير مشهور ، وقيل له فيما قيل ، إنما هي المقرات التي ذكرها

حامل لواء الشعراء في الجاهلية . ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال « ليس بكثير على أربعة عشر قرناً أن تلحس قافاً واحدة فتحرف الكلمة من مقرات إلى مرات وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات ... »

إلا أنه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال : « ... التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه ، فقلت : لاشك أن هذا من أهل القرية . فبدأته السلام ثم قلت له : يا رجل ! أهذه قرية امرئ القيس الشاعر المعروف ؟ ... فتدفق كالبحر الزاخر يدلى إلى بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية . وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرئ القيس المشهور ، وأن الأول تيمى والآخر كندى ، وأن امرأ القيس التيمى رجل دميم الخصال هجاء الشعراء وهجوا البلدة لأجله ، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين ... »

قلت وأنا أقرأ هذه القصة لاجرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضرها ، بل لاجرم تكون الرحلة كلها دليلاً على هذه الصفة الاجتماعية ، فإنه لولا « الروح العربي » قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه في قلمه لما ظهر هذا « التاريخ المصري » في حيز الكتابة ، ثم في حيز الطباعة . فما نخاله إلا صدى صادقاً يردد ما تجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة في أرجاء الجزيرة العربية ، لأن الإله القدير الذى جعل الرمال سافية لاتبق على أثر قد جعل سكان الرمال سجلاً واعياً لجميع الآثار ، ولا سيما هذه الآثار الكبار ، وهى تروى تاريخ الضيافة الملكية من الحجاز إلى نجد ومن نجد إلى الحجاز .

على أن الإله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الإسلامى كله سجلاً واعياً لأنباء هذين القطرين الخالدين ، وأن يكون سكانهما بالأرواح والأذهان أضياف من

سكنوهما بالعيان والجثمان . فمن من قراء العربية لا يحسب بين ساكني الحجاز في عالم الروح والضمير ؟ ومن منهم لا يحسب بين ساكني نجد في عالم العاطفة والخيال ؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية ، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية . فكل من عرف وحى السماء في آيات القرآن ، ووحى الطبيعة في أسنة الشعراء فقد عاش في نجد والحجاز وشغله الحديث عنهما زمناً ولا يزال يشغله إلى الآن .

ولهذا نعتقد أن قراء العربية يطلعون على أنباء هذه الرحلة الحجازية النجدية ، وينطلقون معها في أودية الخيال ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم ، ويمجّبوا مع الصحراء لركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحذاء . ويطمئنوا إلى تطور الزمن حين يستمعون إلى الملك المعصامى العظامى وهو يقول : « إن بعض المسلمين مع الأسف لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأوربيين ، ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم وامتعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الأخرى . فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن ، بالقول والعمل ، لتقليد الأوربيين . ولكن من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعاً ؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الأوربيين بذلك .. »

فالحق إذن أن الناس ليستمعون من هذه الكلمات آية أخرى من آيات « العروبة المؤرخة » أو العروبة التي تتصل فيها الأواصر بين حاضرها وماضيها ، وتتغير مع الزمن ولكنها لا تنقطع عن حقائقها ومعانيها . فالخير كل الخير مرهون بهذه الحكمة العملية الواضحة التي تحفظ لنا خير ما عندها وتعطينا من غيرنا خير ما عندهم : قوام بين القديم والحديث ، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث ، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم .

والأستاذ فؤاد شاكر شاعر نائر . فقد استعان في وصف الرحلة بمنظومه

ومنشوره ، واعتمد فيها على مسموعه ومنظوره ، فأحسن الوصف إحساناً لاتغض منه
هفوة هنا وهفوة هناك ، وأجاد تصوير الركب والزملاء ، كما أجاد تصوير الضيافة
الملكية في القصور وفي الصحراء ، وقد رأينا مصداق وصفه فيما نظرناه وسمعناه من
حفاوة الملك الجليل ، وصراحته ، ودوام سهره على شئون رعيته وشئون ضيوفه ،
ونعتقد أن هذه الرحلة الملكية الرياضية ستلقى من عناية الشعراء كل مالقيته أنباء
مكة والرياض في تاريخها القديم وتاريخها الحديث . فهي حلقة موصولة من حياة
« أمة مؤرخة » نرجو أن تظل أبداً في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظام الآثار ،
وتشارك فيه من حفاوة السابقين واللاحقين ، إلى ما شاء الله

عباس محمود العقاد

مقطعات رائعة مختارة

من أماريث وأقوال

جلالة الملك، محمد العزيز ^{الملك} ^{سعود}

أبده الله

إنتي والله لا أحب إلا من أحب الله حباً
خالصاً من الشرك والبدع ، وأنا والله لا أعمل
إلا لأجل ذلك ، ولا يهمني أن أكون ملكاً أو فقيراً
والله ثم والله إنني لأفضل أن أكون على رأس
جبل آكل من عشب الأرض وأعبد الله وحده ، من
أن أكون ملكاً على سائر الدنيا وما فيها

” إنتي أفخر لكل من يخدم الإسلام ويخدم المسلمين
واعترز بهم بل أخدمهم وأساعدهم وأؤيدهم ، وإنتي
أمقت كل من يحاول الدس على الدين وعلى المسلمين
ولو كان من أسمى الناس مقاماً وأعلاهم مكانة .

إنتى أدعو المسلمين جميعاً إلى عبادة الله وحده
والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح ، لأنه
الإنجاة للمسلمين إلاً بهذا ، وأسأل الله تعالى
أن يوفقنا جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه “

” إن المسلمين لا يرقون ولا ينهضون بالبهجة
والزخارف ، إن سبيل رقى المسلمين هو التوحيد
الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات
والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان
رسوله الكريم

إن الإسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا
والآخرة ربنا آثنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة فلم
يمنع الإسلام الناس من السعى في الأرض
والعمل على كل ما يرفع شأن الملة “

إن تقدم المسلمين ونهوضهم هو من
الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله .



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد المعظم
وسعادة الشيخ فوزان السابق الوزير المفوض للمملكة
العربية السعودية في مصر

ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم
والتمسك بعقيدتهم الصحيحة . والاعتصام
بحمل الله ، والطريق إلى ذلك واضح مُعبد
لمن أراد سلوكه وهو أفراد الله سبحانه وتعالى
بالتوحيد الخالي من الشرك والبدع ، والعمل
بما أمرنا به الدين لأنه لا فائدة من قول بلا عمل ،

وإن بعض المسلمين مع الأسف لم
يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأوربيين
ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم
ومنعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور
الأخرى ، فقد مضى عشرات السنين على الذين
يدعون الناس في السر والعلن ، بالقول والعمل
لتقليد الأوربيين ولكن من منهم عمل إلى اليوم
إبرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعا ،
لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من
تقليد الأوربيين بذلك !

” والله ثم والله ، إن العجز القابضة في ذكرها
والتي لا تملك من الشيا ب إلا الأظمار البالية
وهي تعبد الله وحدد عبادة خالصة ، هي أحب
إلى قلبي من أي إنسان بلغ من العظمة والشأن
ما بلغ ، إذا كان لا يؤمن بالله إيماناً صادقاً
خالصاً ولا يعمل بما جاء في كتاب الله “

أنا لست من رجال القول الذين يرمون
اللفظ بغير حساب ، فأنا رجل عملي إذا قلت
فعلت ، وعيب علي في دهنى وشر في أن أقول
قولاً لا أتبعه بالعمل لأن هذا شئ ، ما اعتدت
عليه ولا أحب أن اتعوده أبداً

كثيراً ما يقول الناس : لماذا لا أؤسس
جمعية أو انشئ مكاتب دعاية لأعمالي .
ولكن هذا شئ ، اتجافه بطبيعتي لأنه لا يلائمني
وليس من طبعي

فإذا كان الذي بيني وبين الله عامر بنفسي

الذي بيني وبين العالمين خراب

”يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره
بصراحة ثامة ، وان لا يخشى في الحق لومة لائم ،
ويجب أن يصرح كل فرد بما يعتقد فيه المنفعة
لأن مجال البحث والتوفيق والسمخص يوصل
إلى خير النتائج وأحسنها ، فعلى الإنسان
الاجتهاد ومن الله التوفيق“

الناس في رأيي ثلاثة ، واحد منهم من أهل
الحق ، وهذا أساويه بنصبي وأفديه بها . وثانيهم
من أهل الخير والشر ، وهذا أدعوله بأن اتديعائي
خير على شره ، وكيفينا شره . والثالث من أهل
الشر والعياذ بالله وهذا أسأل الله له الهداية وأن
يجنبه وغيره شر نفسه ويرشده إلى الصواب

اثنتان أحمد الله على واحدة منهما وأشكره
على الأخرى ، أحمد الله على أني أكره أهل الضلال
وعلى كراهة أهل الضلال لي ، وأشكره على
محبة أهل الخير لي ، ومحبتي لهم ؟

« لا توجد مدنية في العالم تؤمن سعادة البشر غير المدنية الإسلامية ، وما اشتملت عليه من الأحكام المؤدية إلى رفاهية العاملين بها ، فإذا كان أساس المدنية العصرية هو الحرية المطلقة فإنه لا يوجد نوع من الحرية والمساواة ، يعادل الحرية التي منحها الله لعباده في سائر معاملاتهم

واجتماعاتهم وما

يكتنفها من

المساواة والعدل

في دائرة الشرع

الشريف ، ذلك

بأن الدين



قصر حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود في أعلا

مكة بالابطح

الإسلامي قد

كفل لجميع المسلمين أفراداً وجماعات حريتهم بأوسع معنى ، إلا محارمه الله (ألا أن لكل ملك حمى - وإن حمى الله محارمه) فإذا تجنب الإنسان محارم الله ، فهو حر في جميع أعماله ، يتساوى الغنى والفقير ، والصغير والكبير ، أمام عظمة هذا الدين الإسلامي الحنيف ولا فرق بين عربيّ وعجميّ إلا بالتقوى ، وقد أعز الله الإسلام بسلمان الفارسي ، وبلال الحبشي ، وأذل الله الشرك بأبي جهل وأبي لهب .

« أما إذا كان المقصود من الحرية اتباع شهوات النفس ، والنفس

أمانة بالسوء ، وانتهاك حرمان الله ، فان هذه هي الهمجية بعينها ولا يوجد قانون فوق ظهر الأرض يعدل ذلك الكتاب السماوي الذي فرضه الله على عباده ، وهو الذي خلقهم ويعلم خائبات الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم مصالح عباده وما ينفعهم وما يضرهم ، ذلك هو القرآن الذي هبط به أمين السماء (جبريل) على أمين الأرض (محمد) صلى الله عليه وسلم وفيه آيات مفصلات من تدبرها ووعاها كان من الفائزين ، وقد قال سبحانه وتعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فهل من المدنية أن ينتهك الإنسان محارم الله وأن يرتكب الذنوب والمعاصي بما اقترفه من التهاون في أمور دينه وبما يبيحه لنفسه من مجارة النفس في شهواتها الجامحة؟! فإذا كانت هذه هي المدنية التي يتصورها بعض الناس فاللهم إني برىء منها ، أنا وأهلي وبلادي ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلني أرى شيئاً من تلك الأحوال السيئة المفسدة التي هي مجلبة للضرر والفساد والتي هي مغضبة لله ولرسوله ، وإنني لو فعلت ذلك أسأل الله أن يجعلني وأهلي وأولادي تراباً تذروه الرياح . وسأحافظ على بلادي مادمت حيا فلا تتعرض إن شاء الله لأية شائبة من تلك الشوائب ، وانه ليس للإنسان ما يفتخر به إلا إسلامه وعروبه ، فإذا أضاع الإنسان دينه بتلك المعاصي وتهاون في عريته بذلك التقليد السخيف ، فإذا بقي له من صفات القومية والرجولة ، وبماذا يفتخر إذا فرط في دينه وعرضه .

« إن الصحيح أن يتمسك الإنسان بدينه ويعمل بأوامره ويجتنب نواهيه وهو دين كريم أغدق الله به على عباده السعادة والخيرات في الدنيا والآخرة ، دين يفرض الحرية ، ويفرض العمل ، ويفرض المساواة ، ويفرض مراعاة الحقوق ، ويفرض البر بالوالدين ، ويفرض عطف الغنى على الفقير ومراعاة الكبير للصغير ، هو دين الرحمة والبر والإحسان ، قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) الآية

« والمسلم لا يكون مسلماً حتى يؤمن بعيسى وما أنزل عليه من الانجيل وموسى وما أنزل عليه من التوراة ، ومحمد وما أنزل عليه من القرآن ، ومن لم يؤمن بعيسى وموسى لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .
 « فالمدينة الصحيحة ، هى التمسك بكتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم واتباع السلف الصالح وأن يحافظ الانسان على عروبه وشرفه فإذا وضع الانسان هذه المبادئ نصب عينيه أمكنه أن يعيش سعيداً بمراعاة التقوى سواء بينه وبين ربه ، أو بينه وبين أهله وذوى قرابته ، أو بينه وبين عموم الناس ، وهو بعد ذلك له مطلق الحرية فى تصرفاته وأعماله فى ضمن هذه الدائرة التى هى دائرة الاسلام . والدين الاسلامى الحنيف مانزل إلا لسعادة البشر ورفاهيتهم وأمنهم وسلامتهم ، ولكن هذا لا يتحقق إلا باتباعه والعمل به .

« أما من أضلهم الشيطان وزين لهم الباطل من زخرف هذه الدنيا

الفانية فارتكبوا المعاصي وانقادوا مع هوى أنفسهم ، واسترسلوا في الشهوات فأولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة ، نعوذ بالله منهم .
« اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وأسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته ، وأن يعز الإسلام والمسلمين .

« انكم يا الرعية ، لكم علينا حقوق لا نجعلها ولا نغفلها ، وإنني إن شاء الله عامل بها في الحاضر والمستقبل ، ومع أن واجباتكم علينا كثيرة لم نستطع النهوض بحقها ، إلا أنني أحمد الله على ما يوفقني إليه من القيام به جهد الاستطاعة ، والله انني لن أدخر في نفسي جهداً أو مالا إلا أنفقته في سبيل راحة رعيتي وهنائها ورفاهيتها وإنني أبذل في ذلك كل جهد مستطاع ، ولا أطلب منكم مقابل ذلك غير ما أمر الله به ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) فعليكم لنا الطاعة فيما أمر الله به وعليكم الاستقامة في أعمالكم والإخلاص في نياتكم » وكذلك عليكم واجبات نحو بعضكم البعض ، فكلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيتيه ، فالإنسان في دائرة عمله ، أو في بيته بين أهله وأفراد أسرته أو مع أصدقائه وأصحابه ، وبالجملة فإن كل إنسان مسئول عن من هم في رعايته ومن أئمه الله بهم ، فاتقوا الله فيمن هم تحت أيديكم من الأهل والأولاد وغيرهم واتقوا الله في معاملتكم لهم في السر والعلن واعلموا أن الله لا يغفل ولا ينام وأنه مطلع على السرائر وما تخفي الصدور

فإنه لا يصلح راع بلا رعية ، ولا رعية بلا راع . فإذا راقبتم الله في معاملاتكم الشخصية بينكم وبين أنفسكم فإنكم تفلحون وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

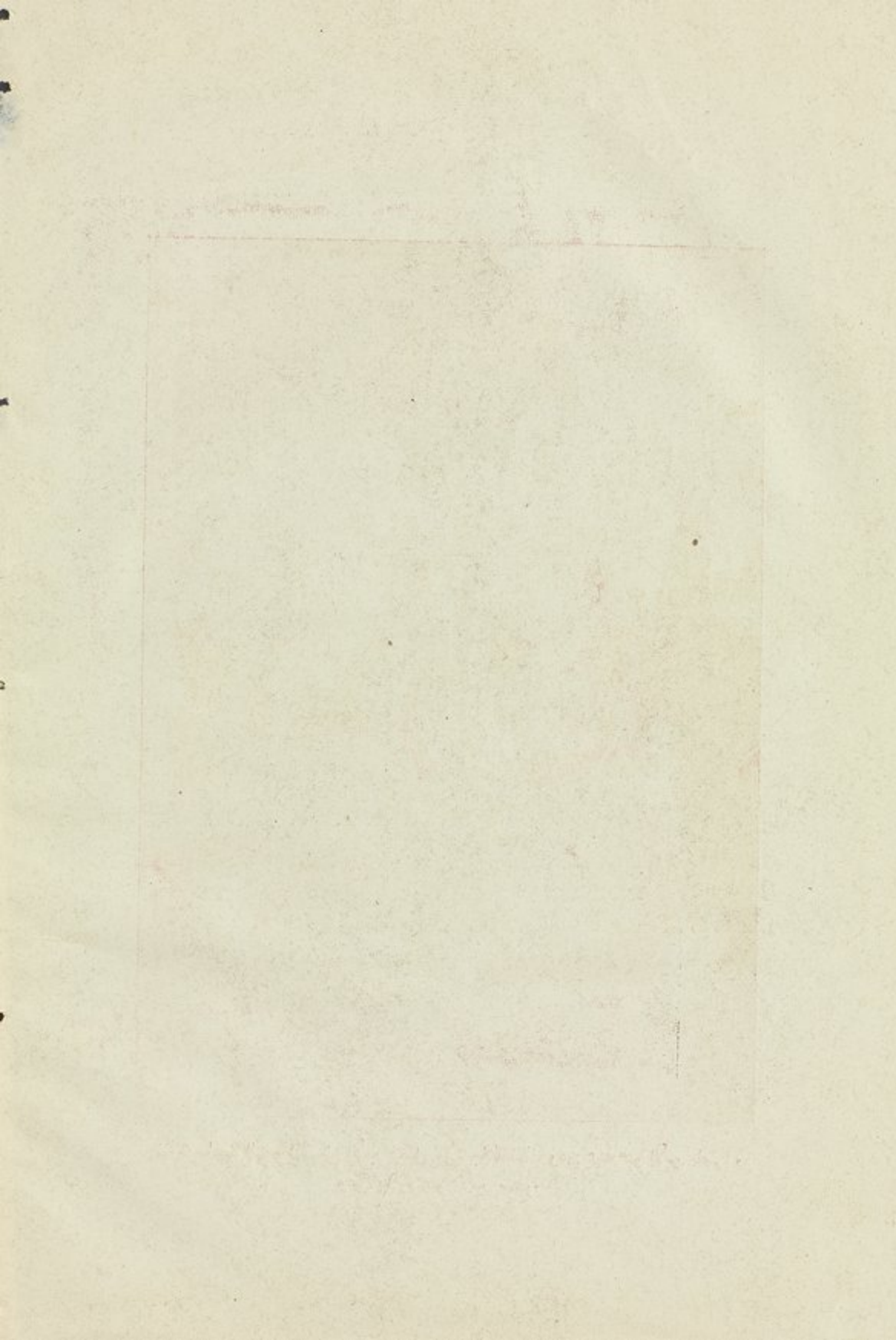
زهد الملك العظيم

« يقولون فلان تشرف بمقابلة الملك ، والحقيقة أن من نعمة الإسلام علينا ، أن جعلني الله لا أحفل بما يسمونه الملك ، وما يحيطونه به من عظمة وإكبار ، وأن من نعمة الإسلام علينا أن أجلس معكم وأن تجلسوا معي ، تتبادل الأحاديث ونتجاذب البشر والسرور ، أفليست هذه هي نعمة الإسلام وحرية أن يكون بابي مفتوحا للجميع يدخلون على من غير استئذان ولا حجاب ولا رقابة ، فأنا - ولا أقصد الدعوة إلى نفسى ولا امتدحها - والله المثل الأعلى - أشعر بشعوركم وأعلم أنكم تشعرون بشعورى فنحن جسد واحد وروح واحدة .

« لقد قال لى مرة أحد الكبراء ، لماذا لا تجعل لك حجابا فلا يدخل عليك أحد إلا بإذن ، فقلت له : أأكون بينى وبين ريعتى حجاب ، أأكون بينى وبين شعبي باب ، هذا أمر لا يقبله ضميرى ولا تقبل عليه نفسى ، ليقل عني الناس إننى ملك ، وليقولوا ما يشاءون أما أنا فلا أرى فى نفسى إلا أنى أدعو المسلمين إلى الله بالأفعال والأقوال وقد أفلح من تبع دينه وخاب من تبع دنياه .



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك وعن يمينه سمو الأمير ناصر ،
وعن يساره سمو الأمير منصور



الفصل الأول

أسباب وعوامل في تكوين الرحلة

لا جدل في أن أكبر نعم الله سبحانه وتعالى على عباده ، وأجدرها بالشكر والتقدير ، نعمة الإسلام الذي هدى إليه عباده المخلصين . ومن أكبر نعم الله على المسلمين قاطبة ، أن خلق لهم هذه البلاد الإسلامية المقدسة التي جعلها مثابة للناس وأمنًا ، فهي موئل الإسلام والمسلمين منذ عرف الإسلام إلى أن تقوم الساعة . ومن أهم مظاهر إكرامه جل وعلا لهذه البلاد ، أن جعل قداستها مقرونة بمعجزة كبرى من لدنه ، هي معجزة الأمن من الخوف والجوع ؛ وقد ذكر ذلك في كتابه العزيز . وما سنرويهِ هنا يضيف برهاناً جديداً على إكرام الله لهذه البلاد ، فقد يعرف الجميع أن العالم من شرقه إلى غربه ، ومن شماله إلى جنوبه ، اضطرم بحرب لا لين فيها ولا هوادة منذ أواخر عام ١٣٥٨ هجرية ، أي منذ شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ م . فالعالم منذ هذه الفترة يمج ببتلك الحرب الضروس ، ويشتمل بذلك الأتون المتوهج بلا استثناء أية جهة من جهاته ، ومن سلم من نار الحرب لم يأمن مسغبة الجوع ، وهناك من عانى الأمرين ، وكابد النارين .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر معجزته الكبرى على الإسلام ، بتأمين هذه البلاد من الخوف والجوع ، فسبق في علمه أن يسند أمر ولايتها إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وأجرى على يدي

جلالته رفاهيته وسعادتها . وما زال هذا الملك الحكيم العادل الراشد يفتقل بأمور بلاده على ظهور السنين والأيام ، انتقال حكمة ورشد ، حتى وقعت الواقعة العالمية الهائلة ، ونزلت بأمم الأرض وحكوماتها الكوارث والمحن ، وإذا بجلالته يسير على ما ألهمه الله من السداد ، وإذا ببلادته تتجنب على يديه الكوارث المدلهمة التي لم تسلم منها أمة في الأرض ، فتمضى سنوات الحرب الضروس وهذه المملكة كأنها من العالم بمعزل ومتنأى ، بينما هي من العالم كالقلادة من الجيد ، بالنظر لموقعها الجغرافي ، ولأهميتها الدينية والاقتصادية . وإذا بشمرات الأرض ، وخيرات الدنيا ، تجري إليها بالعدو والأصاال ، بصورة منقطعة النظير بعد أن ظن ضعاف النفوس ، الظنون والهواجس ، عما افترضوه من المجاعة والهول لمستقبل هذه البلاد في غضون سنوات هذه الحرب ، خصوصاً وأن مما افترضوه أيضاً في أذهانهم ، انقطاع ورود الحجاج ومواردهم المالية والاقتصادية عن المملكة في خلال سني الحرب ، ومعنى ذلك ، انقطاع الموارد المالية للبلاد ، وانقطاع ورود الأقوات والحاجيات ، وفي ذلك الموت المحقق والبلاء المطبق .

ولكن ما الذي كان ؟ وما علاقة ذلك بهذه الرحلة ؟ !

كان أن قيض الله لهذه البلاد ، جلالته الملك عبد العزيز ، وكان أن ألهم جلالته الرشد في السير بسياسته إلى الطريق الذي جنب بلاده الشر والأخطار ، وأمن لها أمر معاشها من بين تلك العواصف العالمية الهوجاء والزوابع الخطيرة الجارحة ، وزاد الله في نعمته على المملكة في تلك الظروف العالمية القاسية ، فيسر لها من لده رزقاً حسناً ، بأن أمر ميازيب سمائه فتفتحت عن مياه غزيرة وأمطار متدفقة متدافعة هطلت على جميع أنحاء المملكة في ظروف متقاربة عادت على الحواضر والبوادي بالإنعاش والازدهار ، وأحيت من الأرض مواتها ، وأخصبت منها ما كان مجدبا .

ولقد كانت نجد وباديتها ، هي الهدف الأول لذلك الحصب ، إذ باكرها النيث قبل غيرها من أجزاء المملكة ، وبارك الله لها فيما آتاهها فربعت ربيعاً نضراً زاهراً مشرقاً لم تعرفه منذ ربع قرن من الزمان ، أى ما بين مدتى الحرب الماضية والحرب الحاضرة ، وكان هذا الربيع النضر المشرق ، هو السبب فى القيام بهذه الرحلة . والرخاء الذى ترتب عليه لهذه المملكة هو همزة الوصل بين الحديث عن الحرب ، وبين الحديث عن هذه الرحلة ، وفيه الجواب على التساؤل الذى قلناه فى صدر هذا الكلام عما هية العلاقة بين الكلام عن الرحلة والكلام عن الحرب .

لقد كان الربيع فى نجد ، هو السبب فى هذه الرحلة ، ولقد بدئت الرحلة بالسفر إلى « ربيع نجد » ، وختمت بأعظم حادث فى تاريخ هذه البلاد ، هو التثنية بربيع الحجاز ، فقد هطلت أمطار على الحجاز وباديته ، بل على المملكة كلها عقب انتهاء الرحلة مباشرة جعلت منها كلها ربيعاً واحداً ناضراً مشرقاً ، أحيا من موات الأرض فيها ما شاء الله ، وبعث من الخصوبة ما أراده الله .

فكرة الرحلة

بينما فيما تقدم ، بعض العوامل والأسباب التي أدت إلى تكوين الرحلة ، ومن الإنصاف للواقع ، أن نذكر بعض الشيء عن فكرة الرحلة .

فالمعروف أن حضرة صاحب الجلالة الملك ، يفد إلى مكة في موسم الحج من كل عام فيمضي فيها شهرين أو ثلاثة حيث يتشرف أعيان المملكة وغيرهم بالثول بين يدي جلالته طيلة مدة إقامته في مكة ، وكثيراً ما تجرى في هذه المجالس أحاديث الإخلاص والولاء لجلالته من الحاضرين ، فيحاول بعضهم في معرض الإعراب عن الولاء أن يتمنوا على جلالته الاستراحة من أيام إقامته في مكة ، فيشكرهم على عواطف ولائهم وإخلاصهم . وقد حدث في مرة من تلك المرات ، أن قال لهم جلالته أنه « حقيقة لا تكفيني هذه المدة الوجيزة التي أقضيها معكم ، وإنني لو استطعت لقصيت العام كله عنكم ، ولكنكم تعرفون الحقيقة ، وتعرفون الأسباب التي تحملني على تجزئة الوقت بين شقي المملكة ، وأهم تلك الأسباب شغفي بالبادية التي نشأت بها وقصيت الشطر الأكبر من حياتي فيها ، وإنما الواجب عليكم أن تزوروا نجد وتعرفوا إليها عن كثب ، فلا أظنكم تعرفون عنها إلا الشيء القليل ، وأنتم شعب واحد وأمة واحدة ، وقد توفرت ولله الحمد أسباب المواصلات للانتقال والتزاور »

وبالطبع ، فقد آمن الحاضرون على كلام جلالته ، وشكروا لجلالته هذا العطف الكريم ، وأعربوا عن صدق رغبتهم في القيام بهذه الرحلة الممتعة في الجزء الذي هو من وطنهم بمثابة القلب ، والذي لا يعرفون عنه أكثر مما قرأوا في كتب الأدب ، والتاريخ هذا هو بدء تكوين الفكرة عن الرحلة .

وقد غادر جلالته مكة بعد موسم الحج في عام ١٣٥٩ عائداً إلى نجد ، وما كاد

يستقر بجلالته المقام حتى أصدر أمره الكريم بتنظيم الرحلة وتنفيذها ، و وكل ذلك إلى نائبه المحبوب حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بنجل جلالته ، وشبهه الدارع في العرين . وقد نهض الأمير فيصل المعظم بما عهد إليه ، وأصدر أمره بإعداد ترتيباتها الخاصة ، وكل ما هو متعلق بتنفيذها .

وقد شاءت المقادير الإلهية مشيئة لم تكن في الحسبان من قبل ، وهي مشيئة أكسبت الرحلة حلة من البهاء والرواء ، وساعدت إلى حد بعيد في إنجاحها وإبلاغها أقصى درجة من الروعة والرونق ، ذلك أن جلالة الملك أصدر أمره الكريم فيما بعد بسفر سمو الأمير فيصل إلى الرياض لأسباب وإن لم تكن لها علاقة بالرحلة ، إلا أنها صادقتها في طريقها ، وكانت مصادفة سعيدة أن يسبق سموه الوفود إلى نجد بعد إصداره الأمر بتنفيذ الرحلة ، كأنما هو والرحلة كانا على ميعاد . وكان هذا من يمن الطالع للرحلة ، ومن أسعد المناسبات التي صادقتها .

وقد تفضل سموه حفظه الله ، فشمّل كاتب هذه السطور بعطفه السامى ، فأمر بأن يكون عضواً في هذا الوفد ، أو راحلاً في هذه الرحلة مع الراحلين ، وهي عناية من سموه لا تنكفي معها عبارات الشكر أو الثناء ، ولا كلمات الإطراء والدعاء ، لا لما انطوت عليه من تكريم لشخصي ، ولكن لما انطوت عليه من تكريم الصفات التي عُرفت بها وأهمها وأخصها ، صفة الأديب والشاعر والصحفي والكاتب ، فقد كرم الصحافة والأدب والشعر في شخصية أصغر ممثل لها ، وهو تكريم اغتبط به كل منتسب إلى مهنة القلم في المملكة ، من الشعراء والكتاب والصحفيين والأدباء ، لأنه تكريم يحمل أسمى معاني التشريف .

وغادر الأمير فيصل مكة ، يوم الإثنين ٢٨ محرم ١٣٦٠ إلى الرياض ، بعد أن اتفق على أن تكون رحلة الوفد في يوم الإثنين الآتي الذي يقع في ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠ .

الشعور بالرحلة والشعور نحو الرحلة

من المهم ، ومن الإنصاف ، أن أتكلم عن الشعور بالرحلة ، وعن الشعور نحو الرحلة ، فما كان موضوع الرحلة بالحدث الهين ، ولا هو بالشئ اليسير ، بل هو على التحقيق كان الشغل الشاغل الذى استولى على الأذهان وصرفها عما سواها حيناً من الدهر ، ولست أبالغ إذا قلت أنه الموضوع الذى أهم الجميع ، وأشغل أذهان الجميع ، واستولى على أفكار الجميع ، وتسربت فيه الظنون إلى جميع المسارب ، فقد كان ذلك حديث الأمة بأكملها ، طيلة تلك الأيام التى كانت موضع الاستعداد ، فأما الراسخون فى العلم من المشتركين فى الرحلة وغيرهم ممن يمت إليهم بصلة ، فقد كانوا يعمون أسبابها كما سردها فيما تقدم ، وأما غيرهم من الجمهور والعامة فقد كانوا يتناقلون مايتخيلون ، ويشيعون من الكلام والهواجس فى غير تحفظ ويذهبون فى التظلمات المذهبة ، فمن قائل أنها لكذا !! ومن قائل أنها لغير كذا !! شأن الجماهير الغفيرة فى كل زمان ومكان !!

وهذه نقطة تعمدنا الإشارة إليها لأنها حقيقة واقعة من حقائق تاريخ الرحلة ، ولأنها تمثل ناحية من نواحي تفكير الجماعات فى بعض جماهيرها العامة !!

هذا كلام عن الشعور نحو الرحلة قدمناه عن الشعور بالرحلة بما يختلف عن عنوانه ، وقد غلبت فى ذلك طبيعة الشاعر على الناثر ، فى الشعر تراعى - أحياناً - من بين علوم البديع ، قاعدة اللف والنشر وما فيها من الترتيب والتشويش ونحن جارينا

العكس وإن كان جائزاً عن الأصل ، وما كان بنا حاجة إلى هذا الاستطراد لولا استخدامه لتبرير هذا السياق !

أما الكلام عن الشعور بالرحلة ، فذلك هو الكلام . الكلام عن الشعور بالرحلة هو الكلام الذى يعرفه ويحسن التعبير به والتعبير عنه ، كل من اشترك فى الرحلة ، وأنت لو قتشت سويداء قلب كل من اشترك فيها لوجدت فيه أو لوجدته هو بذاته ، السنة ناطقة خافقة ، قد تحسن التعبير ، أو قد يعجزها الإحسان فى الإفصاح عن التعبير ، لدقة ما كان يساورها من الشعور ، وما كانت تحس به من مزيج هو الفرح الكامل ، والسرور المطلق ، والتطلع إلى أفق كله سعادة وهناء ، للحاضر والمستقبل ، للفرد والمجموع .

فأما من الناحية العامة ، فقد كان شعور الأمة بأمرها هو هذا الشعور ، وكان الناس فيما بينهم يتناقلون ذلك بموجة طاغية من البشر والسرور حتى لكان فى كل بيت ، وفى كل جارية ، وفى كل صدر ، موجة خاصة من موجات المرح ، تغمر صاحبها ، وتشيع فيه ، وتظفر منه بمكنون نفسه ، فتكاد تجعله تياهاً على سواه بما يشعر أنه اختص به من ذلك السرور المتاح . ويرجع سبب ذلك إلى ما هو معروف عما سيلقاه الوفد من نعمة لقاء المليك فى مقره ، بما يشبه لقاء الأسد فى عرينه ، والخطوة باجتلاء طلعة الملك الذى هو أمل أمة ناهضة ، ومناطق رجاء شعب كامل ، أضف إلى ذلك ما فيه من جدّة الرحلة ، وطرافة رؤية تلك الديار التى هى من قديم الزمن ، موضع حديث الكتاب والشعراء فى كل جيل وكل تاريخ وكل عصر .

أجل . لقد كانت الأمة كلها ، تود أن تكون وفد نفسها ، لتمثل كياناتها بكيانها ، وقد كان كل فرد من أفرادها يود لو أتيحت له النقطة بين طرفة عين وانتباهتها فيكون واحداً من المسافرين . فأما وإن ذلك ليس فى الإمكان ، فقد حل محل ذلك الأمل الباسم

شيوع الغبطة بين جميع الأفراد حتى ليأخذ كل منهم نصيبه منها بما يكاد يشعره أنه عضو فيها . ولقد قضى أعضاء الرحلة مدة أسبوع في العاصمة يتهيأون فيه للسفر ، وهم يتلقون التهانى الحارة المنبعثة من أعماق قلوب أصدقائهم ومحبيهم ، وأهلهم وذوى عشيرتهم الأذنين وغير الأذنين ، على ما قدره الله لهم من سعادة باختيارهم لتلك الرحلة الطريفة ، وما يترتب عليها من تشرف بلقاء الملوك ، ومن ارتياد الديار التى هى بمثابة العرين للأسد ، والتي هى بالنسبة لمن لم يعرفها كالغيب الغامض المجهول ، وحسبك منها أنها الديار التى ربض فيها أسد هذه المملكة ، واستشرف منها على إيفاع مملكته استشراف حاذق لبق .

ذلك بعد أن أشبعنا التاريخ وأسفار الأدب بالروايات المسلسلة عن نجد وما أحاطها به من المناظر والرؤى ، وما نقل عنها من الطرف الرائعة والأحداث الطليقة الشهية ! أفلا تكون الرحلة إلى نجد ، مع ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، مغرية جذابة ؟ إلى أقصى حدود الرغبة والإغراء .

هذا هو بعض الشعور العام .

أما كاتب هذه السطور ، فقد كان له شعور خاص لا يستطيع التعبير عنه إجمالاً إلا ما سيرد فى السياق مبعثراً بالنظر لعوامل عديدة ، أهمها صفته المشتركة التى قلنا عنها آنفاً ، أنها صفة الشاعر والكاتب والصحفى ، فقد كان غرامه بنجد ، وشغفه ببادية نجد ، مبعث اشتياق لاحت له من التشوف والحنين ، فكثيراً ما قرأ فى أقوال المتقدمين ، وسير التاريخ ، وسيرة نجد فى القديم والحديث ، وأخيراً سيرة نجد فى عصر آل سعود عامة ، وفى عصر الملك عبد العزيز مؤسس مجدداً الحديث ، ما كَوَّن فى نفسه فكرة خاصة عن تلك الديار ، وما أهاج فى نفسه ذلك ، الحنين .

فلا عجب بعد ذلك أن يكون سروره بالرحلة متناسباً مع ما هو فى نفسه من الشوق إليها ، وبكل ما يستطيع أن يشعر به من تكوين السرور ، وشيوع الاغتراب .

هوامش - على ما تقدم

قد تكون الهوامش على ظروف هذه الرحلة وملابساتها ومناسباتها كثيرة ، وقد تأتي هذه الهوامش في مواضعها من السياق مبعثرة بين السطور ، ولكن الشيء الذى يختص منها بهذا الفصل هو الذى تعمدنا إيراد هنا ، ولذلك حصرنا حدود الهوامش على ما تقدم ، كما هو واضح فى العنوان !

كان أول رجل من كرام الرجال الذين لقيتهم ، بعد صدور الإذن بالرحلة ، حضرة صاحب السعادة « فلان ! » وهو رجل لا أود ذكر اسمه هنا - لأنه جندى مجهول وهو صديق كريم من كبار رجال الحكومة وقد عبر لى خير تعبير عن شعوره بصفة عامة نحو الرحلة ونحو فكرتها ، وتمجيد ما تفضل به حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله من فكرة الرحلة ومؤازرتها بعطفه وكريم رعايته ، وما أبداه حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فيصل من تأييدها وشمولها بعطفه وجميل عنايته .

وفى اليوم التالى ، اجتمعنا فى منزل « سعادة الشيخ عباس قطان » أمين العاصمة - وقتذاك - وكان هناك سعادة السيد صالح شطا النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى ، وجرى الحديث مع « أمين العاصمة » وليس هناك حديث غير حديث الرحلة والمشاركين فيها وميعاد سفرها وما إلى ذلك من الشؤون المتعلقة بها ، فقليل لسعادته ألا تشترك فى الرحلة ؟ فقال « إنى شديد الرغبة فى ذلك ، ومن ذا الذى لا يرغب فى رحلة يتشرف فيها بلثم يدى مولاي حضرة صاحب الجلالة الملك ، ولكن العمل فى أمانة العاصمة ، وعلاقة أمانة العاصمة بالجواهر والأسواق والحاجيات ، كل ذلك أو بعضه مما يدعونى إلى التفكير فى الاختيار بين السفر وبين الإقامة !! »

واسترسل الحديث وكانت رغبة الزملاء شديدة في أن يكون الشيخ عباس قطان زميلاً لهم في السفر لأسباب منها الأُنس بشخصه ، ومنها خبرته بشؤون الرحلات ، كما أن رغبته هو الآخر كانت متجهة إلى السفر لأسباب أهمها شرف المثول بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ومنها مرافقة زملائه وكلهم صديق عزيز عليه ، في رحلة شائقة طريفة كهذه الرحلة .

ولم ينفذ المجلس ، حتى كان الشيخ عباس قطان أمين العاصمة ، عضواً في هذا الرحلة ، ثم لم يلبث أن صار فيما بعد شيخها على الإطلاق .

وفي المساء ، كان كاتب هذه السطور ، يجلس في بيته إلى مكتبه مغتبطاً بما هو واقع من أمر الرحلة ، فخطر في باله صديق من أكرم أصدقائه المحبين إلى نفسه ، وهو سعادة الشيخ عبد الرؤوف الصبان عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف ، - وقتذاك - ومدير الأوقاف وأمين العاصمة - الآن - وكان في جدة مقيماً منذ بضعة أيام للاستشفاء وتغيير الهواء ، ولم تمض بضعة دقائق حتى كان سلك الهاتف يصلنا ببعضنا ، وإذاني وجهاً لوجه ، - أو أذنًا إلى أذن - أمام صديقي ذاك بواسطة سلك التلفون . ترى ماذا أقول لصديقي ؟ ! لقد زففت إليه نبأ الرحلة ولم يكن يعلم عنها من قبل إلا الأنباء الإجمالية قبل أن تخرج فكرتها إلى حيز التنفيذ وأخيراً أحاطته بما وصل إليه أمر الرحلة وأعضائها ، فكان شديد السرور بموضوعها وبإنجازها إلى حيز التنفيذ ، وباختيار أعضائها ، ولكن ما هي النتيجة من هذه المحادثة ؟ ! وما هو بيت القصيد منها ؟ ! أما الهدف الذي قصدت إليه ، فقد أجملتها لصديقي في جملة مؤداها ، إن هذه الرحلة لا يمكن أن تفوتك ، وإن فرصتها لا يمكن أن تعوض ، فالبدار البدار ، فأجابني بالتأمين على ذلك ، وقال « إنني مشترك فيها إن شاء الله ، ولن يفوتني شرف الخطوة بها ، وبعديومين أكون بمكة إن شاء الله » ، وانتهى الحديث بيننا بعد تأكيد مني وإجابة منه ، وكان ما أراده الله من تحقيق رغبتي في مصاحبة صديق عزيز كهذا ،

في رحلة ممتعة كتلك ، إذ حضر بعد يومين إلى مكة وانضم إلى عضوية الرحلة وزمالة أعضائها .

وكان لهذا الصديق فيما بعد - خلال أيام الرحلة - شأن معي شخصيا - سيأتي ذكره في محله ، وشأن آخر مع حكومة جلالة المعظم ، سيأتي ذكره أيضا في محله !

ومضت بضعة أيام ، وانتقل موضوع الرحلة إلى المرحلة التالية ، فقد عملت وزارة المالية من جانبها ، أو بالأحرى سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية ، الترتيبات اللازمة للتنفيذ ، وكان لسعادة الشيخ محمد سرور الصبان المدير العام لوزارة المالية النصيب الأوفر في السهر على تأمين ذلك التنفيذ . وأخذ المسافرون أهبتهم للسفر بعد أن أعلن ميعادها وهو يوم الاثنين ٥ صفر ١٣٦٠ . وما كان هناك من الحديث المستساغ بين الناس في سرهم أو نجواهم إلا حديثها وموضوعها ، خصوصا أعضاء الوفد ومن يمت إليهم بالصلات من ذوى القربى ومن الأصدقاء والمحبين ، كما عهد إلى مدير شركة السيارات الشيخ عبد الحى قزاز بأن يعد السيارات اللازمة لركوب أعضاء الوفد ومن معهم من التوابيع والخدم والحاجيات ، فنهض بواجبه خير نهوض بعد أن علم بالساعة التي يتحرك فيها ذلك الموكب الخفيل .

وكان عدد السيارات التي خصصت للوفد كما يأتي - : ثلاث سيارات صغيرة لركوب الأعضاء ، وثلاث سيارات كبيرة لركوب التوابيع والخدم وحمل الأتقال والأمتعة والأحمال .

أعضاء الوفد المكي

وانتهى تأليف الوفد الذى تقرر سفره من حضرات السادة الأفاضل الآتية أسماؤهم

- ١ - السيد صالح شطا : النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى
 - ٢ - الشريف شرف رضا : عضو مجلس الوكلاء
 - ٣ - عبد الرؤوف الصبان : عضو مجلس الشورى ورئيس مجلس المعارف^(١)
 - ٤ - الشيخ عبد الله الشيبى : عضو مجلس الشورى والسادن الثانى لبيت الله الحرام
 - ٥ - السيد عبد الوهاب : نائب الحرم ومدير الأوقاف (توفى إلى رحمة الله)
 - ٦ - الشيخ عباس قطان : أمين العاصمة - حينذاك -
 - ٧ - السيد عبيد مدنى : عضو مجلس الشورى
 - ٨ - السيد على فضل : » » » (توفى إلى رحمة الله)
 - ٨ - كاتب هذه السطور
- وقد رافق السيد صالح شطا أحد ذوى قرابته السيد صادق دحلان كما رافق الشيخ عباس قطان شقيقه عبد الرحمن قطان ورافق الشيخ عبد الله الشيبى نبجله زبنى الشيبى .

(١) وسعادته الآن يشغل منصبى « أمين العاصمة » و « مدير الأوقاف العام »

الفصل الثاني

ابتداء الرحلة - يوم السفر

أصبحت مكة منذ فجر يوم الاثنين ٥ من شهر صفر عام ١٣٦٠ على حركة غير عادية ، وإذا كان هذا الإطلاق غير جائز ، فلا أقل من أن بضعة أحياء من أحياء مكة ، ومئات من أهلها ، قد أصبحوا في فجر ذلك اليوم إصباحاً غير عادى ، ولم لا يكون ذلك كذلك وهذا الوفد المكى يزعم السفر فى أصيل ذلك اليوم إلى نجد ، وقد بينا فيما تقدم ، الأهمية التى أحدثتها حركة ذلك السفر ، سواء فى نفوس المسافرين ، أو فى نفوس أهلهم وذوى قرابتهم الأدين وغير الأدين ، ثم أليس هؤلاء الذين يزعمون السفر ، وهم صفوة من أعيان مكة يمتنون بمختلف الصلات إلى كثير من ذوى القربى ، ويمت بمختلف الصلات إليهم الكثير من ذوى القربى ؟ ! ثم أليسوا هم أيضاً أصدقاء الكثير من الناس ؟ وأليس الكثير من الناس أصدقاء لهم ؟ !

وإذا كان ذلك صحيحاً - وأنه لصحيح - فلا نكون أسرفنا فى الإطلاق الذى قلنا فيه أن مكة صحت ذلك اليوم من نومها صحوّاً غير عادى ، تأهباً لحركة سفر أولئك المسافرين ، وتأهباً لتوديعهم والحفاوة بهم قبل سفرهم .

أجل . كان يوم الاثنين ٥ صفر ، يوماً تاريخياً مشهوداً فى مكة للأسباب التى قدمناها آنفاً ، وقد كان ذلك حقيقة واقعة شهدها الناس رأى العين ، سواء منهم ،

من له صلة خاصة بأولئك المسافرين أو من لم تربطه بهم غير وشيجة الوطن وجامعة الأخوة الإسلامية .

وكان عدد أعضاء الوفد ثمانية أشخاص ، غير ملحقهم الخصوصيين الذين ذكرنا أسماءهم ، وكان قد تقرر أن توزع السيارات بنسبة سيارة لكل ثلاثة من الأعضاء ، وقد وقع توزيع السيارات على الأشخاص ، بالصورة الآتية - :

سيارة لحضرات : السيد صالح شططا ، السيد عبد الوهاب نايب الحرم ، الشيخ عباس قطان ، ومعهم السيد صادق دحلان .

سيارة لحضرات : الشيخ عبد الله الشيبى ، الشيخ عبد الرؤوف الصبان ، السيد عبيد مدنى ، ومعهم زبنى الشيبى .

سيارة لحضرات : الشريف شرف رضا ، السيد على فضل ، فؤاد شاكر ، ومعهم عبد الرحمن قطان .

وبعد صلاة العصر كانت السيارات الصغيرة موزعة على بيوت ركابها وقد اجتمع ركاب كل سيارة في بيت مختار من بيوت أحد الأعضاء ، وكان الأعضاء قد أدوا صلاة العصر في المسجد الحرام وطافوا بالبیت طواف الوداع ، ونزلوا إلى بيت الشريف شرف رضا الواقع أمام باب المسجد في انتظار بقية الوفد للاجتماع والسفر بعد تقبّل سلام المودعين الذين كانوا مزدحمين في المسجد وفي الشارع أمام البيت وفي داخل البيت .

ومن طريف ما وقع في تلك الساعة الرهيبة ، ساعة السفر والوداع ، أن بحث عن السيد عبد الوهاب نايب الحرم ومدير الأوقاف - رحمه الله - فوجد في بيته لازال نائماً !! وهنا اهتزت أسلاك التلفون في غير جدوى ، فذهبت الرسل إلى داره تسأل عنه وتستحثه على الصحو !! وتستنجزه موعد السفر ، وكان الموكب متهيأ للسفر ، وكان المودعون قد غصت ببعضهم الطرقات ، وبعض الآخر وهو المهمل ، تجشم عناء

الخروج من مكة إلى مراحل كثيرة من أجزاء الطريق ، والوقت علاوة على أنه ضيق كل الضيق فهو يزداد ضيقا ، لأن الليل وشيك الحلول ، ولأن المودعين ينتظرون في قلب الماصمة وفي خارجها ... كل ذلك والسيد ... نائم ، كأنما هو قد نسي أن وراءه اليوم سفراً احتشدت له مكة . ولقد أفلحت الرسل في صحوه ، وها هو ذا قد صحا ، ولكن الاستعداد للسفر أين هو ؟ ! وقد عجز الوفد عن الاتصال به تلفونيا للاطمئنان إلى صحوه أولاً ، وإلى استكمال استعداده للسفر ، فبادر رئيس الوفد إلى إنقاذ الموقف فركب سيادته وذهب بنفسه إليه ، وعلم بأنه صحا ، واستنجزه أمر السفر ، فها هو ذا قد صحا ، ولكن أمامه بعد ذلك ، بعض حاجيات يريد مشتراها في ذلك الوقت ووراءه بعد ذلك زملاؤه ينتظرون على أحر من الجمر ، ووراءه غيرهم مئات من المودعين ، بينهم صفوة رجال الدولة وصفوة المحبين والأصدقاء !! وهم بين مكة وبين الشرايع ... ينتظرون . ألا فانتظروا ... وإلا فلا تنتظروا ...

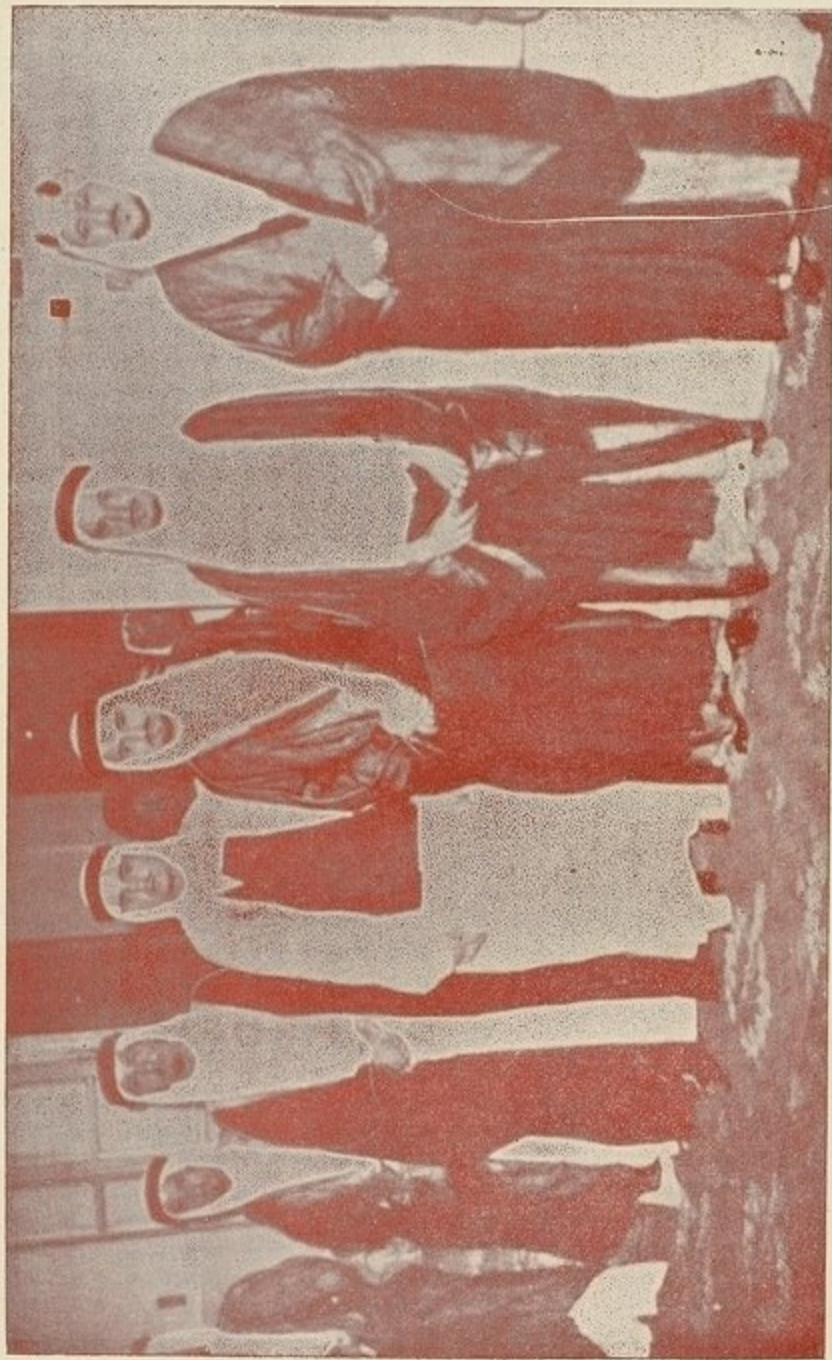
وأخيراً وفق الله السيد صالح شطاً إلى النجاح في مهمته وهي اكتناف السيد عبد الوهاب من منزله إلى السوق ، ثم إلى المسجد حيث دخوله من باب العتيق ثم إلى الطواف والخروج من باب الوداع ، حيث كانت الأمة محتشدة ، وحيث كانت الأعناق زائغة والأبصار متطلعة ، والهوامات متشوفة متطاولة ... كل ذلك إلى ناحية المسجد ، مشرئبة إلى ناحية القادِم منه ، إلى ناحية السيد عبد الوهاب ... وأخيراً ، ها هو ذا قد وصل ، ولكنه وصل في عبوسة لا تسمح لأحد من الحاضرين أن يسأله ، لم هذا التأخير؟ وما أسبابه !! والسيد إذا غضب ، غضب معه الناس مجاملة لغضبه ، وإذا ابتسم ابتسم معه الناس - أيضاً - مجاملة لابتسامه !!

إلى الشرايع

وبعد الفراغ من طواف الوداع ، وتوديع المودعين تحرك الموكب قاصداً إلى «الشرايع» ، وهى أول مرحلة من مراحل الطريق بعد مكة ، على مسافة ٢٧ كيلو متراً منها . وفى الطريق إليها فى المسكان المعروف بالأبطح من أعلى مكة التقى الوفد بنخبة من كبار رجال الدولة كانوا قد سبقونا إليه للتوديع ، وهم أصحاب السعادة الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان سمو الأمير فيصل المعظم ، وسعادة الشيخ عبد الله الفضل نائب رئيس مجلس الشورى وسعادة مهدي بك المصلح مدير الأمن العام وغيرهم . وقد ودعهم بعض الرفاق وسافر إلى الشرايع فوراً ، وبقي البعض الآخر مع حضرات هؤلاء المودعين لحظات قصيرة حيث كانت الشمس قد أتمت غروبها فى جوف الصحراء ، فوجبت الصلاة ، وصلى كاتب هذه السطور إماماً بالرفاق ! ومن ثم جرى التوديع بين المسافرين والمقيمين ، واستأنفنا المسير إلى الشرايع بعد لحظات وداع حارة رهيبة .

وكانت الشرايع تموج بمن فيها من كرام المودعين من مختلف طبقات الأهلين ، يتقدمهم أعضاء مجلس الشورى ، ومديرو الدوائر ، وكبار الموظفين ، وغيرهم من هيئات المطوفين والهيئات الأخرى ؛ وكان رئيس هيئة المطوفين الشيخ محمد الهرساني قد نصب سرادقاً ضخماً لاستقبال الوفد وتوديعه . وقد قضى الوفد مدة الثلاثين دقيقة التى قضاهـا فى الشرايع مغموراً بمطف أولئك المودعين الذين ما خرجوا إلا بعواطف ملتهبة متحمسة ، لغرض نبيل شَعَّ فى نفوسهم فساقها من حيث تشعر أو لا تشعر إلى النهوض بأداء واجبه ، أجل لقد كانت صدور أولئك المودعين السكرام وهم يعدون بالمئات ، تموج بما فيها من عاطفة حساسة ، هى أسمى العواطف ، ذلك بأن

حضرات أصحاب السما السكى : الأمير سعود ولي العهد ، والأمير خالد ، والأمير منصور ، والأمير فهد ، والأمير عبدالله ، والأمير بندر من أنجال صاحب الجلالة





التوديع لم يكن هو وحده الذى بعث ذلك الرهط الكبير على الهجرة من مكة إلى ذلك المكان السحيق ، وتجمش عناء الانتظار والسفر بعض يوم وبعض ليلة ؛ ولكن كان هناك إلى جانب التوديع غرض أسمى قصدوا إليه ، هو تحمية المليك العظيم ، وتحميل الوفد آيات الود والولاء لجلالة الملك الجالس على عرش من قلوب أمته .

أجل . ذلك هو الغرض النبيل الذى بعث تلك الوفود المتجمعة على الهجرة وتكبد مشاق السفر .

والشرايع هذه ، منزل قديم للمسافرين إلى الطائف بطريق السيارات ، وهى واد فسيح فيه عيون ماء قديمة كانت فى وقت من الأوقات المتقدمة جنة فيحاء بما تثمره من ثمر ، وما يتضوع فى أرباضها من أريج وزهر ، ثم طغت عليها العصور المتجنية ، والأيام المتقلبة ، فأحالتها إلى ما يشبه الجذب ، وأخيراً تنضر عهداً فى عصر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بسبب كثرة السفر إلى الطائف - المصيف المعروف - فأقيمت فيها المقاهى وعمرت بالمسافرين بين مكة والطائف ونجد وغيرها من الجهات الترامية فى شرق المملكة العربية السعودية ، وتطور أمرها أخيراً فى عهد حكومة صاحب الجلالة بأن أنشئ فيها مركز حكومى للشرطة ، ومركز للتليفون ، ومركز للإسعاف النقلى تابع لشركة السيارات ، وكثرت فيها حركة العمران ؛ ثم زاد الله فى عمرانها وصلاحتها فتعهدا معالى وزير المالية وشقيقه سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية فالتفت إلى عيونها المحطمة ، ومياهها الفائرة فى باطن الأرض ، وجذبها الماحل ، وابتعث من ذلك كله إصلاحاً جديداً شاملاً نهض بالشرايع فجعلها اليوم غيرها بالأمس ، حيث تعهد بزراعة مساحات شاسعة من أراضيها وبنى بها بعض المباني الفخمة وجلب إليها الفلاحة والماشية ، فإذا بها لاتنتج محصولاً زراعياً فحسب ، بل كان لعناية محصول مواشيتها من الألبان ومشتقاتها من جبن وغيره بالطرق الفنية الحديثة والآلات ، أوفى نصيب .

وها هي ذى الشرايع ، تتوافد محصولاتها في الصباح الباكر من كل يوم على مكة ، فتساهم بنصيبها الوافر في تغذية العاصمة المكية التي هي كما قال الله تعالى واد غير زرع . فجزى الله خيراً كل من ساهم في رفاهية تلك البلاد المقدسة والوافدين عليها من المسلمين ؛ وجزى الله خيراً كل من ساهم في تعمير الأرض ، وإحياء مواتها بإذن الله .

وعلى من يريد أن يعرف الفرق بين ما كانت عليه الشرايع قبل أعوام قليلة خلت ، وبين ما هي عليه اليوم ، فليراجع كتاب منزل الوحي في صفحة ٢٩٦ حيث يجد فيه مانعه :

« وتخطت السيارة محلة الشرايع في مضيق بين جبلين ، وتابعت سيرها حتى بلغت الزيمة ، ووقفت السيارة عند مستوقف النظر في تهامة كلها ، ذلك منظر الماء والشجر الأخضر .

« لقد رأينا بالشرايع أغراساً دعوها بستاناً فلم نحفل به ، أما هنا فقد رأينا الماء ينهمر منحدرأ من الجبال يسقى بساتين عدة ورأينا أشجار الموز تسكظ بعض هذه البساتين والنفس مبهجة مارأت الماء والخضرة » . انتهى

أما الحال اليوم فهو على النقيض ، إذ أن عمران الشرايع وازدهار خصوصيتها جعلها تتقدم في الأهمية على الزيمة بمراحل كثيرة .

البدر والفجر - في الشرايع

هذه الأبيات قيلت في هذا المكان - الشرايع - في ليلة مقمرة من ليالى التمام ،
ونرى من الأمانة للتاريخ أن نضعها في موضعها المناسب :

أقبل الفجر ساحباً أذياه	أى معنى تفيض منه الجلالة ؟!
أقبل الفجر ضاحك السن يختا	ل ، ويبدى على النفوس اختياله
أيقظ الليل بدره فهو صاح	وأنى فجره ، فوارى هلاله
أى نور من أنوار الكون يسطع	ع عليه صبراً ، ويرجو نواله
حسبه أنه المسير بالشه	س ومن وصفه رسول الغزاة (١)
قيل بدر فقلت من أين للبدر	ر جمال ، والصبح أبدى جماله
عبرى الألمان ، تسمع فيه اا	طير تشدو وتستقي ظلاله

أقبل الفجر فالدجى مكفهر	شاحب الوجه ، ساحباً أذياه
ممعناً في الفرار كالفارس المم	زوم ألقى إلى الفرار عقاله
روّعته هزيمة الكر والفر	فألوى ! فأين منه البسالة !!
وتبدّت من الصباح تباشير	كحسنا أقبلت في غلاله
لو رأيت المرأة إذ تصف النو	ر فتبدى على سناها خياله
إنه الصبح قد تنفس في الليل	وما الليل بمد إلا ذباله !!
غمرة أنواره البيض حتى	هزل الليل ثم وارى هزاله

(١) الغزاة اسم من أسماء الشمس .

في السيل

وبعد ذلك سار الموكب قاصداً إلى السيل ، وهو المرحلة التالية والوسطى ، الواقعة بين الشرايع وبين عشيرة المحطة الرئيسية لنزول الوفد واستراحته ، والمسافة إليها ٧٧ كيلو متراً من مكة .

وفي الساعة الثالثة مساء وصل الموكب إلى السيل ، وهو الوادي الجميل الذي يقع في سطح مرتفع كبير يبتدىء من عشرين كيلو متراً في صعود اصطلاح على تسميته « البهتاه » ، وهو محاط بسلسلة تكوّن شبه استدارة من الجبال المحيطة به وصار الوادي مصباً للأمطار المنهمرة على تلك الجبال ومسيلاً لها ، ولذلك عرف باسم السيل ، ذلك بأن مجرى ماء السيل لا يكاد ينقطع منه أكثر أيام السنة ؛ بل هو في السنين الممطرة يستمر متصلاً في جريانه أكثر العام ، وفيه قليل من المزارع والحدائق المثمرة ولكن على بعد عشرات قليلة متفاوتة من الأميال توجد مزارع وحدائق أخرى مثمرة أكثر منه اتساعاً وثمراً ، ومن أبرز ثمره نوع من الثمر يسمى « رطب العقرب » واحدة تشبه الخيارة المكورة ، ولعلها تنسب إلى وادي عقرب ، وهو يقع إلى شرق الطائف بعد قليل من أم المحض أو أم الحمد .

وبالنظر لأن الوادي المذكور يقع في نصف الطريق تقريباً بين مكة والطائف ، وهو في منزلة وسطى من الارتفاع بالنسبة للطائف ، وبالنسبة لجودة مناخه فقد اتخذهُ المسافرون خطأً لنزولهم وتبديل هوائهم واستراحتهم أثناء رحلتهم بين مكة والطائف من قديم الزمان ؛ وكان إلى جانب ذلك مكتسباً أهميته من سبب آخر هو أنه يحرم منه القادمون إلى مكة عن طريقه .

والسيل واد جميل المناخ ، وقد قيل عنه أنه منزل سوق عكاظ وثبت على هذا

الرأى كثير من الباحثين وتشكك فيه آخرون ، وقد عنى سمادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا في زيارته للبلاد المقدسة وفي كتابه منزل الوحي ، عناية خاصة ببحث موضع هذا المحط المسمى السيل ، وما قيل من أنه منزل سوق عكاظ المشهور ، وهو وإن لم يقطع بذلك كغيره من الباحثين إلا أنه مما لاشك فيه أن هذا المنزل التاريخي له شأن منذ أقدم العصور في كونه مثابة للعرب في جاهليتهم وإسلامهم - فيما تقدم - كما له شأن اليوم جعله ميمراً بين منازل البادية في أنحاء المملكة العربية السعودية . والسبب لذلك - في نظري - يرجع أولاً إلى جودة مناخ الوادي ، وتوسطه البادية ، ونسبة ارتفاعه المعقولة ، وأنه ملتقى خطوط سفريّة كثيرآ كالطائف ونجد عموماً وغيرها ، وبالجملّة فهو ملتقى خطوط المسافرين المتنقلين من شرق المملكة وشمالها الشرق وجنوبها الشرق أيضاً ويصل بين بعض أجزاء تهامة .

ولقد كان هذا المكان كغيره من أمكنة البادية - المهمة - سابقاً ولكن في عهد حكومة جلالة الملك ، أنشئ فيه خط تليفوني وصله بمكة والطائف وغيرها ، وأقيمت فيه مظاهر للعمران كالأبنية والمقاهى والخوانيت الصغيرة ، ولولا تشدد أهله وحرصهم على دفع المنافسة عنهم واسترحامهم ذلك من لدن صاحب الجلالة لعمر السيل إلى أكثر من ذلك ، وبرغم هذه العقبة الموقوتة فلا بد لهذا المكان - بجودة مناخه وحسن موقعه - أن يصارع أهله ويظفر بمخدلاتهم ويتقدم عنهم إلى مراحل بعيدة من التطور وال عمران ، ذلك بأن مناخ السيل يفرى على الإقامة والهجرة لأن كثيرآ من القاصدين إلى مصيف الطائف يكرهون على السفر إليه فرارآ من حر مكة أو التماسآ لجو الطائف ، ولكن ارتفاع الطائف وهو يبلغ ستة آلاف قدم على الأقل يجعل بعض المرضى وذوى الأمزجة الخاصة يفضلون مكاناً كالسيل لا يبلغ إلى غير نصف هذا الرقم من الارتفاع .

إلى العشيرة

تقع العشيرة شمال الطائف على مسافة تزيد على ستين ميلاً منها ، وهى شمال السيل وواصل الموكب سفره من السيل إلى عشيرة والمسافة بينهما ٣٥ كيلومتراً ومجموع المسافة بين مكة وعشيرة ١١٢ كيلومتراً ، وقد استأنف الموكب سفره من السيل فى الساعة الثالثة والرابع تقريباً ، فبلغ عشيرة فى الساعة الرابعة والنصف ليلاً ، وقد ترجع لوعورة هذا الجانب من الطريق ، وللبطء الذى سرنا به اقتضاء لما يتطلبه الليل من هدوء ، بعض الأسباب التى جعلتنا نصل متأخرين إلى عشيرة بعض التأخير . ويكاد يكون هذا الجزء من الطريق أى الواقع بين السيل وعشيرة ، هو أوعر أجزاء الطريق بين مكة والرياض ، نظراً لأنه يقع فى سفوح جبال متصلة ، وأحياناً يصعد إلى هضبات عالية شبه الجبال ، إن لم تكن هى الجبال بعينها !

هذه العشيرة ! وهذا نورها المضى قد بدا فأربى على نور القمر الخافت الذى لم يزل وليدأ فى مهده ، فنحن فى الليلة السادسة من الشهر ، والهلال لازال يتدرج من مهد الطفولة وقد اختفى أو هو فى طريق الاختفاء وراء الجبال المحيطة بنا ، وبعض الرفاق هوّمْ فى سيارته من سهر الليل وتعب ذلك النهار المضى . ولكن ما كاد ضوء عشيرة يلوح من بُعد ، بعد أن كنا نترقب الوصول إليها ، وتطلّع إلى نورها حتى انتعشت فى الرفاق روح المرح ، وهبت فى نفوسهم عاصفة النشاط ، فتخابروا بين بعضهم ، هذه عشيرة ، هذا نورها ! هل هو كذلك أم الضوء نور سيارة قادمة ؟! كلا بل هى عشيرة على التحقيق !! فالضوء ثابت لم يتحرك ، وهما نحن نقترّب منه دون أن يقترّب منا !! ولم يطل اللجاج فى هذا التحقيق ، حتى كنا وجهاً لوجه أمام تلك الهضبات العالية من الحرار السوداء ، وهى الميزة التى امتاز بها ذلك الوادى ، بل

هى البشير الذى يبشر المسافرين من مسافة بعيدة بأنه فى عشيرة أو على مقربة منها ، ذلك بأن حول عشيرة ساسلة من هضبات سوداء ، تكاد تكون ساسلة محيطتها بها من الحرار القائمة الصعبة المرتقى ، ولو كنا قادمين إلى عشيرة فى وضح النهار ، أو لو كان القمر كاملاً فى سطوعه ، لتسنى لنا أن نرى عشيرة من مسافة بعيدة مميزة بتلك الهضبات السود المرتفعة .

وكانت سيارات الحمل والأمتعة والخدم قد سبقتنا إلى عشيرة ، فلم نبلغها ، حتى كانت المضارب منصوبة ، والسرج موقدة ، والأرض مفروشة ، والطعام مطهيًا ، ولا أبالغ إذا قلت أنه كان فيها من سبقنا إليها من كرام المودعين الذين أبت عليهم أريحيتهم ومروءتهم إلا أن يكون وداعهم لنا من ذلك المكان القصى السحيق ! وكان لقاء جميل من أولئك الأصحاب الذين فوجئنا بمرآهم ، بعد أن كنا قد لقينا من سفرنا نصيبًا ، وبعد أن كنا قد كابدنا منتهى التعب منذ فجر ذلك اليوم إلى مايقارب منتصف ليله ! ولم نلبث أن زال من أجفاننا ذلك الخيال الذى كان يداعبها من قبل ، خيال التهويم والاغفاء ، ولم نلبث أن زال من أجسامنا ذلك التعب المضنى الذى كنا نشعر به من قبل ، أو قد خيل إلينا أنه زال ! وألقينا بأنفسنا فوق الأرض الوثيرة بداخل الخيام ، وانقسم الوفد إلى ثلاث خيام ، ولكن اجتمع الجميع فى خيمة واحدة ، لثلاثة أشياء هى السمر ، وتناول العشاء ، وطلب الدفء ، وكان البرد شديدًا ، شديدًا إلى درجة مزعجة .

أجل . هذه عشيرة ، وهى أول مرحلة تنزل للمبيت فيها من مراحل الطريق ، وهى أول ليلة نبيت فيها غرباء عن أهلنا ومنازلنا ، أجل هذا البرد الشديد القارس ، ولئن جاز الاحتماء منه فى داخل الخيمة واللجوء إلى الدفء تحت الفراش الوثير ، فكيف الفرار منه فى عمل لا ينجى فيه الفرار ! فالوضوء أمر لا بد

منه للصلاة، وليس هناك من الأعذار ما هو متاح لاستبداله بالتيمم، وها هو ذا طعام العشاء قد دنا وقد صف الخوان، ولو استذكرت أذهاننا ماسنائق بعد تناوله من الماء في غسيل اليدين لأضربنا عن تناول الطعام، ولكففتنا عن الأكل اتقاء المشقة التي عانيناها في الفسيل ! وهناك شيء ثالث لاحيلة في احتماله، فاستعمال الماء من الخارج أمر إن جاز تلافيه وأمكن تداركه، فكيف يمكن تلافى استعمال الماء من الداخل، فنحن إذ نتناول الطعام، لا يمكن إغفال الحاجة إلى تناول شربة من الماء، وكيف السبيل إلى تناول شربة الماء، والمرء لا يكاد يستطيع لمس الإناء الذي فيه الماء من خارجه، فما بالك بما في داخله ؟ !

لقد كان البرد شديداً إلى هذه الدرجة وإلى أشد منها، فلا تظنن المبالغة فيما أقول فنحن في طرف من وادى ركبته الذي هو من نجد إن لم يكن هو بذاته نجد على التحقيق، ونحن على ارتفاع هائل من سطح البحر، ونحن بعد ذلك كله في صحراء وفي برودة ليل وليس لنا ما يقينا من البيوت الحجرية الدافئة غير تلك الخيام التي أن منعت شيئاً فلا تمتع أشياء ! ومع ذلك فقد كان اثتناس الجماعة لا يعد له اثتناس، وكانت روح البشر والرح والسرور، مرفرفة عليهم جميعاً إلى أقصى حد، والجميع يتبادلون أحاديث الود كإخوان الصفا على مائدة واحدة وفي خيمة واحدة، هي خيمة السمير العذب الشهى الممتع المشتهى، فمن كان في حاجة إلى السمير والتزود من الفسكاكات البريئة التي تبعث النشاط، ظل في خيمة السمير، وإلا فهذا يختلف إلى خيمته الخاصة ليأوى إلى فراشه قليلاً، أو يمدد إلى المطهى ليلهم مع من فيه قليلاً، أو إلى المقهى، أو إلى غيره، وكان قطب الرحي في خيمة السمير، هو السيد عبدالوهاب نايب الحرم ومدير الأوقاف - رحمه الله - فنه تسمع عقداً متصلاً من القصص والحكايات والأحاديث والنوادر والفسكاكات والملح، وهذا العقد لا ينفرط منظومه، أو أنك لا تستطيع أن تفض نظمه، ومهما شئت أن تسمع فلتسمع وأنت غير ملول،

وسترى فيما بعد من سياق هذه الرحلة أنك مع رجل من طراز فذ عجيب ، هو مجموعة من كل شيء ، مجموعة من الجد والرزانة ، مجموعة من الفكاهة والدعابة ، مجموعة الأحاديث والأقاصيص ، فإن شدته راوية داعية ، وإن شدته حافظة واعية ، لا تنسى ما مر بها من الحوادث منذ نصف قرن من الزمان .

وسجا الليل وانتصف ونحن من ذلك السمر الممتع في تزيّد ، وكلما ذكرنا البرد وشدته ، وحاجة الواحد منا إلى الخروج خارج الخيمة ارتعدت فرائصنا فرقا وإشفاقا !! والويل كل الويل لمن يعرض له قضاء حاجة ، فيضطر إلى أن يضرب في عرض تلك الصحراء الباردة ، وإلى أن يتحمّل من أذى الماء البارد ما لا يطيق !

وانقضى ذلك الليل وأصبحنا من الفجر على صوت مؤذن الركب وإمامه ، وهو فضيلة الشيخ عبد الله الشبي السادن لبیت الله الحرام ، وكابدنا من أذى الماء البارد وأذى البرد في الوضوء أشد مما كابدناه من برد الليل ، ذلك إلى جانب برد الصباح . ولكن الله أكرم بنا وأعطف علينا من أن يتركنا نهبا لذلك الجو القارس ، فها هي ذى الشمس تشرق علينا وتبعث من حرارة ضوئها إلينا بصيصا من الدفء لا يكاد يذكر في أول الأمر ، حتى تغلب سلطان الشمس على طراوة ذلك الجو البارد فانتشرت حرارتها وهيمنت بسلطانها الواسع على أجواء تلك الصحراء فإذا نحن في نهاريض . وجومشمس مشرق كاد يفسينا رطوبة برد ذلك الليل الفات . وخرجنا إلى الصحراء للتمتع بمنظرها الفاتن وجمالها الخلاب ، وأخذنا في تساقى بعض هضابها وحرارها السوداء المرتفعة مدة تلك الاصباح الضاحية ، ثم عدنا إلى الخيام حيث كان طعام الافطار مهيبا فتناولناه بين أحاديث المرح والدعابات الحلوة البريئة .

وعاد مجلس السمر فالتأم من جديد في خيمة السمر ، وتصدّر السيد عبد الوهاب مكانه - رحمه الله - من صدارة النادی ، يفيض من أشهى الأحاديث وأعذب القصص

وأغرب الروايات ، وقد قضينا في تلك الندوة بضع ساعات حتى أذن مؤذن الظهر فصلينا فريضته ، وكان طعام الغداء قد هيء ومدّت موائده في إحدى الخيام ، فبادرنا إليه جائعين خافتين !! ومن ثم أويئنا إلى القيلولة ، وعمدنا إلى الراحة فاضطجع كل في فراشه منهم من يطلب الراحة بالنوم ، ومنهم من يطلب النشاط بالقراءة والاستذكار وتسليية الوقت حتى انقشعت الظهيرة وأذن مؤذن العصر . وبعد أداء الصلوات وبعد أن نشطت أجسامنا من عقابها عمد البعض إلى التنزه في الصحراء وحول الخيام ومنا من صعد إلى ربوة عالية من تلك الربى ليضرب ببصره في كبد الصحراء .

ولقد كان من حزم الأمور في تلك الساعة أن صدرت أوامر قيادة الركب بجمع الأمتعة وحزمها ، وجمع الخيام المنصوبة وتصنيفها في السيارات ، وإعداد كل شيء للسفر ، وفي تمام الساعة الحادية عشرة ونصف ، أي قبل صلاة المغرب بنصف ساعة تحرك الموكب من العشيرة قاصداً إلى المويه ، وهي المرحلة التي تلي العشيرة في طريق نجد .

إلى المويه

غادرنا العشرة إلى المويه ، وكان في صحبتنا النيران ، الشمس والقمر ، وكانت صحبتهما لنا قصيرة الأمد ، وكان كل منهما في حالة يرثى لها ، فالشمس هزيلة ناحلة ، مصفرة ضامرة ، ليس بينها وبين الغيب غير ثلاثين دقيقة ، وقد كان ذلك ، وانتهت صحبتها معنا بعد تلك الثلاثين من الدقائق . وأما القمر ، فبرغم أنه كان مقبلاً على شبابه ويسير إلى اكتماله بخطى وثيدة متزنة ، إلا أنه كان قد جاوز حدود الطفولة بقليل ، فنحن في الليلة السابعة من الشهر ، فهو إذاً في أقل من نصف كماله ، وصحبته معنا لن تدوم إلى أكثر من نصف الليل ، بل هي لانسكاد تبلغ ذلك ، ولكنه على كل حال هو صديق السفر المؤنس ، وهو خير صديق للمسافر في الليل ، ولقد خلع هذا القمر الصغير على الصحراء جمالا ، كما خلعت الصحراء عليه جمالا أبيضاً ، فكان كلاهما جزء متمم للآخر في الجمال الذي نشاهده نحن ونحس بأنسه ، وننعم به عن قرب ، والكثير من الناس في الحواضر وفي العواصم ، في غفلة عنه ولهو ، يمر القمر من طفولته إلى اكتماله وهم عنه غافلون ، بما حجبته أضواء المدينة الخلابية ، عن عيونهم فخرتهم جلوة الاستمتاع بمثل هذا الجمال المنقطع النظير .

إن الصحراء موحشة ! وهي موحشة في رابعة النهار ، فما بالك بها في الليل؟! أنها لاشك أشد إبحاشاً ؛ ولكن الصحراء على وحشتها مصدر من مصادر الجمال الطبيعي الذي خلقه الله نوراً في أبصار عباده ، وهي مصدر من مصادر توحيد الله الذي خلقه الله نوراً في بصائر عباده ، فكما هي نور في البصر يبعث في النفس الجمال فهي كذلك نور في البصيرة يبعث القلب على التوحيد . فالصحراء التي هذه صفتها على ما فيها من وحشة ، ما بالك بها والقمر مشرقاً على آفاقها وأرجائها ، يبدد وحشتها

ويدها بالأنس والضوء اللامع ، الذى يكشف لك فى جنح الليل البهيم عن الأبعاد الشاسعة المترامية عن يمينك وعن يسارك ، فتمتع عينيك بما فى هذا المرمى من مناظر خلابة ، وتجلو بصرك بما فى هذه الأبعاد من جمال ، وتلا بصيرتك بما فى جمالها من يقين .

لقد كانت الرحلة من العشيرة إلى المويه فى تلك الليلة ، من أهنأ أجزاء الرحلة ، وكانت الليلة من أجمل الليالى ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة أهمها ، هذا المنظر الذى أسلفنا وصفه ، وما ما سيأتى ذكره فيما يلى :

كانت المسافة من عشيرة إلى المويه ١٦٠ كيلو متراً ، فهى إذاً مرحلة طويلة وشاقة ، وعلى الأخص ، على من سيقطعها دفعة واحدة ، فكثيراً ما قيل لنا أنها تقطع فى ساعات أربع ، ولكننا على الوصف الآنف الذكر مشينا مأخوذين بمناظر هذا الجمال ، فى أرض فسيحة لاتبصر العين فيها حجراً فوق حجر ، فلا جبال ولا هضاب ، وليس هناك غير خد فسيح لا أول له ولا آخر ، وكانت سهولة الطريق إلى هذا الحد ، مما زاد فى جمال الرحلة وجمال الليلة ، وجمال القمر ، فكثيراً ما كنا نسير على سرعة الثمانين كيلو متراً فى جوف ذلك الليل البهيم فى غير خشية ولا وجل ولست أبلغ إذا قلت أن هذا الجزء من الطريق ، هو أسهلها وأيسرها على الإطلاق نظراً لفساحة رقعته وامتدادها فى غير وعورة ، فكانت مرحلة هنيئة ممتعة ، لم نشعر فيها بنصب ولا تعب ، إلى جانب المتعة الروحية التى غمرت نفوسنا طيلة اجتيازه . وقضينا ثلاث ساعات سوية فى سير متصل مستمر ، بحيث لم نقف فى خلاله إلا دقائق معدودة لقضاء حاجة من حاجات السفر ، كتناول شربة من الماء أو ما إلى ذلك ، حتى إذا ما بلغت الساعة الثانية والنصف عربية وصلنا إلى المويه ، وما أدراك ما المويه !؟ وصلنا إلى قرية صغيرة بما فيها من عشاش وبيوت من الشعر ، ولكنها كبيرة بما فيها

من مظاهر العمران الفخمة الوثيرة ، وتلك حسنة من حسنات هذا العهد السعودي الزاهر المشرق ، فقد بنت حكومة جلالة الملك في ذلك المكان النائي المجهول ، قصرأ ملكياً نفماً لاستراحة حضرة صاحب الجلالة أثناء تنقله في السفر بين مكة والرياض ، وشيدت إلى جانب ذلك القصر استراحة حكومية مؤلفة من قصر فسيح الجنبات ، بسيط المظهر ، ولكنه كبير النفع عظيم الفائدة ، بالنسبة لما اشتمل عليه من الغرف الفسيحة التي يتلقاها المسافر ، أو هي تتاق المسافر كشرية الماء للظمآن ، أو كالواحة في الوادي المجدب المستعر ، فالمسافر المقبل من بطن الصحراء يشوقه أن يلقى بعد نصبه مثل ذلك البناء الفخم يأوى إليه بعد جهد جهيد .

وصلنا إلى المويه في منتصف الساعة الثالثة ليلاً ، ويمنا شطر القصر الذي تقع إلى يساره الاستراحة الحكومية ، حيث يطلقون كلمة القصر على ذلك البناء جميعه ، واستقبلنا بعض الأهليين الذين بعثت أنوار سياراتنا إلى نفوسهم البشرى بقدومنا ونحن في ذلك الموكب الحافل ، وقيل لنا أن هناك أمير القصر هو المعنى باستقبال الضيوف ، فأرسلنا من استقدمه إلينا فرحب بنا أجمل ترحيب ، وقادنا إلى أنفم مكان ينزل فيه الضيفان ، فشكرنا له جميل عنايته ، ونزل الموكب في ساحة القصر وأوينا جميعنا إلى غرفة فسيحة الجنبات مترامية الأطراف ، صفت فيها أسرتنا ، وجيء لنا بالطعام وتناولناه وأوينا بعد ذلك إلى الاستراحة في فرشنا نسمر ونتمتع بالأحاديث الشهية والمالح الطريفة ! وكانت سويعات ذقنا فيها لذة الراحة بعد التعب ، ولدنا فيها من عراء الصحراء بنعمة القصر .

ولكن هناك مشكلة أشبه بمشكلة الليلة الماضية إن لم تزد عليها ، تلك هي مشكلة البرد ! فالبرد هنا كما هو في العشرة أو أشد ، والوضوء ، وغسل اليدين بعد الطعام ، واستعمال الماء أمر لامندوحة عنه ولا مفر !! فما العمل إذآ؟! لا بد مما ليس منه بد ، وهكذا قاسينا في الليل من برد الجو وبرد الماء الأمرين ، ولكنها مقاساة لذيدة ،

ومعاناة محبة مشتهة ، لأنها في طاعة الله ، ولأن مرح الرحلة وأنسها أضفى عليها منتهى
المرح ومنتهى الأنس ، وعفا الله عن ذلك الأعرابي الذي ذكرت قصته في هذه المناسبة .
ذلك أن طارق بن زياد القائد العربي المعروف ، صاحب الخطبة الرنانة المشهورة في
فتح الأندلس ، كان بين جنوده أعرابي أضرب به البرد في تلك الأصقاع الباردة ،
وتشكى من أذى الماء البارو ، وقد وصل في فتحه وزحفه إلى جبل يقال له « شلير » فقال :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم وشرب الحميا وهو شيء محرّم
فراراً إلى نار السعير فإنها أخف علينا من « شلير » وأرحم

وحدث أن الشاعر المعروف حافظ بك إبراهيم رحمه الله ، سافر في عام ١٩٢٥
إلى إيطاليا ووصل فيها إلى مكان بارد فتذكر بدوره قصة ذلك الأعرابي ، فأنشأ
قصيدة يصف بها رحلته عبر البحر الأبيض المتوسط ، مطلعها :

عاصف يرتقى وموج يغـير أنا بالله منهما أستجير
ثم قال في صدد قصة ذلك الأعرابي :

ذكرتني ما قاله عربي طارق أمسى احتواه « شلير »
إن صدر السعير أحنى علينا من « شلير » وأين منا السعير !

ومما زاد في شدة البرد تلك الليلة أن هطلت مطر خفيفة ، ولكنها برغم أنها
زادت الجو برودة ، فقد زادت جمالاً ، فالطر في الصحراء ، آية من آيات الله تضي
عليها جمالا في المنظر ، وتملح عليها رواء من الحسن والبهجة .

وفي الصباح الباكر ، بعد أن أدبنا فريضة الصلاة ، وتناولنا الطعام ، هممنا بالمسير
بعد أن تزودب سياراتنا بالوقود من بنزين وزيت ، من المحطة الحكومية التي أنشئت
لهذا الغرض ، واحتشد أهل القرية وعلى رأسهم أميرها لوداعنا ، وفي تمام الساعة
الثانية والنصف غادرنا المويه مستأنفين السفر .

الى القاعية

قلت أننا غادرنا المويه في الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الأربعاء ٧ صفر ١٣٦٠ ، وكان دليلنا في الطريق ، هو جدول صغير كتبه لنا أحد الأهليين الذين سبق لهم أن ارتادوا هذه الديار ، وفيه بيان بالمسافات بين كل منزل وآخر ، كما أنه شفعه بمعلومات عن أجواء تلك المنازل وترتيبها وصلاحيات كل منها لما يلائمها من أحوال السفر كالمبيت والمقيل ، وفيه إشارات إلى ما يصلح منها للقلولة وما يصلح للمبيت ، ومعلومات عن المياه وما يصلح منها للشرب في المنازل وما لا يصلح ، وكنا نسترشد بهذا الدليل إلى حد ما في اختيار الأماكن على ما هو مدون فيه ، مراعين ما يلائم ذوقنا وظروفنا في السفر ، وكانت تلك المعلومات بعضها قريب للحقيقة وبعضها بعيد عنه ، ولكنها على كل حال معلومات كانت تؤنسنا في بعض الأحيان ، وكنا نفرز إليها للتسليم حيناً وللإستدلال حيناً آخر .

وعلى مقتضى مطالعاتنا هذا الصباح في الدليل الآنف الذكر ، قررنا أن يكون مبيتنا في قرية الدوادمي - إذا شاء الله - برغم أن الشقة إليها بعيدة والسفر طويل ، ولكننا اعتمدنا الله في أن نغذ السير حتى نصل إلى المكان الملائم للمبيت ! مسترشدين بالمسافات التي رواها لنا ذلك المرشد ، والتي ظهر فيما بعد أنها تنحرف قليلاً عن الواقع مشينا من المويه في الساعة الثانية في أرض جلد لا أثر فيها للوعورة وفي واد سهل منبس لا أثر حواليه للجبال ، وكان سيرنا حثيثاً ساعدنا عليه جو الصباح البارد ، وسهولة الأرض وما كنا نشعر به من نشاط إلى مواصلة السفر بعد راحة الليلة الماضية في المويه ، وراحة الليلة التي قبلها في العشيرة ، وفي تمام الساعة الرابعة والنصف عربية أي بعد ساعتين وصلنا إلى محطة تسمى « الدفينة » وهي ليست محطة بالمعنى المعروف

لأن المكان الذى يسمى محطة هو الذى يكون فيه مخزناً آلياً للوقود إلى جانب القرية التى يكون إلى جانبها ، أما محطة الدفينة هذه ، فهى منزل حول بئر من الماء العذب ، تستقى منه البادية ومن حولها من العرب الضارين أو الرحل ، وفيها حانوت لبيع بعض الحاجيات الضرورية من تمر وأرز ودهن وغير ذلك . والمسافة من المويه إلى الدفينة (٨١) كيلو متراً هى التى قطعناها فى ساعتين وقد توقف الركب قليلاً فى هذه المحطة انتظاراً لاستكمال السيارات وبعد دقائق وصلت سيارات الركب جميعه ، فطلب بعضهم الاستراحة قليلاً ، ولكن البعض الآخر احتج على هذا الطلب بحجة أنه لم يمض على ممشاننا غير القليل من الوقت ، وأنه إذا كان هذا هو شأننا فى السفر ، نقف كل ساعتين فى منزل من المنازل ونطلب الراحة والأخلاق ، فكيف يمكن قطع المسافات البعيدة وفى كم من الأيام نحتاج إلى اجتياز هذا الطريق الطويل !

وتبارت حجج الفريقين المتجادلين ، هذا يقول سيروا بسير ضعفاءكم ؛ وذلك يقول ، السفر كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وغنى عن القول أن الحديث كان يدور بروح الدعابة والمرح ، وبعد دقائق معدودة استغرقها النقاش وأخذ الرأى ، سارت أول سيارة كانت على الطريق فتبعتها الأخريات ، وانفض المشكل بعد أن تحققت رغبة طالبي الاستراحة إلى حد ما بتلك المناقشة التى أخذت من الوقت ربع ساعة كانت هى كل نصيب الجميع من الوقوف فى هذا المنزل ؛ ثم مشينا إلى «عفيف» وهو واد متسع الجنبات تحوطه بعض هضبات تشبه الجبال وفيه محطة آلية للوقود تتزود منها السيارات أثناء سفرها والمسافة من الدفينة إلى عفيف (١١٨) كيلو متراً فهى إذاً مرحلة طويلة .

وقضينا مدة ساعتين ونصف ساعة فى الطريق من الدفينة إلى عفيف ، قطعنا فيها تلك المسافة من غير توقف ، فقد كان الطريق كسابقه سهلاً ميسوراً لا أثر للوعورة فيه



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير بندر ولي عهده الأمير نواف وعما متشعان بالوشاح الأكبر من نيشان النيل
وللى يساره الشيخ سليمان الحمد نجل سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية



وتسعة أجزاء الطريق من مكة إلى الرياض سهل منبسط لا وعورة فيه ولا نصب .
وفي الساعة السابعة بعد الظهر ، وصلنا إلى « عفيف » فلم نجد فيها غير محطة البنزين
المبنية بالحجر على طراز غرارها . من المحطات الأخرى وإلى جانبها حانوت أو حانوتان
لتبادل السلع مع سكان البادية ، ذلك كله إلى جانب بئر من الماء العذب يستقى منه
سكان تلك المنطقة من البدو الضاريين في عرضها وفي سفوح هضباتها بيوتهم الشعر
ومن يجتازها من البدو الراحلين في طلب السكّاء والمرعى ، وتتبع قطرات السماء من
الغيث والسحاب .

وصلنا إلى عفيف ، وكان أكثرنا قد ناله بعض التعب ، لطول الشقة التي قطعناها
في هذه المرحلة من غير توقف ، فالتقينا بأنفسنا على غرفة مأمور تلك المحطة ، وفي
غيرها من غرفات ذلك المبنى الفسيح الذي ضرب عليه سور من البناء الفخم الأنيق
فاسترحنا قليلا من الوقت ، ثم قمنا إلى الوضوء والصلاة ، وقلنا لغلامنا آتنا غداءنا لقد
لقينا من سفرنا هذا نصبا !! وقضينا القيلولة في ذلك المسكان بين نوم خفيف ، وبين
سم طريف ، إلى ما بعد العصر ، حيث نشطت نفوسنا من عقابها ، فأخذنا نتجول
قليلا ، ونعد أنفسنا لاستئناف السفر ، وبعد أن أدينا صلاة المغرب استأنف الموكب
المسير من عفيف قاصداً إلى القاعية . وبدأنا من جديد نسترشد بذلك الجدول الذي
أخذناه دليلا لنا على المنازل والمياه ، فعلمنا أن بيننا وبين القاعية مسافة هي ٧٨ كيلومترا ،
وأن بين هذه وبين الدوادي ٩٩ كيلومترا أخرى ، فتساءل الرفاق ، هل يمكن قطع
مسافة المرحلتين في مرحلة واحدة ؟! وهل يمكن أن نجتازها وهي تبلغ ١٧٧ كيلومترا
على دفعة واحدة وفي هذه الهدأة من الليل ؟! كان الجواب بنعم ولا ! فهناك من يرغب
في صحبة القمر والسفر ، والصحراء ومنظرها الفائق الخلاب ، وهناك من لا يساوي
عنده هذا الجمال ذرة من نوم ، أو خردلة من راحة ، وكلا الفريقين على حق في تصوّره

استناداً إلى ما يشعر به في نفسه من رغبة وبواعث ، فالقوى البنية ، والوافر الصحة ،
يفضل الرأي الأول ، لسببين ، أولهما مواصلة السفر وقطع الطريق ، وثانيهما الاستمتاع
بجمال الرحلة في تلك الهدأة من الليل ، وما فيها من جمال الصحراء والقمر ، وجدة
الديار على الأنظار ، وما في ذلك كله من طرافة وبهاء ورونق ، والفريق الآخر ،
يشعر في أعماق نفسه بالنصب وعدم القدرة على مواصلة السفر وفقدان النشاط ، فهو
يفضل الراحة أولاً والتهوئة اللذيذة التي تعطى الجسم نشاط الراحة وتكسبه لذة
الإخلاء ، وهو لذلك يتعلل بمختلف المعاذير التي ينتحلها من خشية طرود خلل على
السيارات ، وإنه لا يحمد مغبة السفر المتواصل بالليل اتقاء عوارض الطريق وما إلى
ذلك من مختلف المعاذير .

وسار الموكب ، ووجوه الرأي تتقلب كيفما شاءت الأهواء ، حيث يقضى الله أن
يكون المبيت !! ومشينا في طريق لا يكاد يختلف عن سابقه فهو خلو من الوعورة إلا
في بعض مرتفعات خفيفة لاتسكاد تذكر ، وكان الجو صحواً ، والقمر ساطعاً والرحلة
ممتعة ، ولم يطل بنا السفر إلى أكثر من ساعتين ذلك الليل القمر الضاحي الطريف ،
حتى قيل لنا إن هذه هي « القاعية » .

وكان الماكر الذي كتب لنا دليل الطريق لنسترشد به ، قد كتب فيه بعض
الإيضاحات الطريفة عن المنازل ومياهاها ، ولم يغفل أن يضع إشارة خبيثة إلى ما في
بعض المواقع من الهوام والحشرات والزواحف ، فكان يقول لنا في دليله أن المحطة
الفلانية تصلح للمبيت والنوم لأنها خالية من الحشرات ، وإن المحطة الفلانية
لا يستحسن المبيت فيها ، لأن بها أنواع الهوام ، من أمثال العقارب والحيات وبعض
الأحناش !!! وكان بعض الرفاق ، وفي مقدمتهم كاتب هذه السطور ، ممن يهتمون
بهذه الملاحظات الدقيقة ويقدرونها حق قدرها ! وسبب هذا الاهتمام ، يرجع إلى
ماورد في ذلك البيان من الإيضاحات ، ويرجع إلى بعض روايات كثيراً ما نسمعها

عن آفات الصحراء وهوامها وحشراتهما ، وكانت تلك الروايات على ما فيها من مبالغة
نعلم حق العلم أنها مبالغة ، لم نستطع أن نفعل من أعماق نفوسنا آثار الوهم الذي
تركته فيها تلك الروايات التي كانت جناية أصحابها علينا أنهم آفات الرواة ، إلى جانب
آفات الطريق ! وثم ملاحظة أخرى وهي شجاعة كاتب هذه السطور وأنه يفضل
أن يموت مستشهداً في سبيل الله وحومة الوعي ، عن أن يغتاله ذو ظفر أو تغتاله
ذات ناب !!

وفي القاعية ، تلك المحطة التي قدّر لنا المبيت فيها ونحن على عشرات من الأميال
من الدوادمي ، تناولنا طعام العشاء ، ثم جلسنا على عادتنا في السمر وقطع الوقت بما
ينثره علينا أساطين الرواة من أحاديث الجد تارة ، والفكاهة تارة أخرى ، ومختلف
الروايات عن الحوادث العامة والخاصة .

وفي الصباح الباكر بعد أداء فريضة الصلاة وتناول طعام الفطور نهض المعسكر
كله نهضة رجل واحد ، كل منصرف إلى ما عليه من عمل في تهيئة الحملة والاستعداد
للرحلة . وفي الساعة الثانية من صباح الخميس ٨ صفر ، غادر الوفد القاعية قاصداً إلى
المحطة التالية ، وهي « الدوادمي » .

إلى الدوادمي

غادرنا «القاعية» قاصدين إلى «الدوادمي» ، والمسافة بين المحطتين ٩٩ كيلو متراً ، وقد يَسَّرَ الله الطريق وسهله علينا فقطعنا هذه المسافة في مدة ساعتين ، وكان الطريق كسابقه ، سهلاً ميسوراً كشأن سهول نجد جميعها .

ولاحت للركب في ضحوة النهار من بُعد شاسع ، نقطة غائمة صغيرة ، ثم أخذت تتبدد شيئاً فشيئاً حتى انجلت عن منظر نخيل ثبت لدينا بعدها أنها قرية «الدوادمي» وما زالت تدنو منا ، وندنو منها رويداً حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام بناية ضخمة هائلة ، قيل لنا إنها القصر ، أي القصر الملكي الذي يستريح فيه حضرة صاحب الجلالة الملك أثناء سفره بين مكة والرياض . ولكن هذا البناء الضخم الهائل ، يشتمل على أشياء غير القصر ، وإن كان التعبير قد شمل المسكان كله بهذا الاسم .

ذلك أن السور الضخم الهائل الذي يراه الناظر من بعيد ، فيحسب أنه سور على قصر واحد ، إنما هو يكاد يشتمل على مدينة صغيرة ! ففي واجهته الرئيسية قصر متواضع لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، يشرفه للاستراحة فيه أثناء سفره بين مكة والرياض ، وحول هذا القصر من جوانبه الأخرى مباني أخرى أعدت لنزول الضيوف من رجال الحاشية ، ولغيرهم من النزلاء الذين يمرون بهذا الطريق في مختلف الظروف وهي تشتمل على غرف فسيحة بنيت على الطراز العربي وأمامها فتحات سماوية مكشوفة تكسب المكان صحة الشمس والهواء ، وتتوسط هذا البناء الضخم جملة أحوشة سماوية ، وفي جانب منها جناح أرضي خاص أقيم فيه مركز للإسلكي ، يستقبل الإشارات ويرسلها بين مكة والرياض ، ومن ثم بين جميع أجزاء المملكة ، والعالم كله . والسيارات تدخل بحملتها إلى فناء هذا البناء ، وقد أقام سواقوها

ومهندسوها ، ورشة صناعية صغيرة متواضعة في جانب من ذلك الفناء ، تلجأ إليها كل سيارة في حاجة إلى الإصلاح مدة إقامتها في ذلك المنزل ، وفي جانب آخر مستقل من ذلك البناء أقيمت محطة آلية للبنزين أسوة بالمحطات الأخرى المتناثرة في أجزاء هذا الطريق ، تدخل إليها السيارات وتزود منها بما تحتاج إليه من وقود .

فهذا البناء على الجملة يعتبر كالواحة الخصيبة للمسافر ، بالنظر لما اشتمل عليه من توفير أسباب الراحة ، وعلى الأخص وجود ذلك المركز اللاسلكي الذي يصل ما بين المسافر وما بين أجزاء العالم الأخرى التي يريدها ، وأمام ذلك البناء من الخارج يوجد حانوت أو حانوتان لتبادل السلع بين البادية وقد يتزود منها المسافرون بما يعوزون من حاجات .

وكان أول عمل عملناه بعد وصولنا إلى الداومي ، أن توجهنا إلى مركز اللاسلكي لتتصل بالعالم عن ذلك الطريق السريع ، فرفعنا أنباء وصولنا إلى جلالة الملك المعظم ، وصاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد ، والأمير فيصل نائب جلالته ، في برقيات متضمنة أفخم التحيات وأصدق آيات الولاء بمناسبة وصولنا إلى ذلك المكان في نجد ؛ وفي الحال تلقينا من جلالته ومن صاحب السمو الملكي الأميرين الجليلين برقيات العطف والترحيب .

وبعد ذلك اتصلنا جميعنا عن طريق ذلك اللاسلكي بأهلينا في مكة ، فأبرقنا إليهم نبشروهم بوصولنا إلى الداومي ونسأل عن عن صحتهم ، وكان سرورنا بذلك لا يحد ، وغبطتنا بهذا الاتصال لانتهاء لها .

وانتهينا من شؤون اللاسلكي الذي كان الاتصال به أول غايقتنا عند وصولنا مباشرة وجعلنا نبحت عن أمتعتنا وعن نزلنا ، فعلمنا أنها نقلت إلى الطابق العلوي

من القصر ، إلى حيث أعد لنا مكان النزول ، فصعدنا إليه ، فوجدنا غرفة فسيحة الأرجاء ، اتسعت لنا جميعاً ، وقد كانت مفروشة بأحسن الأثاث البسيط ، وعلى غاية من النظافة ، وكانت الأمتعة قد احتلت جانباً كبيراً منها ، وأخذ كل منا مكانه عند متاعه مستلقياً للراحة أو للنوم ! وقضينا سحابة ذلك اليوم في القصر بعد أن تناولنا فيه طعام الغداء ، وبعد أن أغفت عيون الرفاق بمض الإغفاء .

وبعد صلاة العصر ، أخذ كل فرد نصيبه من أعمال الاستعداد للرحلة ، وفي الساعة العاشرة تحرك الموكب مستأنفاً السفر .

إلى مرات

كانت أول محطة للنزول والاستراحة بعد الدوامى، محطة تسمى خف أو الخفيفة وكانت على مسافة ٦١ كيلو متراً من الدوامى ، وهى مرحلة صغيرة بالنسبة للمراحل المتصلة الأخرى التى قطعناها فى أجزاء هذا الطريق ولكن كان من المصادفات أن وقع عطل فى إحدى السيارات جعلها عاجزة عن السير السريع ، فتعطلت سيارات الرفاق لأجل إسعافها بجاملة للسيارة المعطلة !! ومن حسن الحظ أن هذا الجزء من الطريق هو الجزء الوعر من الطريق كله بين مكة والرياض ، وأن مأمورى الحكومة فى الدوامى اكتشفوا غيره طريقاً سهلاً بين الدوامى وبين الخفيفة ، وقد سلكناه فى عودتنا من الرحلة .

وقد حدث أن إحدى السيارات الصغيرة أصيب فيها مخزن الماء بحجر شطبه فكان لايمسك الماء ، فكانت لذلك تحتاج كل مسافة قصيرة إلى مقدار من الماء لتبريد آلاتها ، ونفذ ما عندنا من الماء فى لحظات قصيرة متتابعة، ولجأنا إلى الصحراء الناضرة المشبة ، نستنجد بها على هذا الحادث ، ونسألها أن تجود علينا ببعض ما فى جوفها من المياه ، ولم نكن على مقربة من منزل من المنازل ، وليس هناك ما يشير إلى قرب وجود شيء من ذلك ، ولكن الصحراء المطرة الخصبة ، لم تضن علينا بطلبنا ، وأبت إلا أن تشاركنا فى ضرائنا كما شاركتنا فى بهجتنا فى سرائنا ، فإذا بالسائق يغادر السيارة ويتجول قليلاً بين تلك الأرض المشبة ، فيظفر فى جانب منخفض من جوانبها بماء يتدفق استطعنا أن نعرف منه ما ملأ مخزن الماء فى السيارة واستأنفنا السير ، فلقينا من الله فرجاً يتلوه فرج ، فالفرج الأصغر ، وهو الأول أن قدمت إلينا سيارة من سيارات الرفاق محملة بالماء فقد سبقت إحدى السيارات الصغيرة

إلى إسعافنا ، وكانت دقة الترتيب التي اتخذت في كيفية السير وإدارة الرحلة لا تسمح لسيارة ما بالانقطاع ، وكانت كمية الماء التي وردت إلينا ، كقفيلة بتسيير السيارة بضعة أميال أخرى ، لقينا عندها الفرج الثاني ، الذي هو الفرج الأكبر ، فقد جادت علينا الصحراء المطوف مرة أخرى وحدثت علينا بما لم يكن في الحسبان إذ انكشفت أمامنا وعلى حين فجأة عن ورشة صناعية متواضعة في قلب تلك الصحراء تابعة لشركة السيارات العربية ، فكان الله سبحانه وتعالى قد أوجد لنا ذلك كرمًا منه وفضلاً ، وتفصيل ذلك أن إحدى سيارات الشركة العربية للنقل التي تعمل في هذا الخط ، وقع لها خلل خطير اضطرت معه الشركة إلى أن ترسل مهندساً وسيارة أسعاف لإصلاح السيارة المعطلة ، وكان ذلك قبل وصولنا إلى هذا المكان ببضعة أيام ، وأخذ المهندس يباشر عمله في إصلاح السيارة المعطلة ، حتى جاءت المصادفة الحسنة بوقوع الخلل في إحدى سيارتنا على مقربة من مقر ذلك المهندس الذي تشتمل أدواته على ورشة صناعية متواضعة ! وتلك مصادفة حسنة لاشك ، ولا أقصد بالمصادفة الحسنة بالطبع ، وقوع الخلل في السيارة ، وإنما أقصد وقوع الخلل على مقربة من وجود ورشة صناعية كاملة الأدوات ، ما كان من المقدّر أن نصادفها في الساعة التي نحن أحوج مانسكون إلى ما هو دونها وأقل منها !

وسلمنا السيارة إلى المهندس وجلسنا حوالى ساعتين متكئين إلى جانب من الصحراء المقمرة الصاحية ، نتناول الشاي وتسامر حتى تم إصلاح السيارة ، فركبنا وتابعنا السير ، إلى «الخفيفية» وقضينا الليلة كما قضينا سابقاتها مضافاً إليها فزع بعض الرفاق وفي مقدمتهم كاتب هذه السطور من إشارة وردت في بيان الدليل الذي معنا عن وجود الهوام والحشرات بكثرة في هذه المحطة ! وكان الحديث طويلاً في هذا الموضوع مصحوباً بالدعابات والفكاهات !!

و«الخفيفية» هذه واد مرتفع قليلاً يقع قبيل النفود التي سيأتى الكلام عليها فيما بعد

وكانها وضعت هذه المحطة لأهمية خاصة ، ذلك بأن الوارد على النفود أو الصادر عنها ، يحتاج قبل ارتيادها أو بعده للاستعداد لقطعها أو الاستراحة من عناء اجتيازها وهذه الأهمية بمكان . وليس في هذه المحطة أى شئ من معالم الحياة غير بئر ماء غير سائغ ، يرتاده أهل البادية من البدو الرحّل ومنتجى السكّاء ومن يطلبون المرعى وقيمون حولها مدة الربيع الناضر .

قضينا الليل هناك ، وكان علينا أن نغادر هذا المكان قبل شروق الشمس حيث كان أمامنا مرحلة صعبة المراس ، عنيفة الاجتياز ، هى مرحلة النفوذ ، وبينها وبين هذا المكان سبعة كيلو مترات ، والنفوذ هى عبارة عن سلسلة من الجبال الرملية الدقيقة الناعمة كالسكر ، تسفيها الرياح بين كل عشية وضحاها ، وهذه الرمال تجشم السيارات وآلاتها الجهد الكثير من المشقة والعناء ، وقل أن تنجو سيارة باجتياز هذا المكان دون أى تسبخ أقدامها فى أعماق تلك الرمال ، والويل كل الويل ، للسيارة التى يقدر عليها ذلك ، فإن صعوبة استخراجها تفوق كل مجهود ، وتصرع كل عزيمة ، لهذا روى من الحكمة اجتياز هذه المسافة الرملية فى ذلك الوقت الباكر حين تكون الرمال هاجدة ناعمة ، قبل أن تحركها الرياح وقبل أن توقظها حرارة الشمس . وقد يكون من الغرابة بمكان أن يقال بأن الرمال ترقد فى الليل وتهجد ، والجواب الذى عرفناه من هذه التجارب ، هو أن رطوبة الليل تغمر الرمال الناعمة فتخمدّها ، فلا تستيقظ إلا بفعل الرياح المتحركة وما تبعثه فيها أيضاً حرارة الشمس من الصحو !!

وكان من حسن حظنا ونحن نحاول اجتياز تلك المنطقة مستغلين غفاتها ، على الصورة الآنفة الذكر ، أنها كانت قد أمطرت قبل ذلك بأيام قليلة ، وأن الجو مازال بارداً قارساً ، وتلك كلها أسباب تعين على سهولة اجتيازها ، وقد كان! ومنطقة النفوذ

الرملية هذه يبلغ طولها ٢٥ كيلو متراً ، والمسافة كلها من الخفيفة إلى مرات ٨٨ كيلو متراً ، كان يمكن اجتيازها في ساعة وبعض الساعة ، ولكن نظراً لصعوبة الرمال الأنفة الذكر ، فقد قطعنا المسافة في ساعتين كاملتين مرورنا أثناءها ببحار متلاطمة الأمواج من تلك الرمال الدقيقة الناعمة التي كانت كالهضباب المرتفعة أو الجبال المتناثرة المتصلة ، وقد حدثنا الكثيرون ممن اجتازوا هذه المنطقة في فصل الصيف وفي ضحوات أيامه المشمسة الحارة ، أنهم كابدوا أشد العناء في اجتيازها ، ومن الناس من ظل فيها يوماً أو بعض أيام ، يكابد عناء قطعها بين حمارة القيظ وشدة النصب . ولكننا اجتازناها والله الحمد في مرحلة سهلة هادئة لانصب فيها ولا لغوب . ووصلنا إلى « مرات » في الساعة الثالثة صباحاً ، وكانت هذه هي القرية الثانية التي نصادفها في طريق نجد والقرية الأولى « الدوادمي » .

تحقيقات تاريخية

كنت طيلة الساعتين التي أمضيتها في قطع الطريق إلى مرات ، وأنا منشغل عن الرفاق بخيال سبحت فيه ، ثم قصصت نبأه عليهم في حينه ، وتفصيل ذلك أنه قيل لي إنني سأصادف في طريق بلدة امرئ القيس الشاعر ، وهي قرية مرات هذه ، قرية حامل لواء الشعراء في الجاهلية وسمعت كثيراً من مثل هذا الكلام من أصدقاء عديدين ممن ارتادوا هذا الطريق ، فلما كنت على مقربة من هذه القرية ، تذكرت تلك الأحاديث كلها ، وسبحت منها في خيال أمير الشعراء وحامل لوائهم « امرئ القيس » وعلت النفس وأنا أشد ما أكون شوقاً بالوقوف على الإطلال الدوارس التي أنجبت ذلك الشاعر الفحل وأخذت من نفسي أتريد التفكير في هذا الموضوع ، واختلق له العائلات تأييداً لهذه الروايات التي سمعتها ، وأول علالة اختلقتها لذلك ، هي أنني بحثت في ذاكراتي شعر امرئ القيس وتذكرت من معلقته قوله - :

فتوضح « فالمقراة » لم يعرف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

وتوضح ، والمقراة ، هما أسماء أما كن يعنينا امرؤ القيس في قصيدته فقلت إن المقرات ، هي نفس مرات ، وقد حرفت على السنة الرواة من ذلك الزمن إلى اليوم ، وليس بكثير على أربعة عشر قرناً من الزمان أن تلحس « قافاً » واحدة فتحرف الكلمة من مقرات إلى مرات ، وقد لحست هذه الأربعة عشر قرناً ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات وغيرهم من كائنات وجمادات ، وزاد هذا الوهم في نفسي تأييداً الشطر الثاني من البيت ، والذي يشير إلى عصف الرياح بهذه الأماكن ، فقلت إن الشاعر لم يذكر عصف الرياح إلى جانب اسم بلدة هذه ، إلا لما قام حولها من

هضبات تلك الرمال التي اجتريتها قبل قليل ، والتي قلنا إنها تسمى « النفود » اصطلاحاً ، فهناك إذاً تناسب يؤيد هذا الوهم ويكاد يحيله في نفسى إلى حقيقة ثابتة ، ما دام الأساس صحيحاً ، وهو أن هذه بلدة امرى القيس كما تقول السنة الرواة .

وقد ظلت غارقاً في لجج عميقة من التفكير والتأملات ، طيلة المدة التي أمضيتها في الطريق بين عفيف ومرات ، وسبحت مع امرى القيس وشعره وعصره ، وقصيدته المعلقة وغير المعلقة ! ! وتصورت أننى قادم على القرية التي أنجبت حامل لواء الشعر ، والتي احتضنته وليدأ ويافعا ، ثم عوّلت على التجوّل في القرية فلا أترك فيها شبراً من الأرض علّنى أتلّس أثرأ من آثار ذلك الفحل العظيم .

وما أفقت من لجج هذه التأملات إلا على صوت رفقى في السيارة الشريف شرف رضا ، وهو يقول لى : هذا هو الكميت ، وفي البادية مثل شائع ، يقول « أرنى الكميت ، أريك مرات » والكميت هذا هو جبل أحر اللون - وهو غير حلبة الكميت بالطبع - ولعله سمى الكميت لذلك وأنه جاثم على صدر القرية يحتضنها ، وهو أول ما يباده المسافر بطلمعه المهيبة القانية ، فإذا رآه المسافر تباشر بالوصول إلى مرات وأيقن أنه بلغ غايته !

وصلنا إلى مرات فانتحى الجمع مكاناً قصياً إلى جانب بئر الماء ، وخرجت عن رفاقى لا ألوى على شيء قاصداً إلى جهة مجهولة لا أعلمها ، والتقيت بفضيلة الشيخ عبد الله الشيبى أحد زملاء الرحلة ، فقلت له : هذه بلدة « امرى القيس » فهل لك أن تتجول قليلاً فيها ، فقال لى أجل ونحن فى حاجة إلى معرفة الديار التى نسلكها فى طريقنا ، فيها ! ومشيئنا معاً متجهين ناحية البلدة ، فوجدنا غلاماً يافعا قلنا له نريد منك أن تجتاز بنا الطريق إلى القرية ، فقال أو تريدون الغدير ؟ ! وما كنا نعرف أن هناك غديراً ، ولكننا أجبناه بالإيجاب فسار بنا مسافة غير قصيرة وكانت تبدو أمامنا

قبل اجتيازها وهي بمراى منا أنها جد قصيرة ، حتى أتينا جهة من جهات القرية ، وهي مسورة بسور مرتفع البناء ولسكننا قبل أن ندخل إليها دخلنا إلى بناء آخر مرتفع من فجوة صغيرة فإذا بنا نحن أمام الغدير الذي أرشدنا إليه الغلام ، والغدير المذكور يكاد يشبه بحيرة صغيرة قام على حافاتها شجر الأثل فظله بأغصانه الوارفة الظلال ، وانحنت عليه أغصانه المتهدلة كالحسان نشرن الذوائب وأرخين الشعور وكان هذا أول غدير رأيته في بادية العرب فأعجبت بجمال منظره أيما إعجاب. وبعد لحظات قصيرة تركنا الغدير ولم نكد نبعد عنه قليلا حتى التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه، فقلت لاشك أن هذا من أهل القرية !! فبدأته السلام ، ثم قلت له يا رجل أهذه قرية امرئ القيس الشاعر المعروف ، فهل عندكم علم به ؟ ! وكان هذا السؤال كافيا لإحاجة الرجل فتدفق كالبحر الزاخر ، يدلى إلى بمعلومات واسمة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الأدبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية ، وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمى بهذا الاسم غير امرئ القيس المشهور وأن الأول تيمى والآخر كندى ، وأن امرأ القيس التيمى رجل دمى الخصال هجاء الشعراء وهجوا البلدة لأجله ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين ، وشاع الخطأ على ألسنة الناس ، ثم ذكر لي أن في البلدة بئر ماء تسمى بئر ابن الوليد ، وأنها هي البئر التي وقف عليها خالد بن الوليد في خروجه من المدينة لغزوة وادى حنيقة ، ومصالاة أهل الرودة . وذهبت إلى تلك البئر فوجدتها تقع إلى جانب بستان صغير ووجدت من يستقي عليها فشربت من مائها وسبحت في لجج الدكريات التاريخية إلى ما وراء عشرات القرون من الزمان . وظل صاحبي هذا يواصل حديثه عن كثير من الدكريات الأدبية والتاريخية ونحن في طريق عودتنا إلى حيث كان الرفاق ينتظرون ، فلما دنونا من مكان نزلهم استأذن مني وانصرف فسألته عن اسمه فقال إنه عبد الرحمن بن زيد ، وسألني بدوره ثم قلت له إن لي في العودة معه

حديثا ومجلسا وتوادعنا إلى اللقاء إن شاء الله بعد أن حملني سلامه إلى الأمير عبدالعزیز ابن إبراهيم أمير المدينة المنورة سابقا وعضو مجلس الوكلاء حالا .

عدت إلى الرفاق ، فوجدتهم في حيرة من غيابنا هذا ، فقصصت عليهم أنباء ما رأيت وما سمعت وأظهرت لهم إعجابي بالبلدة ومشاهدها ، وذكرت مشهد الغدير وقصة خالد بن الوليد ، فقام سعادة السيد صالح شطرا رئيس الوفد وقال اصحبني إلى ما رأيت وذهبتنا معا إلى الغدير وإلى بعض أطراف البلدة ثم عدنا معجبين بما رأيناه . وفي عودتنا من الرياض إلى مكة كانت لي جولة أخرى في هذه البلدة ومصاحبة طريفة مع ذلك الرجل الذي هو من أهلها سنذكرها فيما بعد .

وأقننا وسط النهار في مرات حيث تناولنا فيها طعام الغداء واسترحنا مدة من الوقت ، إلى ما بعد صلاة الظهر بساعة ، ثم قمنا للتجول قليلا والتمتع بمشاهدة ذلك الجبل الذي يحتضن القرية والذي قلنا إنه جبل الكميت حتى تهيأنا للمسير ، وبعد أن تزودنا من محطة البنزين بالوقود اللازم للطريق غادرنا المكان قاصدين إلى روضة الخفس .

وبالطبع ، قد انهار جميع التصورات الخيالية التي قامت في ذهني عن امرئ القيس وبلدته، وخیاله وشاعريته، ومكانه وآثاره ، وذهبت تلك الأوهام سدى بعد التحقيقات التي أجريتها في القرية ، وتبادلت الحديث في هذا الموضوع مع زميلي في الرحلة وفي الشاعرية الأستاذ السيد عبيد مدني، الذي أخبرني بأنه قام في نفسه من الوهم والتصوّر مثل ما كان قد قام في نفسي حتى تبددت تلك الشكوك بما حل محلها من الحقائق .

الى روضة الخفس

تقع قرية مرات هذه على مفترق الطرق ، ففي جانبها طريق يؤدي إلى سدير والمجعة وشقرا ، وطريق آخر يؤدي إلى العويند ، ثم العينة ، ثم الجبيلة ، ثم الرياض ، وطريق آخر يؤدي إلى روضة الخفس حيث كان الخيام الملكي ضاربا أطنابه هناك ، وإلى غيرها من الرياض المتناثرة حول اليمامة ، والمسافة من مرات إلى الرياض ١٦٠ كيلومتراً ، كما أن المسافة من مرات إلى الخيام الملكي تماثل هذا المقدار أيضا .

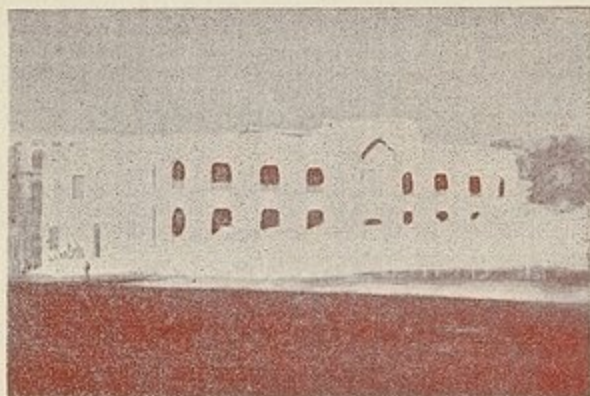
قلت أننا غادرنا « مرات » في الساعة الثامنة والربع ، وعدلنا بالطبع عن طريق الرياض إلى طريق الروضة ، أي إلى الخيام الملكي ، وقررنا أن يكون المسير بتسهيل الله وتقديره ، فلا نختار منزلا ولا مبيتا إلا حيثما يتفق لنا أن نكون ! وتابعنا المسير مدة ساعتين إلى أن وصلنا إلى مكان يسمى شعيب السيل ، وهو ممر للسيل تخلفت فيه رمال ناعمة دقيقة ، جعلت اجتيازه من الصعوبة بمكان وهناك وقفنا ننتظر استكمال وصول السيارات جميعها لنشرف على اجتيازها في ذلك المكان ، ونطمئن على سلامتها . فلما اجتمعت بعد عشرات من الدقائق أخذنا ترتب اجتيازها واحدة فواحدة ، وهي تخترق تلك البحيرة الصغيرة من الرمل الدقيق ، حتى تم اجتيازها كلها في مدة غير قصيرة من الوقت ، وغير طويلة أيضا !!

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فاستأنفنا المسير ساعة بعد المغرب حيث وصلنا إلى مكان مجهول قررنا أن يكون المبيت فيه ، لأن الرأي اتفق على أن لا ندخل إلى الروضة ليلا ، وإن دخولنا إليها يجب أن يكون صباحا مع ضوء النهار .

وتوقفنا عن المسير في سطح واد مرتفع قليل تقوم حوله بعض الأعشاب وفي خلال

مدة قصيرة من الزمن نصبت الخيام وأوقدت النار وأضيئت الأنوار وجلسنا كمعادتنا للسمر ، وما كاد يستقر بنا المقام حتى جاءنا زائر وثان وثالث من عرب البادية . وكان بالطبع أول سؤال وجهناه إلى أولئك الزائرين ، عن المخيام الملصكى وروضة الخفس والمسافة من هذا المكان إليها فعلمنا أن المسافة تقدر برحلة بالبعير أو ما يساوى ساعة بالسيارة ، فحمدنا الله على ذلك . وسألنا عن اسم هذا المكان الذى اخترناه للعبيت من غير قصد ولا معرفة ، فقيل لنا أن اسمه « روضة الذبحة » وفيه « مدج العود » والكلمة الأخيرة معناها ملتقى سيل العود ، وهناك من آثار ملتقى هذا السيل ما يدل على موافقة التسمية للمسمى .

كانت هذه الليلة التى قضيناها فى هذا المكان من الليالى الغدة فى تاريخ الرحلة ، فإذا قلت إن النوم لم يطرق أحفاننا إلا لماماً ، لما كنت مغالياً فى التعبير ، قضينا الشطر الأكبر من الليل فى سهر وسمر ونحن نشعر بلذة لا تعدلها لذة ، ونشعر بسرور لا يعادله سرور ، ذلك بأن هذه الليلة ، هى ختام ليالى السفر فى الرحلة ، ومطلع صبحها مقرون بأعظم ما كنا نتمناه من الله ورجوه من فضله ، وهو التشرف باجتلاء طلعة الملك المحبوب فى خيامه الملصكى العامر . وهكذا سبحنا جميعاً ، أو سبىح كل فرد منا فى خيال تأملاته الحلوة العذبة اللذيذة ، لذلك ، ما كادت أحفاننا تهوّم قليلاً فى آخر الليل حتى نفضت عن أهدابها عوامل السكرى وهبت مع تباشير الصباح إلى استقبال نسيمه العليل بعد أداء فريضة الصلاة مع الفجر - فى حينها - ومن ثم انتشر الرفاق فى ذلك السهل المصبىح ، والشمس لما تشرق بعد ، يتنشقون أرج ذلك النسيم وما فيه من عبير ذكى ، هو مزيج من عبق الجو المطر ، وأرج الروضة المطار ، وقد بعث الله لنا من جاد علينا بوعاء كبير مملوء بلبن النياق ، من أحد أعراب البادية ، فتقبلنا هديته وتقاسمها بعض الرفاق وكان بعضهم لم يعرف هذا اللبن ولم يشربه إلا منذ هذا اليوم !



قصر حضرة صاحب السمو
الملكى الأمير سعود ولى
العهد ، وهو يقع فى أعلا
مكة أمام قصر جلالة الملك
وقد بنى حديثا على أفخم طراز



قصر حضرة صاحب السمو
الملكى الأمير فيصل نائب
جلالة الملك وهو يقع فى
وادي زرود بأعلا مكة بجوار
قصرى جلالة الملك وولى
العهد المعظمين.



قصر حضرة صاحب
السمو الملكى الأمير
منصور بن عبد العزيز
بمكة المكرمة وهو
من أرقى أحياء مكة
وأبهجها

بعض ساكن مكة المكرمة
تحت إشرافه والجناب والجناب

وتناولنا بعد ذلك طعام الفطور وأخذنا نستعد لاستئناف الرحلة وليس منا إلا من هو مأخوذ بروعة اللقاء ، مغمور بهجة الغبطة والسرور حتى لسكان لحظات تلك اللذة الطريفة التي كنا نشعر بها ساعتئذ ، من السويعات السعيدة التي قلما يصادفها الإنسان في حياته ، اللهم إلا في مناسبات كهذه المناسبات إذا أتيجت ، وهي قليلة المواتاة !

وبعد لحظات قصيرة حملت السيارات بما كان عليها تحمله من الأمتعة ولفت الخيام في مدارجها ، وركبنا سيارتنا ويمنا شطرا الخيام الملكي أو ذلك روضة « الخفس » وكان في صباح يوم السبت ١١ صفر سنة ١٣٦٠ ، وجدت السيارات بنا المسير مدة ساعة من الزمن ونحن كأننا لهفة وتطلع ، نضرب بأبصارنا في طول الفضاء وعرض الأفق ، كأننا نبحت عن شيء نتوقع أن نراه بين الفينة والفينة ، وما هناك من شيء غير ارتقاب رؤية الخيام الملكي العامر ، الذي يتوج عرينه حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله .

الفصل الثالث

في عرين الأسد

أو

المخيام الملكي

قلت إننا قطعنا ساعة من الزمن ، في الرحلة من « مدج العود » أو « روضة الذبجة » التي بقنا فيها ، ولكنها ساعة كادت تكون حيناً من الدهر لما أحسنا به من طولها الذي أربى على ليل امرئ القيس^(١) أو ليالي النابغة الذبياني ، ومع أن ساعات السرور والغبطة لا تكون إلا قصاراً خاطفة تنقضي وتمضي في مثل لمح البصر ، إلا أن ساعة سرورنا هذه كانت مقرونة بالتطلع والارتقاب فلهذا كانت طويلة ممضة ، نغد معها الصبر كل النفاد ، ونحن على حق في ذلك الشعور لأسباب

(١) كان امرؤ القيس خير شكا طول الليل في معلقته لقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله	على بأنواع الهموم ليلتي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي	بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه	بكل مغار القتل شدت يذبل

والنابغة الذبياني حين شرده النعمان بن المنذر ، شكا ليليه وطولها في أبيات منها :

فبت كائن ساورتي ضئيلة من الرقتش في أئناها السم ناقع

كثيرة يكفي منها أننا أمضينا ستة أيام بلياليها في سفر متواصل وتنقل مستمر ، وهذه غايقتنا من السفر قد شارفت البلوغ ، ولكن دون البلوغ إليها ستون دقيقة كان يصح أن تمر بنا أو أن نمر بها مر الكرام !! لولا أنه كان فيها بيت القصيد ، ومنتهى الأمل ، وأقصى الغاية ، والأمل كل الأمل ، والغاية كل الغاية ، هي الخطوة باجتلاء طلعة المليك العظيم .

وتغلب الصبر على الضجر ، وانقضت تلك الساعة الطويلة ، ولاح لنا جبل في صدر الوادي كنا ننجر إليه ، وما زلنا نغذ إليه السير ونحن مساقون بخطوط الطريق ، دون أن نعلم أن وراءه عرين الأسد حيث ربض ليث الجزيرة المغوار ، واستدرنا استدارة حول الجبل بعد أن شارفناه ، ثم انفتح الطريق مرة أخرى عن واد فسيح الجنبات زينت أرضه المترامية بالأعشاب الناضرة الزاهية المتأرجة ، والحصباء الملونة اللامعة كأنه ذلك الوادي الذي قيل فيه :

وواد ترع الأبصار فيه	سقاء مضاعف الغيث الميم
زلنا دوحه فحنا علينا	حفو المرضعات على الفطيم
يصد الشمس أتى واجهتنا	فيحجبها ، ويأذن للنسيم ...
تروع حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب المقد النظيم

ومن وسط ذلك الوادي البهيج ، خفقت القلوب ، واشترأت الأبصار ، فقد لاح للعيون مرآى خيام بيضاء تناثرت كأجنحة الحمام البيض ، في نهاية ذلك الوادي الذي كنا نسير إليه . فقلنا إنها الخيام الملوكي من غير شك ! وهنا توقف الركب عن السير ، ووقفنا لحظة نتطلع إلى رؤية الخيام ، ونرمقه بأبصارنا ، ونحن مأخوذون بعاطفة الفرح والبهجة والاعتباط ، ثم عمدنا إلى تغيير ملابسنا التي كنا ترتديها في الطريق ، ونصالح هندامنا بعد أن أزلنا عن وجوهنا غبار السفر برشاشات من الماء

المعطر الزكي ، كان يحمله معه رجل الأناقة والظرف الشيخ عبد الرؤوف الصبان الذي يمثل الشباب في الشيخوخة!! بما كان يحمله معه من كاليات التطرية في السفر ، وكان هذا الماء المعطر الذكي فيما يحمل من تلك الأدوات الطريفة ، وهو في زجاجة رشاشة لا تكلفك أكثر من تحريك لولبها حتى تغمرك بذلك الماء البارد المعطر الذي يزيل الأتربة في مثل لمح البصر ، ويضع محلها ذلك العطر الذكي المنعش .

وبعد دقائق قليلة تعد على الأصابع وصلنا إلى الخيام ، فسالنا أول شخص قابلناه عن خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فمضى بنا إليها ، وكانت الساعة الثالثة صباحاً إلا قليلاً ، ووصلنا إلى قرب الخيمة حيث علمنا أن جلالتهم لم يشرف بعد ، وأن تشريفه إليها منتظر ومرتب في ظرف دقائق قليلة معدودة ، حيث كان الجنود قد اصطفوا بظاهر الخيمة في انتظار تشريف جلالتهم .

* * *

لا شك أن رؤية الخيام الملوكي ، وما فيه من روعة وضخامة في العدد ، وما في نفوسنا من روعة اللقاء ، كان له أكبر الأثر في نفوسنا ، وقد كان لمنظر هذه الخيام التي لا يحصيها العد ، والتي علمنا فيما بعد أنها تبلغ ١٧٥٠ خيمة ، والتي هي كأجنحة الحمام البيض المتناثرة ، أو كأشرعة السفن المتراصة التي تمخر عباب البحر ، كان لذلك كله ، بهجة في المنظر لا يسمو إليها الوصف ولا يحيط بها البيان ، وقد تحرك شيخ الشعر في نفسه ولا أقول شيطانه!! فإذا بي أهمس وأتغنى بصوت خافت قائلاً :

ولما بدا الخيام للركب أشرقت خيام تفوق الأنجم الزهر في العدة

تلوح مع الإصباح كالطير جمًّا

ولم أدر أنني بمرقبة من أحد ، أو بمسمع من كائن من كان ، وإذا بصوت يناديني من قريب ، وإذا به صديق الأستاذ عبد الرؤوف الصبان ، يقول : لقد سمعتك

أيها الشاعر تهمس وتغننى ، وسمعتك تقول « ولما بدا الخيام للركب » فأكل ماتقول
وعبر عن شعورك وشعورنا بما تخليه عليك الشاعرية اليوم ، وإننا منذ الآن سندسجل
كل ماتقول ، وسنحصى عليك أنفاسك وكلك ! فقلت له حباً وكرامة ، وأنشدته
البيتين أو البيت ونصف البيت من الشعر الذى جاش فى نفسى ! ومضى كل لطيته .

لم يطل وقوفنا أمام الخيمة الملكية العامرة ، حتى أهل علينا جلالته مقبلاً من
مخيمه الخاص فى سيارته الملكية ، وبعد دقيقة شرف جلالته ، وترجل من السيارة ،
وكان قد رآنا فأقبل علينا ، وهرعنا إلى جلالته مسلمين مقبلين يده الكريمة
مستبقين بموامل الشوق والولاء والإخلاص إلى تحية جلالته والسلام عليه ، وقد
تفضل فهش فى وجوهنا بما فى أخلاقه من مكارم ، ثم شرف إلى خيمته ودعانا
إلى الدخول فى معيته الكريمة ، وأخذ مكانه من صدر المجلس ، وكانت الخيمة تتألف
من صالون نفخ ، فرشت أرضه بالبسط النفيسة ، كما صفت إلى جوانبه المقاعد الوثيرة ،
ولم يتميز كرسي جلالته عن بقية الكراسى الأخرى بشئ ما ؛ بل هى كلها طراز
واحد وإن اختلفت فى الشكل والصناعة ، وقد شرف السراى أيضاً حضرتا صاحبي
السمو الملكى الأمير سعود ولى العهد ، والأمير فيصل نائب جلالته ، كما حضر
رجال البلاط الملكى وكبار رجال الحاشية ، وقد تجلت مكارم أخلاقه التى نعرفها كل
المعرفة ، فى تفضله بسؤالنا عن أحوالنا ، وعن صحتنا وراحتنا وما عسانا أن نكون
صادقناه من مشقة السفر فى الطريق ، فأعربنا لجلالته عن الشكر العميق ، وخالص
الولاء والدعاء على تفضله بهذا العطف السامى ، وشكرنا الله على نعمة اللقاء بجلالته
فى هذه المناسبة السعيدة ، ونقلنا إلى جلالته صورة مصغرة عن شعور البلاد كلها نحو
هذه الرحلة وشمولها بالعطف الملكى السامى ، وشعور الجميع نحو جلالته بالمحبة وخالص
الولاء والتقدير ، ثم استأذنا من جلالته بالسماح فى إلقاء كلمات مناسبة نترجم عن

هذا الشعور جهد المستطاع فأذن حفظه الله ، وكان الترتيب قد تم بالاتفاق بين أعضاء الرحلة على أن يلقى فضيلة الشيخ عبيد الله الشيبى خطبة أعدت لهذا الغرض ، وأن يلقى كل من شاعرى الرحلة السيد عبيد مدنى شاعر المدينة المنورة ، وكاتب هذه السطور قصيدته التى أنشأها لهذا الغرض .

فلما تفضل جلالته بالإذن ، نهض فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى وألقى كلمة جامعة ثم قفى عليه السيد عبيد مدنى فألقى قصيدته ، ثم قفى عليه كاتب هذه السطور وألقى قصيدته أيضاً . وقد علق جلالته على هذه الخطب والقصائد بكلمات رقيقة بليغة فيها الشكر وفيها منتهى التواضع الإسلامى والثقة بشعبه وأمته ، وقال إن هذا الشعور هو عندى حقيقة ثابتة معروفة لدى ولدى الجميع ، ثم أردف جلالته بكلمات كلها عطف من ملك رحيم بار على شعب مخلص يتفانى فى الولاء لجلالته .

وعاد جلالته فتفضل بإعلان عطفه علينا جميعاً ، وأذن لنا فى الانصراف إلى المخيم الذى أعد لنزولنا ، مشفقاً علينا من مشقة الرحلة ، وإننا لم نأخذ قسطنا من الراحة .

وتفضل جلالته فبالغ فى الحفاوة بنا وإكرامنا ، وقال إنكم الآن عندى فى دياركم ، وقد أمرت بإعداد كل معدات الراحة لكم ، ومعدرة إذا بدر تقصير فنحن فى صميم الصحراء ، وكانت هذه العبارة من جلالته تحمل أسى معانى التواضع بالنسبة لما كان متخذاً من ترتيبات الإقامة لنا وتسهيلها وتيسيرها وإحاطتها بأكبر وسائل الراحة والرفاهية ، ثم تفضل جلالته ونادى « يا عباس » وهو الشيخ عباس قطان أمين العاصمة ، وقال له ، ماذا تشتغل فى مكة ؟ فقال له أطال الله عمر جلالتهكم لأننى رئيس بلدية مكة ، فقال جلالته : أنت رئيس بلدية هذا الوادى مدة وجودكم فيه ،

فأنت المستول عن راحة صحبك وعمما يلزمهم من كل شيء ، وأنت وكيل عليهم ،
فتفقّد راحتهم وبالغ في إكرامهم .

وبعد ذلك نهضنا مستأذنين من جلالته وسألنا . ثم غادرنا السرايق الملكي
العامر ، ونحن عاجزون عن النطق بالشكر ، على ما لاقيناه من لدن جلالته من ذلك
العطف السامى ، ومن تلك الأخلاق الغدة التي لا تعرف في أبناء هذا الزمان ، في أى
صقع أو مكان !

وذهبنا إلى المكان الذى أعد لنزولنا ، فإذا هو مضارب من الخيام الفخمة الوثيرة
نصبت على مقربة من الغدير الذى يستقى منه الخيام ، ووجدنا هناك الشيخ عبد الرحمن
الطبيشى رئيس الخاصة الملكية موفداً من قبل جلالته للمبالغة فى العناية بنا وترتيب
شؤوننا كلها ، وقد بالغ سعادته فى إكرامنا والترحيب بنا وإظهار الحفاوة التى تليق
بمكارم أخلاق الملك العظيم ، وجلس معنا ساعة من الزمن يؤنسنا بحديثه العذب ،
ويسألنا عن كل مايؤمن راحتنا ، ثم انصرف مشيماً منا بالحفاوة والإكرام .

جولة حول الأشبال

وكان ههنا بعد هذه المقابلة الملكية الكريمة التي كانت منى النفس وغايتها ، أن نتشرف بالسلام على حضرات أصحاب السمو الملكي الأمراء جميعهم ، وفي مقدمتهم حضرتا صاحبي السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد المعظم ، والأمير فيصل نائب جلالتهم المحبوب ، وقد سألنا أحد رجال حاشية جلالتهم في ذلك فأشار إلى مخيامهم وأمر أحد الأنباغ أن يكون دليلنا إليهم ، وبعد قليل من الدقائق وصلنا إلى مخيام سمو الأمير سعود ولي العهد .

وقد تفضل سموه بإكرام وفادتنا بما طبع في نفسه من مكارم الأخلاق ، وشمل الجميع بعنايته الخاصة ، وأعرب عن اغتباطه بوصولهم إلى هذه الديار ، وقد قضينا في حضرته مدة غير قصيرة من الوقت ، كانت كفييلة بإشاعة السرور في نفوسنا ، وإطلاق ألسنتنا بالثناء على مكارم أخلاقه وما حباه الله من كريم الخصال التي هي سجيته من سجايا والده العظيم .

والأمير سعود ، شخصية محبوبة جذابة ، كسيت أعظم حلة من المهابة ، فهو صورة من والده العظيم في إشراق الطلعة وما منحهما الله من بسطة في الجسم ورجاحة في العقل ، وهو لهذا مهيب الجانب كما قلنا لما فيه من الشخصية العظيمة الرائعة ، ولا تفارقه هذه المهابة مطلقاً حتى في أحاديثه العامة والخاصة ، وحتى في ضحكته وسروره ومزاحه الموقر ودعاباته الرزينة ، ذلك بأن بعض الشخصيات الكبيرة قد تكون المهابة فيها موقوتة بحالة من الحالات النفسية أو مقرونة بسمة من سمات الصناعة والتعمل ، فإذا زالت تلك الحالة المعينة ، زال عنها ثوب المهابة والوقار ،

ولكن جلالة الملك عبد العزيز صاحب السمو الملكي ولي عهده ونائبه المحبوبين من الطراز الأول والذي قلنا إن المهابة والوقار فيهم ، سجية من السجاياء التي خلقها الله في طبيعة نفوسهم ، وطبيعة النفس شيء عزيز لا يتغير ولا يتبدل .

وقصدنا بعد ذلك إلى مخيم حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ، وبعد دقائق قليلة ، وصلنا إلى سرادق نخم متواضع قريب الشبه من سرادق سمو ولي العهد المعظم ، فعلمنا أننا وصلنا إلى غایتنا ، من رؤية الأمير فيصل المعظم ، الذي هو نائب جلالة الملك ، والذي هو الحاكم المباشر على البلاد التي نعیش فيها ، والذي نعرف من شخصيته وطباعه ، وأخلاقه وسجاياءه ، ما جعله حبيباً إلى كل القلوب ، لا بالنسبة لأشخاصنا وأشخاص الخاصة من الذين يعرفون سموه معرفة شخصية متصلة عن كثب ، بل بالنسبة لجمهور العامة الذين لا يعرفون عن سموه إلا ناحيته العامة ، ولم تجمعهم به أية صلة من الصلات غير ما خبروه بصفة إجمالية عن مكارم أخلاقه وسمو سجاياء النبيلة .

تشرفنا بالدخول إلى السرادق ، وتفضل باستقبالنا بما نعرفه فيه ونعمده من البشاشة والإيناس ، وشمطنا بعطفه الغالي ، حتى انطلقت السنة الجميع بالدعاء لسموه والثناء على ما منحه الله من تلك الأخلاق العالية التي غدت مضرب الأمثال بين البادية والحاضرة ، وبين العامة والخاصة .

وقضينا مدة أخرى من الزمن ، في حضرة سموه ، لقضاء حقوق الوجد والوجدان ، وتشرفنا باجتلاء طلعة أميرنا المحبوب الذي أسعدنا الله بوجوده على رأس هذه الرحلة ، فلم يكن سموه يفارقنا في مكة ، إلا إلى لقاء عاجل في نجد ، ولم يكن سموه يفارقنا إلا ريثما يكتب الله لنا شرف اللقاء به ، وتلك أمنية كانت في نفوسنا

جميعاً ، حققها الله لنا على أحسن حال ، فهي اذن أمنية كانت غالية بعيدة المنال . لولا أن أذن الله بتحقيقها ، وما كل ما يتمنى المرء يدركه !!

ونهبضنا بعد ذلك للانصراف ، ونحن لم نقض من حق الوجد والشوق ما يجب ، ثم غادرنا سرادقه العامر ، وفي النفس ما فيها من ذلك الحق وما يقابله من واجب ، وحمدنا الله على نعمة هذا اللقاء وقلنا ، أو قال كل في نفسه ، إلى اللقاء القريب إن شاء الله تعالى .

وأردنا أن نطوف على خيام الأمراء أنجال جلالة الملك المعظم ، فعلمنا أنه لم تبق فسحة في الوقت وأنهم نهضوا من خيامهم إلى الغداء ، فأجلنا ذلك إلى اليوم التالي ورجعنا إلى مخيامنا كذلك لتناول طعام الغداء والاستراحة .

الأدب السعودي

لا أجد مناسبة خيراً من هذه المناسبة ، لتسجيل موضوع طالما حرصت على الكتابة فيه ، فقد أتيت لي أن أشهد بعيني رأسي لونا بهيجاً رائئاً من الأدب الإسلامي وددت كثيراً أن أسجل صورته لتكون قدوة للناس أولاً ، ولتكون مظهراً رائئاً من مظاهر الأدب الإسلامي المفقود ، في هذا الزمان الذي طغت فيه المظاهر المادية على أذواق الناس وأخلاقهم في كثير من الأمكنة والأصقاع ، وفي كثير من البيئات والجماعات .

فالأدب الإسلامي ، هو الأدب الذي أدب الله به نبيه ، وشرعه في كتابه الحكيم ليتحلى به المسلمون ، وليكون ميزة لهم على سائر البشر ، وحلية رائعة في أجيادهم تبهر أنظار العالم ، وترفع من أقدارهم في أبصار غيرهم ، بل هو في الجملة المثل العالي لصفات المسلم الكامل وأخلاقه ومعاملاته مع نفسه ، ومع سائر الناس .

والأدب الإسلامي هذا ، هو الحلقة المفقودة بين الناس ، إذ قل أن تجد بينهم من هو مطبوع عليه ، أو مقيد به ، أو سائر على منواله ، سواء كان بوازع من دين ، أو بوازع من فطرة ، أو بوازع من تطبع ! حتى إن بعض الأمم التي أمعت في المدنية والتقدم العلمي والصناعي ، زعمت لنفسها أنها بلغت الغاية القصوى من الدساتير الأخلاقية بينما هي بلغت في هذا المضمار شوطاً عكسياً رفعها إلى الخضم !! لذلك لم يكن غريباً على رجل له صلة بشؤون الاجتماع والمجتمعات ، أن يلاحظ هذه الظاهرة في أخلاق الأمم ، ولم يكن غريباً عليه أيضاً أن يسجل في أعماق نفسه ظاهرة يراها غريبة بين الناس في هذا الزمان ، وهي ظاهرة هذا «الأدب السعودي» . ثم يعمد إلى تسجيل هذه الصورة فيما يبرزها من حيز نفسه إلى حيز التسطير والتسجيل !

وإذا قلت « الأدب السعودي » فإننى أقصد الأدب الإسلامى الذى ذكرت بعض صفاته فيما تقدم ، وإنما عمدت إلى هذا الوصف للتحديد والتمييز ، ولأذكر ما أنا بصدده من التسطير والتسجيل . فقد انفردت الأسرة السعودية بلون من الأدب الإسلامى تميزت به عن سائر الناس حتى غدا مضرب المثل ، وأصبح موضع إعجاب كل من شاهده من قرب أو بعد ، وقد تحلّت هذه الأسرة بهذا الأدب الرائع بحيث أصبح علماً على كل فرد من أفرادها ، والقذوة الحسنة فى ذلك ، والمثل العالى إنما هو حضرة صاحب الجلالة الملك أولاً ، ثم نجلاه الوقوران الأمير سعودولى عهده ، والأمير فيصل نائبه ، ثم جميع أنجاله الأمراء ، وبقية أعضاء هذه الدوحة المزهرة الياقوتية . وإنك ليستولى عليك الدهش والإعجاب إذا أتيت لك أن تتصل بهم عن قرب ، وأن ترى معاملاتهم بين بعضهم ، ومعاملاتهم مع الناس ، وكيف يوقر صغيرهم كبيرهم ، وكيف يحنو كبيرهم على صغيرهم ، وكيف يساوون أنفسهم برعاياهم ، وكيف يجدهون أنف الكبر والكبرياء ، بما يبدوونه من التواضع الجهم الذى يزيد من مهابةهم ولا يفتقص من علوهم الرفيع ، ويكسبهم أعظم آيات المحبة ، وأخلص أصناف الولاء والتقدير .

أجل . لقد شهدت فى هذا الباب من الفصول الرائعة ، والمرئيات الباهرة طيلة الحقبة التى تشرفت فيها بالاتصال بأعضاء هذه الأسرة الكريمة ما كان يحملنى على إبراز ما شهدته ويدفعنى برغبة خالصة إلى إشراك الناس معى فى التمتع بلذة ماعلمت ومشاهدة ما رأيت ، وما أنا والله فى ذلك بمسرف أو مبالغ ، فى زمن تعجرت فيه الصعاليك ، واستنسرت فيه البغاث ! وتصعرت فيه خدود صدق فى وصفها القائل

وكم صَيّد بدا لك من ذليل كما مالت من المصلوب عنق

ومالا يتسع المجال لوصفه من أمثال هذه الصفات .

فهذا الملك الذى توجه الله بتاج الملك ، وقوة الإيمان ، وأصاله الرأى ، وبوأه بسطة فى الجسم ، ومنحه راحة فى العقل ، وتوفيقاً فى أقوم أساليب الحكم ، وشرفه بولاية أقدس بقاع الدنيا قاطبة ، هذا الملك الذى يتقلب فى أعطاف هذه النعمة الإلهية الجزيلة ، مضافة إلى نعمة محبة الناس له بولاء وإخلاص لا فى مملكته ومن رعاياه فحسب ، ولكن فى سائر الأمم العربية والإسلامية ومن مختلف الأجناس والشعوب لم تأخذه من ذلك مثقال ذرة من غرور ، ولم يغير خلقه شئ من ترف تلك النعمة ، وإنما يقابل كل خير بشكر الله وحمده ، ويقابل كل سوء بالاستعانة بالله^(١) ويمضى فى طريقه عابداً مصلحاً مبتهلاً إلى الله سبحانه بالعشى والآصال ، وبذلك كان جلالته أرفع مثل فى أمته لما يجب أن يكون عليه الإنسان من مكارم الأخلاق ، وإذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بملك كبير تلك بعض صفاته ، فما بالك بمن هم دونه من سائر الناس .

فجلالته هو القدوة الحسنة فى أمته لمكارم الأخلاق ، وهو المثل العالى والنبراس المضى فى التحلى بالآداب الإسلامية الرفيعة ، وحرى بأن ينسخ على منواله ، ويتخذة قدوة حسنة صالحة للعمل بها والاقتداء بهديها ، ذوو عشرته الأذنون ، ومن هم أقرب الناس إليه من كرام أسرته ، وليس هناك أجدر بقدوة التابع للمتبوع من اقتداء الابن بأبيه ، ولذلك كان أنجال جلالته الأمراء هم أول المقتدين به وهم خير المترسمين لخطاه والعاملين على نهجه ، وقد شهد لهذه الأسرة بالأدب الرفيع ، كل من أتبع له شرف الاتصال بها من كبار الشخصيات من مختلف جنسيات مسلمى العالم ، فكم من كبار المسلمين الذين وفدوا إلى البلاد المقدسة فى موسم الحج أو فى غيره

(١) جلالة الملك عبدالعزيز ، يستقبل كل خبر سار ، وكل حادث سعيد ، بحمد الله تعالى وشكره والصلاة والسلام على نبيه ، ويستقبل كل نأ سى أو حادث مزعج بالاستعانة بالله ، وذلك بقوله « الله المستعان » وقد سمعت هذا وشهدته مرارا من جلالته ، وهى ملاحظة جديرة بالتسجيل .

سمعت منهم عبارات الثناء والإطراء ، يندفعون في تنميقها من غير تحفظ ولا تقييد
ويطربون بتناقل شواهد آياتها ومضارب الأمثلة منها ، بحجاسة متدفقة كالسيل ،
وبعاطفة متأججة كالآتون ، وبشعور مندفع كالآتي المزد ، وكم من زعماء المسلمين
وكم من كبار رجال أوربا بهرتهم شخصية هذا الملك الفذ ، مثلما بهرتهم سيرته الرائعة
وبطولته الشائخة ، وآدابه العالية ، فانطلقوا يروون فيها الروايات ويحيطونها بهالات
رائعة من آيات التقدير والإعجاب ويزفونها في ثوب فضفاض من الزخرفة وجمال
النقش ، وإنهم باعترافهم لجدة عاجزين عن وصف الحقيقة وتسجيلها على ما يشتهون ،
ولا أبالغ إذا قلت إنه لم يكتب عن أية شخصية عظيمة سواء في الملوك والفاطمين
والزعماء وكبار الرجال ، مثلما كتب عن شخصية هذا الملك وآدابه وسيرته ومكارم
أخلاقه ، لا في القديم ولا في الحديث !

وإذا كان جلالتة هو أصل هذه الدوحة العصامية اليانعة الباسقة فخرى بأبنائه
الأدنين الأقربين أن يكونوا صورة من والدهم العظيم ، وهذا ما قد كان وذلك
ما أراد الله تعالى أن يكون . ونحن إذا ذكرنا أبناء جلالتة فالفهم سريعاً أننا نقصد
نبراس أولئك الأبناء ومصباحهم اللامع والوهاج ، وهما شخصية كل من حضرتي
أصحاب السمو الملكي الأمير سعود ولي عهده ، والأمير فيصل نائبه . وكلاهما كان له
اتصال مباشر بكثير من كبار رجال العالم ، وكلاهما انتزع الإعجاب انتزاعاً من برائن
أولئك الرجال الذين يزنون الأمور بقدرها وقلما يخطئون ! فالأمير سعود زار القطر
المصري عام ١٩٢٤ ميلادية للمرة الأولى وقابله هناك سعد زغلول باشا وهو من أعظم
الشخصيات في مصر فلم يخف إعجابه بسموه ونشر ذلك الإعجاب في كثير من
المناسبات وإعلانه على رؤوس الأشهاد . ثم زار سموه بعد ذلك أقطار أوربا والهند فكان
موضع إعجاب كل من شاهده أو اتصل به ، وقد أفاض في بيان صفاته ومحامده

وإعلان الإعجاب لسموه في كافة نواحيه الخلقية والخلقية كل من اتصل به في العالمين العربي والأوربي .

أما الأمير فيصل فقد زار أوربا يافعاً وهو في سن مبكرة من الشباب ثم زارها مرات أخرى ، وكان موضع إعجاب كل من رآه من كبار الشخصيات في كل مملكة زارها ، وفي كل صقع مرّ به ، ثم زار سموه القطر المصري في طريقه إلى لندن ليقوم بتمثيل جلالة والده الملك المعظم في مؤتمر فلسطين المنعقد في لندن في أوائل عام ١٣٥٨ هجرية - ١٩٣٩ ميلادية ، وقد أعجب بسموه في جميع البلاد التي زارها كبار رجالها من زعماء وسياسيين وعلماء وأدباء وشعراء ، وكان موضع تقديرهم وإعجابهم ، وكان سموه قطب ذلك الرحي ، وملتقى تلك الجماع ، وموضع حديث أولئك الأقوام وتقديرهم على مختلف جنسياتهم ومراتبهم الاجتماعية ، وأقدارهم العامة . والحديث في هذا الصدد يساق إلى سعادة الشيخ إبراهيم السليمان رئيس ديوان سموه والذي كان في معيته في تلك الرحلة وما كان يفيض به علينا بعد عودته من روايات التقدير والإعجاب التي صادفها سموه في كل خطوة من خطوات رحلته ، يضاف إلى ذلك ما لهجت به الصحف في جميع تلك الأصقاع من القصص والروايات ، والأحاديث والمقالات عن أخلاقه وآدابه وحسن معاشرته ولطفه وإناسه وتقدير مواهبه السامية وسجاياه العالية ومزاياه الرفيعة .

ولقد زار سموه بلاد أوربا بعد ذلك في مناسبات عديدة أهمها تمثيله حكومة في هيئة الأمم المتحدة وما برز به من الشخصية الفذة في تلك الجماع العالمية الحفيلة حتى غدا بحق ملتقى الإبصار ومحل التقدير والأعجاب .

والسكلام عن آداب هذه الأسرة وأعضائها يطول ، ولو أردنا تقصيه بالأمثلة والشواهد لاحتجنا إلى كتاب خاص لا فصل من كتاب ، وإنما أردنا بهذه المناسبة

المتاحة أن نذكر ما يمكن ذكره من آداب الأسرة السعودية الكريمة ، وأن نميز تلك الآداب المنفردة في هذا الزمان فطبعمها بالطابع العربي السعودي الخاص فقلنا عنها إنها « الأدب السعودي » وذلك لقلّة ما تشاهد من هذه الصفات الفريدة الوحيدة في هذا الجيل !!

وهناك خلاصة أخرى نريد أن نشيد بها ونشير إليها ، وهي المثل العالي الذي يجب أن يستخلص من هذا ، وهو اتخاذ القدوة الحسنة والمثل المقتدى به من تلك الأخلاق لتكون نبراساً يهتدى به الضالون المضلون ، الذين يسرفون في التآله وفي حب الأثرة وفي الكبرياء والغطرسة إلى درجة تحمل الناس على احتقارهم والازدراء بهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون !

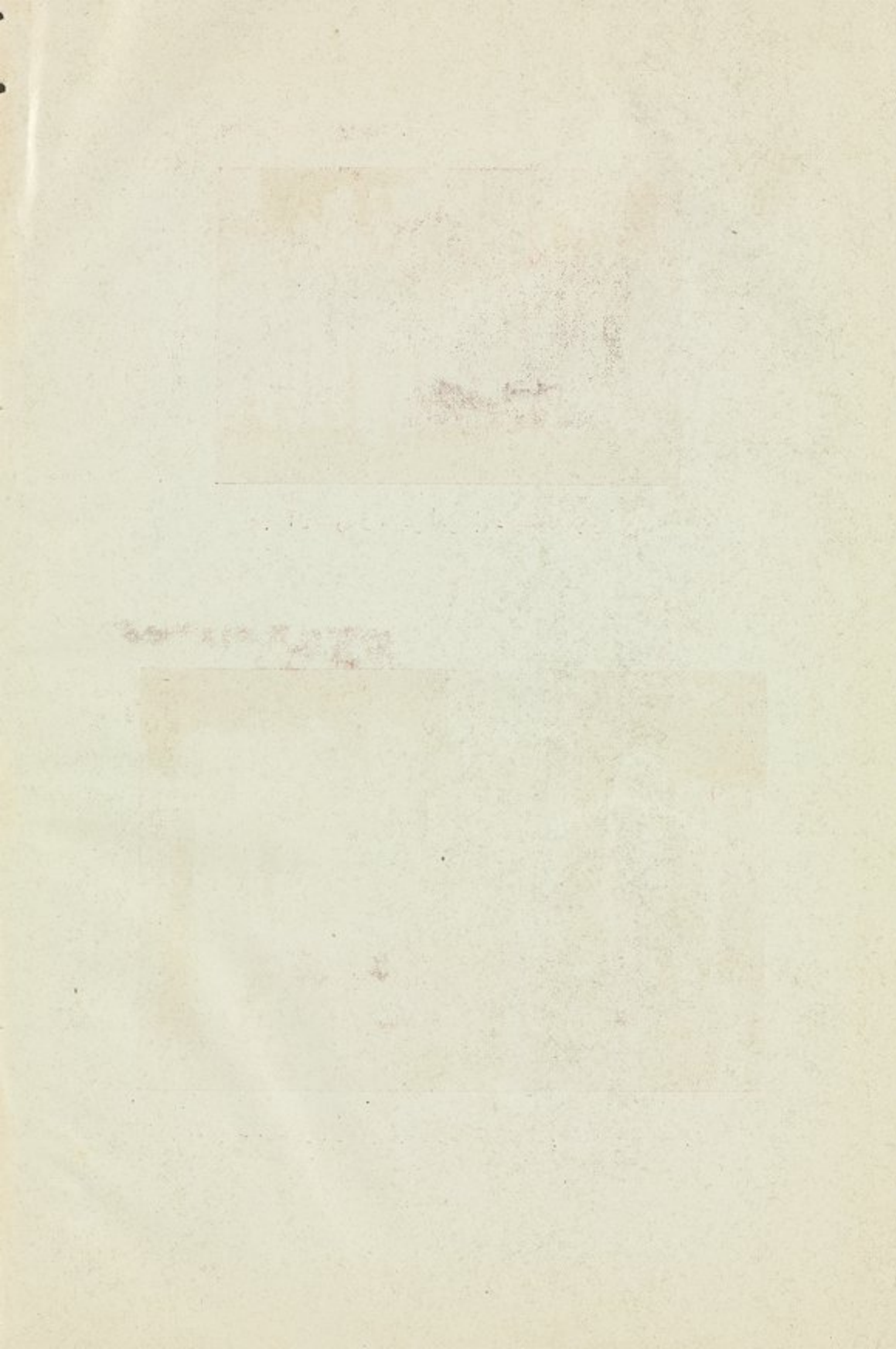
وهذه اللمحات العابرة عن الأدب السعودي سجلناها في هذا المكان من الكتاب ، ولكن القارئ سيجد في الصفحات الأخرى المبعثرة المتناثرة ، أمثلة عليا رفيعة من الأمثلة هذه الخصال ، تركناها لندكرها في مكانها المناسب لأننا لم نقصد إلى أن نحصى هذه الحسنات في مكان واحد ، ولم نقصد من وراء ذكرها إلا مجرد العظة والعبرة والقدوة الحسنة .



أمراء آل سعود في ملابس أهل الجهاد في حفلة عرض كبرى



الأمير خالد السديري والأمير عبد العزيز السديري في إحدى الحفلات الكبرى



روضة الخفس - ورياض نجد

تقع روضة الخفس في واد يشرف عليه جبل شامخ متصّد إلى الأعنان ، يسمى جبل طويق^(١) ، وهو في الجانب الغربي من الوادي ، وفي الجنوب منه سلسلة من الهضبات الرملية الدقيقة الصغيرة ، التي هي أشبه بالنفود وإن كانت ليست من النفود حقيقة ، ذلك بأنها^(٢) بحر متلاطم من أمواج الرمال الدقيقة التي تذرّوها الرياح بين كل أصباحية وأمسية ، ويصطلحون على تسمية هذه الرياح الرملية المتعاقبة بـ «العج» وهي تسمية مفهومة إذ كان المقصود منها « المجاج » . وفي أطراف من شواطئ تلك البحار الرملية تقوم روضات متناثرة عديدة لا تحصى ، تتفاوت مساحتها وتتقارب من ميل واحد إلى خمسة أميال إلى أكثر من ذلك أحياناً ، وقبل أن نتاح لي زيارة نجد ما كنت أعرف السبب الصحيح لتسمية عاصمتها بالرياض ، حتى كانت هذه الرحلة التي أفهمتي أن المقصود من الرياض هو جمع تلك الروضات بالنظر لكثرتها

- (١) ينطق أهل نجد باسم الجبل « طويق » مجرداً من أداة التعريف ، وقد ورد في بعض المعاجم وفي كتاب فؤاد بك حمزة « الطويق » .
(٢) قال سعادة فؤاد حمزة باشا في كتابه قلب جزيرة العرب .

« معنى النفود الرمال الكثيفة الصعبة المرور التي تسفيها الرياح فتؤلف كتاباً متسلسلة ، ولم نجد لهذا الاصطلاح أثراً في اللغة العربية القديمة ، ولكننا نعتقد أنه حديث مأخوذ من نقد أي سار إلى الهلاك .

« وأما الرمال التي يطلق عليها اسم النفود في الوقت الحاضر ، فقد كانت تعرف بأسماء أخرى في القديم ، فالنفود الكبير الشمالي بين الجوف وجبيل شمر كان معروفاً باسم « عاج » والنفود الجنوبي المسمى بالربع الحالى كان معروفاً باسم رملة « يبرين » وإذا أطلقت كلمة النفود شملت جميع الأراضي الرملية الكثيفة فهي تشمل الدهناء مثلما تشمل الأحقاف أو الأنقاد الأخرى في البلاد العربية » . اهـ

وشهرتها وأهميتها في تلك الأصقاع . فالواحدة من هذه الروضات ، أو الواحد من هذه الرياض ، مكان معشب ، كثير النبات ، مختلف الألوان والأشكال ، موشى بأصناف الأزهار الياضعة الباسمة ، ذات الأراج الفيح ، والعبير الذكي الفياض . فأنت إذا أقدمت على الروضة سبقتها إليك طيب العبير بعرف زكي يصل إلى القلب من غير حجاب ، فيبعث فيه النشوة والمرور ، وإذا طالت المدة التي تقضيها بين أرج ذلك الروض ازداد الشعور بالانسراح والسرور ، لما يحمله النظر من حسن المنظر ، ولما يبهج النفس من زكي الراحة .

وطبيعة النباتات والأزهار في بوادي نجد وحواضرها ، تختلف عن غيرها في كثير من الجهات وغيرها من بوادي الحجاز أيضاً ، فالمعروف لنا في أكثر النواحي المأهولة من بادية الحجاز ، كالطريق بين مكة والمدينة وجدة وعرفات والطائف وما حولها من الجهات الأخرى أن عشبها المألوف لا يتعدى بضعة أصناف تعد على أصابع اليد الواحدة ، في الأرض الباردة تقوم الغابات الشوكية والسلم مقام الزرع ، وفي الأرض الحارة ينبت شجر الحنظل والعشر والسنامي . دون غيره من الأعشاب الأخرى . أما بوادي نجد ، فقد امتازت بتلك الرياض الطبيعية التي لم تعملها يد إنسان ، ولم ينمقها عقل بشري ، وإنما عملتها صنعة الله ، ووشتها قدرته جل وعلا ، فجاءت - والله المثل الأعلا - خير مثال على قدرته العالمة ، وكآل صنعه وجلال قدره ، ذلك بأن الروضات في نجد - وفي هذا الربيع على الأخص ، وهو الربيع الفذ الذي لم تشهده منذ ربع قرن من الزمان كما قلنا - ذات منظر عجب خلّاب يبعث الفكر على التأمل في جمال صنع الله ، فأنت تشهد بعينيك مساحة كبيرة من العشب الناضر المزهر على جملة مشاهد مختلفة تبعث في نفسك الإيمان العاجل بأن هذا الصنع ليس من صنع البشر ، وليس هو في مقدور الإنسانية ، فقد ترى روضة طال العشب فيها إلى ارتفاع متر

متصعد في الفضاء ، وهى كلها من زهر واحد ذى لون واحد وعبق ذكى واحد ، فهذه روضة تتجول فيها على سيارتك عشرات من الدقائق ، وكلها ذات زهر متشعب الأوراق في نظام دقيق واحد جل من أبدعته صنعته ؛ وتلك روضة أخرى كبيرة المساحة ، ذات لون واحد كله أبيض ناصع البياض زكية الرائحة تطالعها فكاً ثماً تطالع أرضاً كسيت بقطع الثلج الزاهر المشرق ، أو كأنما نثرت فيها الأقطان يد النداف الصنّاع ، فأشرق من صناعته البقاع !

وهناك روضة ثالثة ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، فهى زرقاء اللون من طراز واحد جلّت يد المبدع الذى صنعها وتعالى عظمتها ، روضة كبيرة المساحة لا يدرك الطرف أولها ، ولا يبلغ السير آخرها ، لولا جهد السيارة وأتانا نطوى الأرض على غير الناقية والبعير ، فسنبطل نمشى مسافة غير قصيرة ونحن مأخوذون بجمال ما نشهد من منظر رائع فتان ، زهر أزرق اللون ، دقيق الصنع ، قد نمت أزهاره فى أغصانه تنميحاً منظر كأنما هو مقصود أن يكون على ما كان ، تفوح منه رائحة زكية منعشة ، فهو سرور فى المنظر والمخير ، وذكرى عاطرة فى المغيب والمحضر .

وهناك روضة رابعة ! ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، وليست بالزرقاء ، فهى بساط سندسى رائع أخضر اللون ، كأنما فرشت أرضه ببساط أنيق أينعت فيه الخضرة وزهت ونمت وأربت ، فطال نبتة واستطال ، وبلغ من غايته كل منال ! تعال العشب فيها إلى ذلك القدر الباهر من الطول ، وراح النظر يسرح فيها غير ملول !

وهناك روضة خامسة ، ليست بالبيضاء ولا الصفراء ، وليست بالزرقاء ولا الخضراء فهى خليط نثرته قدرة الله فى مكان واحد ، وجعلته معجزة القدرة بذلك التنويع الجليل ، إذ ترى فيها النبت فيها ألواناً وغير ألوان ، صنواناً وغير صنوان ، فمن كل شجرة زهرة ، ومن كل زهرة شجرة ، وقد تصادف غصناً واحداً يحمل جميع الألوان

وقد تصادف لونا واحداً مبمترآ في أغصان !! فأنت من ذلك الخليط الرائع في بستان ،
ومن حسنه في جمال فتان ، فسبحان من صنعته يده ، وتوجته قدرة الإله ، تعالى
الله عما سواه .

هذا الوصف الموجز الرقيق ، هو بعض ما في ربي نجد ، أو هو بعض رياض نجد ،
وهذا الوصف الذي أطلقناه على بعض الروضات أو الرياض ، هو من غير شك وصف
عام لما شهدنا ، ولما لم نشهد من رياض نجد ، فقد يقوم وصف البعض عن الكل مقام
التعميم ، وقد يغني التخصيص بما يفيد أداء المعنى الكامل حين تعجز الحيلة عن غير
ذلك ، وقد أردت بهذا أن أ كفي نفسي عناء تفصيل وصف كل روضة من رياض
نجد ، بما تستحق من الإفاضة والتوضيح ، لأن ذلك التفصيل شيء غير مستطاع
إطلاقاً ، ومع ذلك فإنني لا أحجم عن إطلاق العنان للقلم في كل مناسبة تعرض
لإيفاء ذلك الوصف حقه كلما سنحت المناسبة في خلال الوصف ، مثلما كانت تسنح
عليها تلك الهبات العلية السليمة ، والصاحبة السقيمة ، بين أجزاء الرحلة وتنقلاتها
في فترات المختلفة من رياض ذلك الوادي الفسيح الأريج أو تلك البادية الضاحية
المشرقة اللامعة .

وفي روضة الخفس هذه غدير ماء يستقي منه الوارد ويستقي منه القطان ، فهو
مورد للمقيم والظاعن ، ويسمى غدير « الخويبي » ويقع في مساحة من الأرض طولها
خمسون متراً وعرضها عشرون ، فهو شبه بحيرة صغيرة ، وقد ركبت في أحد جوانبه
طلبة يدوية لمتص الماء وتقذفه بواسطة خرطوم كبير إلى خارج الغدير حيث ينقله
الوارد في سيارات نقل الماء أو في غيرها من الأوعية والأواني ، وهو إلى جانب ذلك
ممتزح للناس حيث يقصده الكثيرون في الأصيل للتنزه والجلوس على حافته ، ويوجد
إلى جانب هذا الغدير الرئيسي ، غدير آخر فرعى بينه وبين الأول مسافة ميل واحد

وهو أصغر من الأول من حيث المساحة وعمق الماء ، وكلاهما يتسكوانان من مياه الأمطار والسيول ، وبقدر خصوبة الأرض ، وجودة الربيع ، ونزول الأمطار تطول مدة وجود المياه في هذه الغدران والعكس بالعكس .

والغدير الصغير يقع في وسط روضة غناء جميلة وارفة الظلال^(١) يحتضنها جبل طويق ، وهي تختلف عن غيرها من الروضات الأخرى بوجود عدد كبير من الشجيرات الوارفة الظلال ، فأرضها مفروشة ببساط أخضر سندسى من النبت الزاهر الرائع ، وعلى حافة ذلك البساط قامت المظلات الإلهية الجميلة التي هي شجيرات باسقة يستظل بها الجلوس المتزهون ، ويكثر ورود الطير الصالح للصيد على هذا الغدير ، فهو مورد للاصطياد علاوة على أنه متنزه جد جميل . وقد كان لنا في المدة التي قضيناها في روضة الخفس جولات يومية في هذا المتنزه العامر الجميل خصوصاً في ساعات الأصيل وليالي القمر ؛ وكانت زهتنا في هذه الروضة وعلى حافة ذلك الغدير باقتراح من حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، الذي هو أعلم بما في بادية نجد من مصادر للجمال والنزهة والتمتع ، وقد تفضل جلالته باقتراحه ذاك علينا للتمتع بالنزهة الجميلة في ذلك المكان الجميل .

وهناك حول هذا الوادي الذي اصطلح على تسميته بروضة الخفس، جملة روضات

(١) قال سعادة فؤاد بك حمزة في كتابه فلب جزيرة العرب :

«ويقسم نجداً سلسلة من الجبال تسمى العارض تنجّه من الشمال إلى الجنوب بشكل مقوس نوعاً ، وتقوم عليها وفي أطرافها الدساكر النجدية المهمة وهي منطقة السدير ، وبمد أن تجتاز السلسلة هذه المنطقة تنقسم إلى شعبتين ، شعبة شرقية تنجّه إلى الجنوب الشرق إلى أن تغور وسط الصحراء وتسمى العرمة ، وشعبة غربية تمتد إلى الجنوب وتسمى الطويق .

«وفي الحقيقة أن البلاد النجدية يمكن اعتبارها كسلسلة من الواحات المتشابهة في التشكيل المختلفة في السكبر والمساحة تمتد من القصيم إلى وادي الدواسر على أطراف سلسلة جبل طويق .

جميلة متناثرة في شرق الوادى وغربه وفي شماله وجنوبه ، ويقع المخيام الملكى في وسط الوادى ، كما يقع مخيام الأسر إلى الجنوب الشرقى منه على مسافة بضعة أميال ، والروضات الآنفة الذكر مبعثرة مترامية بين أجزاء مختلفة من الوادى والمخيام ، وفي روضة من هذه الروضات ، يقوم حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بنزهاته اليومية وبنزهات الصيد في مواعيد منظمة معينة لا تختلف . وهناك روضات أخرى في غير هذا الوادى ، مثل روضة التنهاة وغيرها منتشرة ومبعثرة في كثير من أنحاء نجد ، وبادية نجد ورباها الخصب العاصرة .

نظام الإقامة - أو أيام الروضة

قد يعجب القارئ من هذا العنوان لأنه لاصلة بين الرحلة وبين « نظام الإقامة » حين يحسب أننا نقصد النظام الموضوع في المملكة العربية السعودية للإقامة !! ولكننا نبادر أولاً بإزالة هذا الالتباس اللفظي وشيكاً لأننا لا نقصد « نظام الإقامة » الرسمي الذي تقوم بتطبيقه إدارة الأمن العام !! بل نقصد نظام الإقامة الذي مر به صاحب الجلالة الملك ، في إقامتنا بروضة الخفس ، وما في ذلك النظام من الدقة البعيدة التي كفلت لنا منتهى الراحة وأقصى غايات التمتع والتنزه .

إن صاحب الجلالة الملك ، هو رجل النظام الأول في هذه المملكة لا لأن جلالته يسن الأنظمة أو يفرضها أو يأمر بتنفيذها على رعاياه ، بل لأن جلالته يعيش في حياة كلها نظام إذ هو يضع لنفسه الأنظمة التي يسير عليها ولا يحيد عنها قيداً نملة ، فحرى بنا ونحن نقيم في ضيافة جلالته ، أن نكون في كنف النظام عاملين به في كل حركة من حركات السفر والإقامة ، ولا أبالغ في القول إذا قلت أن من أسباب النجاح الذي هياه الله لجلالته في أعماله ، هو ذلك النظام الفطري المطبوع في نفسه والذي هو جزء لا يتجزأ من حياته الغالية الثمينة !

فقد أمر جلالته بتنظيم إقامتنا طيلة المدة التي قضيناها هناك سواء أكانت قصيرة أم طويلة . ومن ذلك أننا بموجب ذلك الترتيب كنا نستيقظ في الصباح الباكر من كل يوم ، أي من الفجر أو من قبله أحياناً ، فنؤدي الصلاة في وقتها ، وبعد استراحة قصيرة يباكرنا الخادم الذي يحمل إلينا أناء من لبن الإبل لا يقل ما يحمله عن مقدار

صفحة من الماء ، وكان بعض الرفاق لا عهد لهم بتناوله من قبل ، وبعضهم يحبه وقبل عليه ، ولم يمض غير تمرينات بسيطة في يوم وبعض يوم حتى كان الرفاق حين يصبحون ويصاؤون ، ينتظرون في شوق ولهف قدوم حامل اللبن فيفترون منه بالأكواب الكبيرة ما يشاؤون ويستبقون بعضهم في تناولها والتراحم عليها . والكلام على لذة تناول لبن النياق في الصباح الباكر يطول لو اردنا استقصاءه لما كان فيه من طرافة ولأن بعض الرفاق كان يتأباه ويتجافاه ، ثم عاد يقبل عليه بنهم وشراهة !! وبعد الانتهاء من حفلة هذا اللبن ، ينصرف الرفاق إلى التنزه في الصحراء واجتلاء مباحجها ، مستعينين على برد الصباح بشتى أساليب الدفء ، فمنهم كالسيد على فضل الشيخ الذي يأبى أن يعترف بالشيخوخة ولا يريد أن يظهر إلا بمظهر الشباب ، يعتمد إلى الخروج بملابس رقيقة خفيفة ، حتى لا يتهم بالشيخوخة ، ولا يفجع في شبابه ، ويطلب الدفء من وراء حركات رياضية هي الإيمعان في السير السريع الذي يبعث الحرارة في الجسم .

ومنهم من يتدثر بالمشالح السمكية الوثيرة !! أو بكل ما عنده من الملابس ، ومنهم من يتزمل برداء الخيمة ويحتضنها ولا يرى من الخير مفارقتها في ذلك الجو البارد والوقت الباكر مثل السيد عبيد مدني الذي كان يدين بهذا الرأي ويعمل به . أما فضيلة الشيخ عبد الله الشبي فقد كان في الشيوخ مثال النشاط في الشباب ، وكان يسهر ويسهر إلى ما يقارب منتصف الليل أو يزيد عليه أحياناً ، ولكن ذلك لم يكن يعوقه مطلقاً عن اليقظة قبل الفجر بساعتين ، ويكون الماء الحار قد عبيء لوضوئه وأحياناً لم يكن عبيء فيلتظي بلذعة الماء البارد في الوضوء ، ثم يقوم إلى الصلاة متهجداً مدة تلك الساعتين قبل الفجر ، حتى إذا ما أذن مؤذن الصلاة للصبح ، نبه رفاقه في خيمته أو خرج إلى خيمة المسجد فصلى مع الجماعة أو بالجماعة . أما فضيلة السيد صالح شطلا فقد كانت له مهمة أخرى ، هي أنه يقوم لصلاة الصبح في مياعدها ثم يسأل عن الرفاق

من حضر منهم ومن لم يحضر وعن استيقظ منهم ومن لم يستيقظ ، فإذا علم أن واحداً منهم لم يستيقظ ذهب وفي يده إبريق مملوء بذلك الماء البارد ، فيوجه إليه إنذاراً باليقظة حلاً ، وإلا فالماء البارد ، خير كفيل بإيقاظه قبل رجوع الطرف وقد ذاق كاتب هذه السطور - وغيره أيضاً - مرة واحدة جرعة من ذلك الماء في وجهه فكانت الأولى والأخيرة ولم يقع بعدها ولله الحمد ما يوجب غيرها !

وكان فضيلة الشيخ عبد الله الشبيبي حين يخرج للتنزه في ذلك الصباح الباكر يستصحب معه حاجتان من أدوات التسليمية ، الأولى ولده « زيني » الذي كان يسليه بالحديث فيقطعان به الطريق ، والثانية « بندق الصيد » يتلمس بها صيدا يضربه ليعود إلينا مرفوع الرأس على الصدر ولكنه بما منحه الله من نفس وادعة ، مشربة بحب الدعابة البريئة والفكاهة الموقرة ، كان دائماً يعود إلينا مرفوع الرأس على الصدر ، حتى ولو لم يرسل الله الطيور لتتراى تحت سلاحه ! وهو مع ذلك لا يضمن كل يوم بطلقة أو بطلقتين يرسلهما من فوهة بندقه في طلب الطير ، وليس عليه أن تتم المطالب كما يقول الشاعر ، وكان سبيله في طلب الدفء أن يتدثر بملابس كان يذخرها لهذه الحاجة ، قد تبلغ في مجموعها مجموع ما يلبسه زملاؤه في الرحلة .

وبعد الانتهاء من هذه الجولة الصباحية الباكورة ، وانضمام ذلك اللبن الذي تساقينا كؤوسه المترعة ، وشعورنا بالحاجة الى الطعام ، نعود إلى المخيام ونحن أشد ما نكون شعوراً بالحاجة إليه ، فإذا بالطعام يكاد يسبق أيدينا إلى أفواهنا ، وإذا بنا ننهال عليه كما ننهال الأسد على فرائسها ، وما هي إلا لحظات حتى نكون قد فرغنا منه إلى تناول الشاي والقهوة العربية ، ومن ثم نهيأ لارتداء ملابسنا وبعضنا من شيوخ الشباب من ينصرف إلى التجميل وتجميل رفقائه بما عنده من مواد التطرية والتعطير فإذا كانت الساعة الثالثة عربية كان رسول حضرة صاحب الجلالة الملك بالمخيام ، جاء ليدعونا إلى التشرف بمقابلة جلالته فيقول : « الربع بهذا » ؟ ! أي

الرفقاء بهذه الخيمة ، ثم يفادينا بأسمائنا وقد عرفها وحفظها عن ظهر قلب ! هيا يا عباس هيا يا فلان ، فلا نكاد نسمع صوته حتى نكون قد أخذنا أمكنتنا من السيارات ، ونجيبه على تساؤله بأن « الربع بهذا أبشر أبشر » ويسرع الرسول فيمتطى أول سيارة متحركة ، ويقفز على رفرها لمصاحبتنا إلى الخيام الملصكى العامر .

فلما نصل إلى الخيام نتشرف فوراً بالدخول إلى خيمة جلالة الملك ونحظى بلثم يد جلالته ومصافحته ونأخذ أمكنتنا من الجلوس في الأمكنة التى تعودنا الجلوس عليها منذ أول يوم وصلنا فيه إلى الخيام ، ويكون جلالته إذ ذاك قد انتهى من مطالعة البرقيات الواردة إلى ديوانه من كافة أنحاء المملكة فى شؤون الحكم والرعية ، أو من غير المملكة فى شؤون الدولة والسياسة وذلك أول عمل يزاوله جلالته فى الصباح إذ ليس هناك من الأهمية عنده أكثر من الاطلاع على البرقيات الواردة أو انتظار أجوبة ما يرسل من البرقيات ، وإصدار الأوامر البرقية بالفصل فى الشؤون العاجلة السريعة وقد يكون بين تلك البرقيات ما لا قيمة له فى نظر غيره كأن تكون البرقية صادرة إلى جلالته من أحد العامة من رعاياه ، ولكن جلالته يرى بكل برقية تصل إليه قيمة وأهمية حتى ولو كانت من الطراز الآنف الذكر ، أو من صغير يتظلم فيها من كبير ، ويتفضل جلالته بالفصل والإجابة حالاً على كل شئ من هذا القبيل من غير تردد ولا إبطاء ، بل إن جلالته لا يتردد فى عقاب من يثبت عليه إهمال أو إبطاء فى شئ من ذلك .

ويتفضل جلالته باستقبالنا هاشأً باشأً ، باسمًا مرحبًا بوجهه تشرق منه أنوار الإيمان ، وتنبعث منه أساريره البشر والاطمئنان ، ويتبدى جلالته الحديث مبتسمًا بالسؤال عن أحوالنا الخاصة والعامة ، وعن راحتنا ووفرة محتنا ، وما إلى ذلك من الأسئلة التى تشتمل على أدق معانى اللطف وسمو الذوق وكرم المجاملة وإكرام الوفاة . ويدور الحديث بعد ذلك فى المجلس بإدارة جلالته فى شتى المواضيع من خاصة وعامة ،

وفي شتى الأبحاث والنواحي ، من دينية واجتماعية وسياسية وأخلاقية وأدبية ، ولا يفوت جلالته اقتناص الفرص المتاحة في سياق الحديث ، لإيراد الطرف الأدبية الرائعة البريئة ، وهو يصغى ويتقبل بصدر منشرح ، ما يعرض في سياق الحديث من الأحاديث التي يليق التندر بها في مجالس الملوك ، وقد يحدث في سياق الأحاديث ما يستثير اهتمام جلالته من المواضيع الهامة ، وعلى الأخص إذا كانت متعلقة بالدين أو الأخلاق أو الآداب العامة ، فيرتجل جلالته الخطاب ارتجالاً رائعاً في حماسة وإفاضة وقوة منطق وسعة حجة وتدقيق بيان .

فإذا ما انقضت تلك الأحاديث الطريفة وجاء الميعاد المحدد ، دخل إلى الخيمة أحد موظفي الإذاعة^(١) ويقرأ في المجلس نشرة الأخبار مأخوذة من جميع الإذاعات . وقل أن يمر خبر من هذه الأخبار من غير أن يتفضل صاحب الجلالة بالتعليق عليه أو إبداء الملاحظات بشأنه ، سواء من ناحية التفكير والتعليق ، أو من ناحية التاريخ والاجتماع ، أو من أية ناحية تفرضها المناسبة ويستوجبها الظرف . وبعد ذلك يستأنف جلالته الحديث في أية مناسبة كانت ، وفي خلال ذلك تدار القهوة العربية الجميلة ، وجلالته مفرم بتناولها وهو بين كل دقيقة وأخرى يأمر بها ، ففي قصره العامر يضع إصبعه على الجرس الخاص بها فلا يكون جواب ذلك إلا حضورها على أيدي سقائها . وفي الخيام ، يكفي أن يقول جلالته « قهوة » فيبادر الخدم إلى إبلاغ طلب

(١) في قصر جلالة الملك موظفون مثقفون يكتبون الأخبار التي تناع بالعربية ، وبغير العربية يترجمونها ويقرأونها في مجلس جلالته ثلاث مرات في اليوم ، قبيل الظهر ، وبعد صلاة العصر وحوالي منتصف الليل ، وقد كان موظف الإذاعة في أثناء هذه الرحلة هو الأستاذ عبد العزيز ماجد ، أما موظفو الإذاعة في الوقت الحاضر فهم الأستاذ أحمد خليل عبد الجبار وقد نقل إلى منصب سكرتير أول مفوضة المملكة العربية السعودية في واشنطن والأستاذ عبد الله عمر بلخير والأستاذ علي النفيسي والأستاذ عبد الله بن سلطان .

« القهوة » بصوت جهورى واحد ، إلى المكلف بتقديمها ، فتقدم إلينا فى خلال دقيقة واحدة ، والقهوة العربية النجدية ، أو القهوة الملكية على التحديد وبصفة أخص لا رى من ظمأها ، وشاربها لا يشبع منها أبداً ، فهى من حسنها وطيب نكتها ، ولذة ذوقها لا تنكاد النفس تشبع منها ، وهى إلى جانب ذلك ، ذات دلالة وتمتع ، فوصلها أمتع من وصال الحساء ليلة جلوتها ، إذ أنها علاوة على ما انفردت به من الحسن ومن تلك الصفات المحببة ، يضعها الساقى فى كوبها الصغير ، رشفة صغيرة كأنها حسوة الطائر المستوفز ، أو لقطة المجلان ، فإذا بك ترشف منها رشفة أو رشفتين على الأكثر ، وأنت من وصالها فى مطمع أو مزيد ، كأنما عناها الشاعر فى قوله :

رشفة بعد رشفة والتفات كالتفات القطا على الغدران

ثم يطلبها مرة أخرى حضرة صاحب الجلالة ، فتحضر لك وأنت أشد ماتكون شوقاً إليها بعد مذاقته من لذتها الأولى ، لخفتها وذوقها ، وهكذا دواليك ، وليس فى هذا الذى أقوله مبالغة أو تهويل ، فهو شعورى ، وشعور من اتصلت بهم من كثير من الأشخاص العالمين الذين أتيح لهم شهود مجالس جلالته ، وتناول قهوته ، والسبب فى ذلك يرجع إلى دقة طهيها وبراعة إتقانه ، وما فيها من الحاجيات ، وهناك دليل أكبر يؤيد إعجابى هذا ، وهو كثرة ما يتناول جلالته منها فى كل لحظة وأخرى ، وليست هذه الكثرة إلا دليل الإعجاب من جانب جلالته ، وليس وراء ذلك غاية لاستريد ، أو حاجة فى الشهادة إلى تأكيد !

ثم يتفضل جلالته فيأمر بإحضار الشاهى ، فيحضر الشاهى فى أكواب لامعة مشرقة ، فنتناوله ونحن فى ظمأ إليه ، وجلالته لا يشرب منه وإنما يأمر به إكراماً لضيوفه ولما يعلمه عن عادة المكيين فى شرب الشاهى برغبة خاصة ، ثم يأمر جلالته

بإحضار مباخر العود والغد ، ومرشّات ماء الورد فتدور على الحاضرين للتبخير والتعطير وهذا يعتبر إذناً للحاضرين بالانصراف وهو عادة تستعمل في نجد عند الخاصة والعامة ولهم فيها أقوال مشتملة على شعر ونثر وأمثلة ، منها قولهم « ما بعد العود قعود »

وفي الواقع أن إطلاق البخور في ختام المجلس إيذاناً بانتهائه ، عادة من أطراف التقاليد التي تحمل المشكلات وبها يرتاح الضيف والمضيف ، ويستريح كلاهما !!

وننصرف من حضرة جلّالته بعد ذلك ، حيث يعكف على أعماله العامة والخاصة ثم نقصد إلى التشرف بزيارة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد في مخيمه الخاص ، ثم إلى مخيم حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك ، فنتشرف بالسلام على سموه أيضاً ، ونقضى في حضرة سموه مدة كالتى أمضيناها في مخيم ولي العهد المعظم ، وقد تفضل الأمير فيصل منذ أول يوم تشرفنا بزيارة سموه في مخيمه الخاص ، فأمر بأن تقدم إلينا أوعية كبيرة من لبن الإبل ، فيأخذ كل فرد منهم إناءه ، ويتبارى الرفقاء في تجرع تلك الكميات الكبيرة التي ما كان يمكن استساغة تناولها لولا ما في جو البادية من نشاط جعل الشهية تُقبل من غير وعى ولا تدبّر على تناول تلك الكميات من الألبان والأطعمة واللحوم وقد تعودنا تناول تلك الكمية من اللبن ظهر كل يوم في تشرفنا بزيارة سموه ، وأصبحت راتباً لا ينقطع ، وكان لها أكبر الأثر الصّحى في نفوس الرفقاء جميعاً . وبعد أن انتهت من التشرف بزيارة سموه ننصرف من لدنه ، فإذا كان في الوقت سعة نقصد إلى زيارة من يتسع الوقت لزيارتهم من حضرات أصحاب السمو الأمراء ، وإذا كان الظهر قد حلّ وحلّت بذلك مواعيد انصرافهم إلى الغداء ، نعود أدرأجنا إلى مخيماننا للاستراحة وتناول طعام الغداء والقيولة .

أما كيف يقضى حضرة صاحب الجلالة الملك بقيّة يومه بعد منصرفنا من مخيمه

العامر، فإن جلالتة يظل يصرف أمور الدولة فيما يعرض على أنظار جلالتة من البرقيات والمعاملات الحكومية والرسائل ، حيث يستدعى كبار موظفي قصره العامر : فهذا سعادة الشيخ محمد بن دغيتر أمين سر جلالتة ، ورئيس ديوان البرقيات يعرض على أنظاره ما لديه من ذلك ؛ وهذا سعادة الشيخ عبد الله بن عثمان رئيس الديوان المعالي يعرض على أنظار جلالتة أوراقه ؛ وهذا سعادة الشيخ إبراهيم بن عيدان رئيس شعبة الأرزاق ، يقدم إلى جلالتة ما في يده من أوراق ؛ وهذا سعادة الأستاذ رشدي ملحس يلتقط الخطى حول جلالتة لتقديم أوراقه أيضاً . ثم هؤلاء أصحاب المعالي والسعادة مستشارو جلالتة وكبار رجاله ، الشيخ عبد الله السليمان ، الشيخ يوسف ياسين ، الشيخ خالد أبو الوليد ، الشيخ بشير السعداوي ، السيد حمزة غوث^(١) ، يلتفون حول جلالتة ، مجتمعين أو منفردين ، ويظل العمل متصلاً مستمراً بإدارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم إلى ما بعد الساعة الخامسة بقليل ، فإذا كان الظهر على مقرب ، نهض جلالتة وامتطى سيارته الخاصة ، وسار في معيته بعض رجال الخاصة ، ثم يلحق بجلالتة أنجاله الأمراء ، ويقصد إلى روضة من رياض ذلك الوادي ، وهناك يكون ابن الإبل قد هيء لتقديمه إلى جلالتة مع قليل من التمر ، فيتناولوه جلالتة كغذاء له ، وذلك فقط هو غذاؤه طيلة النهار ، بعد تلك الأكواب العديدة التي يتناولها من القهوة في أجزاء مختلفة من أوقات اليوم والليل ، وقليل ما يشتهي تناول طعام الغذاء الآخر من اللحم والأرز في وسط النهار ، وبعد استراحة قصيرة نهض جلالتة فيمتطى سيارته قاصداً إلى الصيد والقتل والتجول في الرياض المحيطة بالوادي ، فيمضي في ذلك مدة ساعتين أو ثلاث ، إما في الصيد أو التنزه ، وإما أن تطوف برأس ذلك الأسد المغوار سنة من النوم ، فيطبق أجفانه ويستسلم إلى تلك الغفوة العاجلة ، مدة قد تطول وقد تقصر ، يصحو بعدها جلالتة

(١) في أوائل هذا العام صدر أمر جلالة الملك بتعيين طبيبي جلالتة الدكتور رشاد فرعون والدكتور مدحت شيخ الأرض ، مستشارين لجلالتة .

متجدد النشاط ، كأنه استجهم في تلك الإغفاء واستراح بها من عناء الأعمال ، وبعد أداء صلاة العصر يعود جلالته إلى مخيمه العام فيشرفه في تمام الساعة الحادية عشرة أى قبيل صلاة المغرب بساعة كاملة ، فيستريح قليلاً ، ثم يكون طعام العشاء قد تهيأ وأعد ، فيتناولوه جلالته وفي معيته بعض أصحاب السمو الملكي أنجاله الأمراء ، ورجال الحاشية وكبار موظفي الديوان العالي . ثم ينهض جلالته إلى أداء صلاة المغرب ، ومن ثم ينصرف إلى مخيمه الخاص ليقضى بين أسرته وأنجاله الأمراء الصغار منه ساعتين فإذا حان وقت العشاء أدى فريضتها وعاد إلى مخيم العمل .

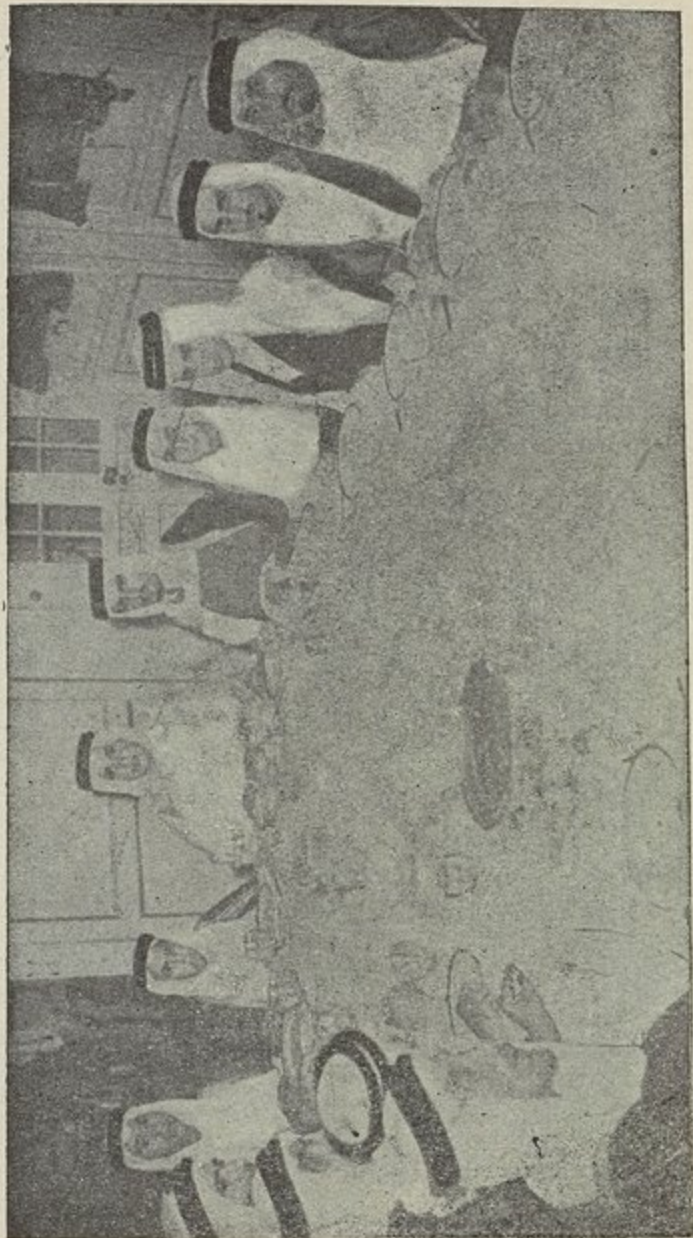
ونظام العمل في الليل ، هو أن جلالته يشرف إلى المخيم بعد صلاة العشاء ، ويكون فضيلة الشيخ عبد الرحمن الجوزي إمام جلالته حاضراً فيمضي مدة نصف ساعة أو أكثر بقليل في تلاوة جزء من التفسير ، وجزء من الحديث النبوي ويصفي جلالته بانتباه تام إلى ما يسمع من القراءة ، وكذلك جميع الحاضرين وبعد انتهاء القراءة يتشرف الجميع بالسلام على جلالته ، وتكون الساعة قد بلغت الثالثة ، ويلتفت جلالته إلى ضيوفه ، فيبتسم لهم ، ويهش في وجوههم ، ويسألهم عن أحوالهم وصحتهم ، وكيف قضوا يومهم ، وقد يتلطف جلالته في مداعبتهم والتبسط في الحديث معهم . ويأمر بإحضار الشاهي والقهوة ، ثم يدخل الموظف المختص بأخذ أنباء الإذاعات اللاسلكية في آخر النهار وأول الليل ، فيأمره جلالته بأن يقرأ ما في جعبته من الإذاعات فيقرأها وقد يفضل جلالته بإبداء ما يعن له من الملاحظات على الأخبار ويدور الحديث بضع دقائق في أى موضوع كان ، تدور معه أكواب القهوة ، والشاهي .

وبعد ذلك تمضي في حضرة جلالته مدة نصف ساعة مصغين إلى ما ينثره من روائع حكمه ، وجوامع كله ، وتدور الأحاديث مختلفة الطرائق والمواضيع ، حسبما توجيه المناسبة فقد يكون الحديث عاماً وقد يكون خاصاً ، وقد يتعلق أحياناً بتاريخ البلاد العربية أو بتاريخ جلالته أو بتاريخ الحوادث العامة ، وما إلى ذلك من مختلف

طرائق الأحاديث وسبلها الكثيرة - والحديث شجون - كما يقول الدكتور زكي مبارك صاحب هذا العنوان ومحتكره . ومن الحق أن نذكر بالإتصاف دقة ما يبدو من جلالاته من الملاحظات العامة أو إيراد الروايات التاريخية المعضلة المقرونة بالأرقام - إذا عرضت مناسبات لذلك - فيما يتعلق بالحوادث القريبة أو البعيدة ، مما قد يعجز أقوى الذاكرات عن استيعابها والمحافظة عليها .

وتدور بعد ذلك مرشات ماء الورد ومباخر المود والند ، فننهض من حضرة جلالاته مستأذنين ، ونعود إلى مخيامنا فنقضى الليل في سمر ممتع طويل إلى ما يشارف منتصف الليل ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، حسبما تكون الظروف وتكون المناسبات ، وقد يحضر إلينا من يزورنا من الأصدقاء في ذلك الوقت فيشاركوننا ما نحن فيه من سمر وسهر .

أما حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فيظل في خيمة عمله إلى الساعة الخامسة ليلاً ، وهي قد تصادف منتصف الليل في بعض الفصول ويقضى جلالاته ذلك الوقت كله في تصريف شؤون الدولة للفصل فيما يعرض على جلالاته من الأعمال ، وبعد الانتهاء من ذلك ، ينهض فيغادر مخيام العمل ، مشياً بأكرم تحية من رجال ديوانه وموظفيه وحاشيته قاصداً إلى مخيامه الخاص ، وبعد استراحة قصيرة يستسلم للنوم ، فينام نوماً هادئاً متصلاً إلى الهزيع الأخير ، وقد تتراوح مدة نومه ما بين الساعتين إلى الثلاث ساعات حيث يستيقظ جلالاته قبل الفجر بساعتين فيتوضأ ويقوم إلى الصلاة متمجداً عابداً في غسق ذلك الليل البهيم الحالك إلى أن يحين الفجر ، وينصرف بكليته إلى الاتصال بالله تعالى اتصالاً روحياً رائعاً في تلك العبادة الخاشعة ، ثم يترقب حلول الفجر من خلال ساعته الصغيرة التي يحملها في جيبه والتي يعنى كل العناية بضبطها لإقامة الصلوات على مواقيتها ، فإذا علم أن الفجر قد حان ، أمر بالأذان ،



حضرات أصحاب السمو الملكي الأمير عبد الله ، الأمير بندر ، الأمير مساعد ، الأمير عبد المحسن ، الأمير مشعل ، الأمير طلال ،
الأمير نواف ، الأمير متعب ، من أنجال صاحب الجلالة الملك عبد العزيز

فيخرج المؤذن صائحاً ويسمعه الناس في الخيام فيهبون جميعاً من سباتهم هبة رجل ، وترتفع الأصوات بالأذان في كل جانب من جوانب الخيام ، وتدوى بها الأرجاء من كل حذب وصوب ، فإذا الخيام كله مسجد كبير يتألف من مجموعة مساجد بالنظر لاتساع رقعة الوادي وامتداد مداه ، وإذا الناس كلهم قائمون بالصلاة جمماً مجتمعاً . وبعد أن ينتهي جلالته من الصلاة والعبادة والاستغفار والدعاء يظل في مكانه إلى ما بعد طلوع الشمس ، ثم ينهض فيصلّي صلاة الضحى ، ويضطجع بعد ذلك قليلاً فيستسلم إلى النوم مدة ساعة ، يغادر بعدها مخيمه الخاص إلى مخيم العمل .

وهذا الوصف الذي ذكرناه عن عادة جلالته في النوم والصحو والعمل والطعام هو العادة المتبعة التي لا يحد جلالته عن اتباعها في جميع الأوقات ، إلا ما تقتضيه المناسبات أحياناً من تعديلات طفيفة ضرورية في الأسفار وأمثالها من الظروف .

نظام الروضة - أو أيام الإقامة

كان أول مافعله الرفاق بعد أن أدوا واجباتهم المفروضة الآنفه الذكر ، أن فكروا في الواجبات الأخرى التي تلى ماتقدم ، فإذا يعملون ؟ ! ليس هناك غير الاتصال بالأهل والعشيرة ، وذوى القرابة الأدين في مكة ، فلنتصل بهم برقيةاً لنطمئنهم على سلامة وصولنا ، ولنطمئن من أجوبتهم المنتظرة على سلامة وجودهم ! فقد انقضى منذ مفارقتنا إياهم سبعة أيام كاملة ، يخلق الله فيها ما يريد ، ويحيي فيها من الأنفس ويميت ما تريده مشيئته ، فلنتصل بهم إذاً عن طريق ذلك البرق لنطمئن وليطمئنوا !! ولكن هناك واجب هو بقية الواجبات ، فقد ذكرنا إلى جانب أهلينا وذوى قرابتنا الأدين ، أولئك الذين تجشموا عناء المشقة لوداعنا ، واهتموا بأمرنا كل الاهتمام من كافة طبقات الأصدقاء .

وفي الحال أرسلنا رسالة برقيةة تحمل الشكر الجزيل إلى صفوة أولئك القوم ، لينوب بعضهم عن بعض في أداء ذلك الواجب باسمنا جميعاً ، ثم توجهنا وجهة واجب آخر ، هو الواجب الشخصي ، فأبرق كل منا برسالة أو رسالتين إلى أهله وذوى قرابته الأدين ، وانصرف الرفاق بالخلوة إلى أشخاصهم في ساعة روحية وجدانية ممتعة ، وتمثل كل منهم أقرب من يمت إليه بأوثق الصلات ، وأخذ يناجيه بالقلم مناجاة الشوق والوجد ويملي عليه من أثر الوحشة في نفسه ما استطاع ، وجمعت تلك الرسائل ووجه بها إلى مركز اللاسلكي ثم إلى من أرسلت إليهم ، وسبحت أرواحنا معها نتخيل وصولها واستلامها وأثر قراءتها في نفوس الأهل والعيال !! ثم انتظار وصول الردود عليها أيضاً في أقرب وقت وأقصر آن !!

وانقضى اليوم الأول ، أو الشطر الأكبر منه على المنوال الآنف الذكر ، ونحن

مانسكاد نفيق من لذة مانحن فيه من نشوة ! أولاً سلامة الوصول إلى الغاية المقصودة والتشرف برؤية حضرة صاحب الجلالة الملك العظيم وما غمرنا به من عطفه السابغ ، ولما للديار من لذة الجدة والطرافة ، فهذه هي نجد ، وهل نحن حقيقة في نجد ؟! أجل هذه نجد فسائل ربى نجد . . . وكذلك من كان في رفقتنا من الحاشية والخدم ، كان الطرب يرقصهم بنشوة مالم فيه من لذة الجدة والطرافة ، وكانوا يتجارون في سرور ومرح إلى قضاء ماهو في أعناقهم من واجبات .

وفي الأصيل أخذنا نتقرب زيارة من نحب من الأصدقاء ، وكرام الأخوان المحبين ممن هم في خدمة حضرة صاحب الجلالة من الحاشية ، وكبار الموظفين ، وكنا قد أنشأنا مسجداً أمام مخيامنا نجتمع فيه من بعد صلاة العصر إلى أن نصلي فيه المغرب والعشاء ، أو نخلص منه إلى خيمة كبيرة خاصة «مرادق» أعدناه لاستقبال الضيوف ولأداء صلاة الصبح - حين يكون البرد شديداً - فكان كلا الموضعين مسجداً ومضيفاً ، أحدهما للصيف والآخر للشتاء حسبما تسكون عليه ظروف الجو ، من الحر أو القرا !! ولم يطل بنا المقام ، حتى خف إلى زيارة مخيامنا زمرة من أولئك المحبين الأصدقاء ، وفي مقدمتهم أصحاب المعالي والسعادة الشيخ يوسف ياسين ، والسيد حمزه غوث ، وبشير بك السعداوى ، والأستاذ رشدى بك ملحس ، وغيرهم من كرام الأصدقاء وكبار الرجال . أما الشيخ عبد الرحمن الطيشى رئيس الخصة الملكية فقد كانت زيارته لنا لاتنقطع بين إصباح وإمساء ، إما ليؤدى واجبه الشخصى أو واجبه الرسمى فى الزيارة والوقوف على شؤون راحتنا ، وإكرام وفادتنا ، وتكرير الترحيب بنا ، وانتظمت بعد ذلك الزيارات وتكررت بيننا جماعات وأفراداً ، وبين أولئك الأصدقاء طيلة مدة الإقامة فى الروضة ، وكان أكثرهم اختلاطاً بنا بعد ذلك الطبيب

الماهر المجاهد الدكتور محمد علي الشواف^(١) وكان منتدباً للعمل هناك يومئذ وهو يشغل منصب مدير صحة المدينة المنورة الآن .

وظلت إقامتنا في روضة الخفس متسقة على هذا المنوال ، صلاة في الفجر حين يحل وقتها ، وتنزه في الصحراء مع الصباح الباكر ، والعودة العاجلة إلى انتظار حليب الإبل والتسابق إليه أو التهافت عليه ، ثم التعرّيج إلى تناول الشاي ، والفضل فيه لسعادة الشيخ عباس قطان ، حيث وكل به موظفاً إخصائياً من قبله يجيد طهيهِ وتقديمه ، كما كان بطل حليب الإبل ، والبراعة في تناوله ، واليقظة في تقسيمه فضيلة الشيخ عبد الله الشبيبي ، سليل البادية ، و سليل العروبة ، و سليل الصحراء . ثم تناول طعام الإفطار ، واستراحة قصيرة نذهب بعدها إلى السرايق الملكي للتشرف بزيارة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، وأصحاب السمو الملكي أنجاله الأمراء إلى الظهر ، ثم العودة إلى الخيام وتناول طعام الغداء والقيولة إلى العصر ، ثم استقبال من يفد من الأصدقاء للزيارة ، أو الخروج إلى الصحراء والرياض للتنزه ، ثم تناول طعام العشاء ، بين المغرب والعشاء والذهاب إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم والعودة بعد ذلك إلى الخيام لتمضية الشطر الأكبر من الليل في سمر ممتع طريف، وقد تفضل علينا حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد المعظم فأهدى إلينا

(١) كان الدكتور محمد علي الشواف ، قد أهدى إلى في محرم عام ١٣٥٢ هجرية صورته وقد كتب تحتها بخط يده الأبيات الآتية :

حنين المرضعات إلى بنيها	إلى وادي «حماة» يحن قاي
وتحسر مقلتي فأزيد تيهـا	فأعشى إن ذكرت الدار شجواً
من الشوق العظيم إلى ذويها	فمكس الشمس يظهر ما بنفسى
يكابر أن يرى الأغيار فيها	ويهديها التحية من معنى
	فكُتبت له تحتها هذه الأبيات :

مثار حنين النازح المتطوح	سل الشوق عن حب الديار فإنه
سباني إلى «البيت» الحنين المبرح	سبكت «حماة» بالحنين وطالما

جهازاً لاسلكياً لتتسلى به في السمر ، ونستمتع منه بسماع ما تحمله إلينا موجاته من الإذاعات المختلفة وأهمها القرآن الكريم ، والمحاضرات الشائقة في جميع المواضيع ، والأخبار الطريفة من كل بلد في أنحاء العالم ! وكانت هذه المنحة من سموه بليغة الأثر في تاريخ إقامتنا في الروضة لما كان فيها من الإعانة على قضاء الليل والإعانة على سمره وسهره ، وكثيراً ما كنا ننشد مع أبي العلاء بلسان الحال قوله :

يا ساهد البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

أو كنا ننشد ذلك بلسان العمل ، فيعمد بعض الرفاق إلى إيقاظ من رقد منهم باستعمال أساليب القوة والدعابة حتى يكمل السمر ، ونستجمع قوة الاستعانة على السهر ويطول الحديث في شتى أبوابه وأنواعه ومناحيه ، حيث كان الحنين قد أخذ يدب في مسارب من النفوس .

ولا يخلو بين الرفاق من وجود أدباء وغير أدباء من المغرمين بالقراءة ، والغرام بالقراءة داء دفين شديد التسلط على النفس لا يعرفه إلا من ابتلى به ، وإن كاتب هذه السطور مطبوع على حب القراءة كلف بها ، بل إن كلفه بها يذهب بطيب المنام من أجفانه ، ففي الصباح الباكر لا بد من المطالعة ، وفي الظهر بعد تناول طعام الغداء لا بد من المطالعة قبل الاستعداد للنوم والقيولة ، وإن لم تتيسر المطالعة فلا نوم ولا قيلول ! وفي الليل لا بد من السهر والسمر ، أما السمر فليس هو غير المطالعة وإلا فلا نوم ولا هدوء ، ورحم الله القائل :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا	لم أجد لي وافيّاً إلا الكتابا
صاحب إن عبته أو لم تعب	ليس بالواجد للصاحب عابا
كلما أخلقته جدوني	وكساني من حلي الفضل ثيابا
صحبة لم أشك منها ريبة	ووداداً لم يكلفني عتابا
رب ليل لم نقصر فيه عن	سمر طال على الصمت وطابا

كان من هم نهاري راحتي وندامى ونقلى والشرابا
 إن يمجذنى يتحدث أو يجذ مللا يطوى الأحاديث اقتضابا
 تجذ الكتب على النقد كما تجذ الأخوان صدقا وكذابا
 فتخيرها كما تختاره وادخر فى الصجب والكتب اللبابا
 صالح الأخوان يبغيك التقى ورشيد الكتب يبغيك الصوابا!

ومن المغرمين بكثرة المطالعة فى زملاء الرحلة سعادة السيد صالح شطا ، وسعادة الشيخ عبد الرؤوف الصبان ، وهذا الأخير كل ما اصططحبه معه من مكتبته الحفيلة هو قاموس المنجد ! والمنجد كفيلا بأن يقطع للقارىء فراغ شهر ، بل وفراغ عام ! أما السيد عبید مدنى الشاعر الأديب فلا شك أنه من المغرمين بالمطالعة ، ولكنها مطالعة النهار دون الليل ، إذ هو لا يقوى كثيراً على القراءة ليلاً ، ويلوح أنه لهذا السبب لم يصطحب معه غير النزر اليسير ، وهناك شيخ المغرمين بالمطالعة وفارسهم المجد ، وهو فضيلة الشيخ عبد الله الشيبى ، وغرامه بالمطالعة غرام اجتماعى طريف يلوح أنه تأثر به من الناحية التعليمية الدينية التى من دأبها أن يجلس الشيخ للقراءة الجهرية فى حلقة الدرس على مستمعيه من طلاب وغير طلاب ، ولهذا كان فضيلته لا يقرأ لنفسه بل يقرأ للجميع ، ويدعوهم إلى الإصغاء لما يقرأ ، وكثيراً ما كان السمر الممتع فى النهار أو الليل لا ينقضى إلا بحلقة واسعة يتصدرها الشيخ ويقرأ فيها ما تفرحه عليه من المواضيع أو ما تقدمه إليه من الكتب أو المجلات والصحف ، وقد يعتمد البعض إحراجه ومضايقته على سبيل الدعابة والفكاهة وقطع الوقت ، بالأسئلة المتلاحقة التى لا يكون لها أى محل من الإعراب ، بفرض استشارة الشيخ أو استفزازه والشيخ مسترسل فى قراءته ، غير متوقف فى إجاباته ولا متحرج ، مهما طالت الأسئلة ومهما كان العنت ظاهراً فيها ، وبذلك ينقضى وقت طويل من الدأوات

المطالعة أو السمر ، وهو لا يخلو من فائدة على كل حال ، وقد تتحقق تلك الفائدة إما من سماع ما في الكتاب ، وإما من جدل الأسئلة وما تؤدي إليه من الأجوبة . أما الشريف فقد كان من الذين يدرون دفة الجدل ، بكل ما يتطلبه ذلك من المهارة ، وما يحتاج إليه من أساليب المداورة والإيقاع ، ثم هو بعد انطلق شاعراً ، فكان لا يكاد يتكلم إلا بالشعر ، وتكاد كل عبارة من لسانه تجرى بشطرة من بيت أو بيت من شطرة - أرجح هذا التعبير - وكنا نهنته كثيراً بهذا الفوز العظيم وكان يداعب زملاءه الشعراء بهذه الظاهرة الرائعة ، ويقول لهم إنني سأرجع من هذه الرحلة شاعراً ، إن لم أتفوق عليكم في مراتب الشعر ، فلا أقل من أن أساويكم فيها ، أما شيخ الرواة ، وشيخ المحدثين ، فهو السيد عبد الوهاب نائب الجرم ومدير الأوقاف الذي كان عليه القسط الأوفر من السمر وإدارة الجامع ، وكان إذا تكلم أنصت الجميع ماشاء له الله أن يسترسل من الساعات قلت أو كثرت حسبما تكون عليه الظروف والمناسبات ، وذلك الإنصات في شغف ولهفة وتزيد ، بحيث لا يتطرق الملل ولا السأم إلى النفوس إلا إذا حان وقت المنصرف إلى عمل من الأعمال ، يقطع تلك السلسلة التي لا انتهاء لها !!!

أمراء آل سعود

ولقد كانت لنا جولات في زيارة حضرات أصحاب السمو الملكي أمراء آل سعود وفي مقدمتهم أخوان جلالة الملك وأنجاله وغيرهم من أمراء هذه الدوحة الزكية الكريمة . من كان منهم في روضة الخفس في معية صاحب الجلالة ، ومن لم يكن منهم في معيته تشرفنا بزيارته عند وصولنا إلى الرياض . ولا أجد أسعد من هذه المناسبة المتاحة للتحدث عن بعض حضراتهم ، بعد أن أجمت الحديث في فصل سابق عن « الأدب السعدي » إشارة إلى ما تحلوا به جميعاً من كرائم الصفات ، وجليل المآثر . ولقد كان من حسن حظي أن سعدت في بعض الظروف قبل هذه الرحلة وبعدها ، بصداقة بعض حضراتهم والتعرف الشخصي ببعضهم ، ومخالطتهم عن كثب ، فلمست فيما وجدت خير مانقع عليه عين المشاهد من مباحج القلب والنفس ، وفيما أجمت الإشارة إليه في الحديث عن الأدب السعوي ، لمحة من ذلك . ولقد كنت أزداد سعادة لو أن ظروف الماضي شرفتنني بالتعرف الشخصي ، والاتصال الكريم بحضراتهم جميعاً حتى كنت أستطيع أداء واجب الكتابة عنهم واحداً فواحداً ، حسبما أشتهى أن أظفر بتسجيله من كرائم المعلومات ، وطرائف الخبآت . فأما وأن الظروف لم تسمحني بذلك في الماضي ، فالأمل - إن شاء الله - أن يصلح العطار ما أفسد الدهر ، وأن أظفر من أمانى بما أريد ، وليس ذلك على الله ببعيد !! على أن الذى أريده من وراء ذلك ليس سوى تسجيل ما أسلفت الإشارة إليه من مواضع القدوة في خلقهم الكريم ، وتدارك ما فاتني تعرفه في بعضهم فيما تقدم من الأيام .

الأمير عبد الله بن عبد الرحمن

ومن أبرز أمراء آل سعود ، سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، أخو جلالة الملك المعظم ، وهو أمير مرموق المسكنة ، ملحوظ العناية ، بارز الصفات ، قوى الشخصية ، وله علاوة على هذه الميزات التي حباها الله وجمّله بها ، صفات أخرى جليلة القدر ، لمسكانته العلمية ، وشغفه بالعلم ، فهو واسع الاطلاع ملم بشؤون الدنيا ، بصير بأمور الحياة ، وله مكانة مهيبة موقرة . سألت سموه مرة عن إحدى المجالات وعمّا إذا كان يطلع عليها ويقرأها ، فتفضل بإجابة زادت معرفتي بتقديره للعلم والمطالعة المثمرة المفيدة ، حيث قال ما معناه : إنه لا يطلع إلا صفوة مختارة من الصحف لأن وقته لا يتسع لقراءتها جميعها ذلك بأن الصحف فيها ما فيها من الغث والسمين فلو عني بمطالعها كلها لما وجد وقتاً لمطالعة الكتب المختارة التي تحمل رياض العلم وأفانين المعرفة ! وقد عرف واشتهر عن سموه أنه شغوف بالمطالعة والقراءة والاطلاع ، ولكن على كل نافع مختار من الكتب ، لا على كل ما يطبع وينشر !! ولسموه مكتبة حافلة يعنى بها عناية خاصة جعلت لها مكانتها وتقديرها .

وجلالة الملك يحبه ويقدره ، ويقدر فيه الصفات الآتفة الذكر ، ولذلك قلما تراه يفارق مجلس جلالاته في الحل والترحال . ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء فهد ، وسعد ، ومصعب ، وفيصل ، يزيد ، ومحمد ، وعبد الرحمن ، وخالد ، وسعود ، وبندر .

أنجال جلالة الملك

وأنجال جلالة الملك حفظه الله ، وأطال في حياتهم في ظل جلالاته ، هم حضرات أصحاب السمو الملكي حسب ترتيب أعمارهم :

سمود . فيصل . محمد . خالد . ناصر . سعد . منصور . فهد . عبد الله . بندر .
مسعود . عبد المحسن . مشعل . سلطان . عبد الرحمن . متعب . مشاري . طلال .
بدر . تركي . نواف . نايف . فواز . سلمان . ماجد . تامر . عبد الإله . أحمد . سظام
ممدوح . هذلول . عبد المجيد . مقرن .

الأمير سعود ولي العهد

والأمير سعود هو النجل الأول لصاحب الجلالة ، وهو ولي عهد المملكة العربية
السعودية ، وسموه معروف للعالمين العربي والأوربي ، أولاً لأن كبراء المسلمين الذين
زاروا البلاد المقدسة تشرفوا بمعرفة سموه في تلك البلاد أثناء حجهم ، وثانياً فإن
سموه زار الهند والبلاد الأوربية مرات تشرف أثناءها كثير من ساسة العالم وكبار
رجاله بمعرفة سموه معرفة وثيقة عن كثر ، وقد لمسوا فيه ما يعرفه الجميع عن دماثة
خلقه الكريم ، وسعة اطلاعه ، وكريم صفاته ، بما هو مطبوع به على فطرة جلالته
والده العظيم ، وقد ألمحنا في فصل سابق ببعض الصفات الكريمة التي يتحل بها خلقه
الكريم . ولسموه من الأنجال أصحاب السمو الأمراء عبد الرحمن ، ومحمد ، وخالد ،
وفهد ، وسعد ، وفیصل .

الأمير فيصل نائب جلالة الملك

والأمير فيصل هو النجل الثاني لصاحب الجلالة ، وهو نائب جلالته في الحجاز ،
ورئيس مجلس الوكلاء ، ووزير الخارجية ، ورئيس مجلس الشورى . وقد أسبغ الله
على سموه من مكارم الأخلاق الشيء الذي لا يبلغه وصف كاتب ولا بلاغة بيان ؛ ولقد
انعمد إجماع القلوب على محبته وتقديره ، والنظر إليه نظرة الاطمئنان ، والوثوق

بمدله وعطفه بما لم يسبق أن ظفر به حاكم من قبل ، ذلك علاوة على ما حباه الله من العلم والثقافة والمعرفة وسعة الاطلاع وحسن البصر بالأمور وهى صفات جعلته موضع إعجاب كل من رآه فى العالمين العربى والأوروبى ، وقد زار سموه البلاد العربية والأوربية مراراً عديدة كان فى كل مرة منها قطب الرحى وملقى المجمع ، وكعبة الآراء . ولسموه من الأنجال الأمراء ، عبد الله ، ومحمد ، وسعود ، وخالد ، وفهد ، وعبد الرحمن ، وخالد ، وسعد ، وبندر .

الأمير محمد بن عبد العزيز

والأمير محمد ، ثالث أنجال صاحب الجلالة ، وهو يحمل لقب « أمير المدينة » وسموه من أبرز أمراء آل سعود وله من صفات من إخوته ما أثر عنهم من كريم الخصال وجليل الصفات ، وكما أن سموه عرف بالفروسية وله ولع خاص بركوب الخيل ، عرف بالشجاعة والإقدام والحزم وأصالة رأى . وقد قام سموه برحلة إلى اليمن فى سفارة خاصة موفداً من قبل حضرة صاحب الجلالة والده العظيم فى شهر صفر من عام ١٣٥٩ هجرية مارس سنة ١٩٤٠ . وقد قدم من نجد إلى مكة فى ذلك التاريخ فاحتفى بمقدمه الكريم وأقيم لاستقباله احتفال جليل أقيمت فيه القصائد الآتية :

مشى (الرياض) وماست (البطحاء)	وهفت إليك بقلها (صنعاء)
واستبشرت بك فى (السفارة) أمة	يحدو أمانها - الجسام - رجاء
هى فى يديك أمانة - مرموقة	تشدو بها الأجيال والآناء
فاسلك طريقك واستبق فى حلبة	فيمها الهدى والعزة القمساء
وأفض هنالك بالحديث مودة	تشذى بها الأصقاع والأرجاء
واشد من (القربى) وشائج وصلها	واسطع فانك كوكب وضاء
وخذ القلوب فأنت بين صميمها	ولنحن بين يدي رضاك فداء
وأشد صروح الحب بين جوانح	هى (للعروبة) كلها - أحشاء

وانعم وعد للشعب أعظم وافد
وعليك من (سر الأبوة) مظهر
عاش الأمير ابن المليك (محمد)
وليحيى للإسلام ملجأ أهله
مكة في ٤ صفر ١٣٥٩
أصحمر إبراهيم الفزاوى

قدمت فهذا الشعب بالبشر يخفق
تطالعه من حسن لقياك بهجة
فن في جوار البيت نحوك شيق
وما نحن إلا أمة عربية
وما نحن إلا أمة عربية
وما نحن إلا ذلك الجسد الذى
يرف عليه اليمن منك ويشرق
يزيد سناها ضوؤك المتألق
ومن فى ربى نجد وصنعاء شيق
يؤلفها دين وأرض ومنطق
تألفها جسم وروح ومفرق
إذا ما اشتكى عضو يعيد ويطلق

فسر لبلاد سوف تلقى بساحها
إلى الجيرة الأدين والاخوة الألى
وهل فى صلات الود أوكد غاية
فبإغ إلى الشعب الشقيق تحية
فأنت رسول الخير ما بين أمة
وأنت ابن ذيك المليك وشبهه
مكة فى ٤ صفر ١٣٥٩
فؤاد ساكر

وقام سموه بمهام هذه السفارة خير قيام وعاد منها عودة كريمة فاستقبل في الحجاز
بمفاوة بالغة كبرى وأقيم لاستقباله حفل جامع مشهود ، أقيمت فيه القصائد الآتية :

يا قادمًا - ويد الرحمن - تكاؤه والشعب يرمقه ، والعين والأذن !!
ويابن من لو هتفنا باسمه شرفا تلفت الدهر - عجبا - وهو مفتن !!
ويا أخا كل منصور - بفيلقه بك (الحجاز) تهادى وازدهى (اليمين) !!
إني شهدتك في (صنعاء) من أمم حيث المسكارم في أكنافها سنن !!
وبين برديك من (عبد العزيز) فتى تميد من حوله الدنيا ويترن !!

بلغتها وهى - نشوى - أن تراك بها وفى ربها لمن يهفو لها سكن !!
فبادلتك سلاف الود صافية كؤوسه وهو فى الأعماق - مكتمن !!

واليوم ترنو لك الأبصار شاخصة و(الدين) و(المجد) و(التاريخ) و(الوطن)
رفت عليك - ولما تدر - أفئدة تكاد من وجدها تجرى بها السفن !!
ظلت تواكب سيف البحر حائمة من (اليمامة) حتى استبشرت (عدن) !!
ترود فيك (الرياض أُلحوا) خافقة وفى يمينك من أعراقها رَسَنُ !!
فلم تغب عن قلوب فى جوانحها حلت منذ تجلى وجهك الحسن !!

فاستنطق الأفق يشهد أنها انطلقت وكلها لك فى أسرارها منن !!
وانظر إلى أمة خفت إليك ضحى كانك الشمس فى أعقابها الزمن !!
مشت إليك بها الأرواح شادية كأنما هى طير شاقه الفنن !!

ودت لو أنك تجزيها بما احتملت فيك (الإقامة) مما شفها (الظمن) !!
وقد وعدت فأنجز فيك مأملها فبا لو عدك مهما سمته - ثمن !!
واسكب عليها ضياء منك تقبسه حتى تفيض به الأرجاء والمدن !!
واقبل تهاثفا كالروض رق به حب الغمام - فراق الزهر والغصن

وأبلغ (ملاذ بنى عدنان) قاطبة تحية مأوها الإخلاص والشجن
تأرجت بمبير الشوق - عابقة بها الشواطىء و (الدارات) والقفن
ترجى من الشوق آيات مرتلة كما صفا الطل وانملت به المزن
وقل هنالك فى (أم القرى) شغف هيهات يحكى مدى استشرافه (حضن)
تنافس القوم فيه واستووا فرقا كما استوى فى هواك السر والعلن !!
لا زلت ترفل فى النماء وارفة ظلالتها - وبك التوفيق - مقترن !!
مكة المكرمة ١٣٥٩/٣/١٠
أحمد إبراهيم الغزاوى

أقبلت وضّاح الجبين كالليث يخطر فى العرين
متהל القسمات فى وضّح من البشر المبين
أدبت حق « سفارة » عزت نفوس المخلصين
أنعم بشخصك من وفى فى سفارته أمين
أدى الرسالة حقها أو زاد فيها ما بين
شأن الرزين إذا انبرى لرسالة الرأى الرزين

أرأيت يا مولاي من صور تبدت لليقين ؟
 أرأيت من صدق الولاء وصدق مبعثه المبين ؟
 هو ذاك بعض ولأء شعب في محبته أمين
 فلأنت منه في الجوانح كامن أو في العيون
 هو في محبته لعرش أبيك محمى القرين
 أولاء محض الود والا خلاص والحب المكين

أولست غصنا مثمرآ في دوحة الملك الأمين ؟
 وابن المليك المفتدى وأخا الزجال النابهن ؟
 عبيد العزيز وحسبه ما فيه من تقوى ودين !
 عبيد العزيز وحسبه أنجاله في المتقين
 أنعم به وبهم حما ة العدل في البلد الأمين
 دامت مفاخره مؤ يدة على مر السنين

فؤاد ساكر

١٠ ربيع الأول ١٣٥٩

وقد عطينا بإثبات هذه الأبيات لما فيها من التعبير الصحيح الصادق عن صفات
 الأمير محمد ونبل سجاياه . وهو تعبير غاية في الاقتصاد . ولسموه من الأنجال الأمراء
 فهد ، وبندر ، وعبد الله . ونجله الأمير فهد هو أكبر أنجاله وهو أمير مذهب مثقف
 له شغف بطلب العلم والمطالعة ، دائب القراءة والاطلاع على الصحف والمجلات
 والاتصال بالعالم وله منزلة أدبية علمية خاصة .

الأمير خالد بن عبد العزيز

والأمير خالد بن عبد العزيز هو النجل الرابع لجلالة الملك وهو من أبرز أنجال جلالته ، وهو كإخوانه الأمراء في المعرفة والثقافة وسعة الاطلاع ، وقد سبق له أن زار البلاد الأوربية والأمريكية مع أخيه الأمير فيصل ، كما سبق له أن تولى الوكالة عن نائب جلالة الملك في الحجاز في إحدى رحلات سموه إلى خارج المملكة وهو أمير محبوب لما امتاز به من رقة الخلق وعلو الهمة، وله من الأبناء الأمراء عبد الله وبندر .

الأمير ناصر بن عبد العزيز

والأمير ناصر هو النجل الخامس لجلالة الملك ، وهو من أبرز أنجال جلالته ، ويتولى سموه أمارة الرياض عاصمة نجد وهو أمير جليل مرموق المكانة ويشارك إخوانه الأمراء في السمات التي اتصفوا بها من المكارم وجيل الصفات ولسموه من الأبناء الأمراء سعد وخالد وسعود وبندر .

الأمير سعد بن عبد العزيز

والأمير سعد بن عبد العزيز هو النجل السادس لصاحب الجلالة ، وهو أمير جليل الصفات ، له من صفات آل سعود ما عرفوا به من مكارم الخلق وعلو المكانة وجلال القدر ، وهو من أبرز أنجال صاحب الجلالة ، وله نجل هو الأمير فهد .

الأمير منصور بن عبد العزيز

والأمير منصور بن عبد العزيز هو النجل السابع لجلالة الملك ، وقد عرف سموه



حضرة صاحب السمو الملكي الفريق الأول الأمير منصور وزير الدفاع
في ملابسه العسكرية

لجميع سكان الماسكة العربية لما اشتهر به من الصفات الجليلة المهيمة الكريمة ، وأهمها الشجاعة والإقدام وحسن الرأي ، وقد أسند إليه صاحب الجلالة ، منصب وزير الدفاع في عام ١٣٦٣ هجرية ، فقام بأعباء هذا المنصب خير قيام ، ونهض بوزارة الدفاع نهضة حيوية كبرى حتى دبت فيها روح النشاط ، وأخذت مكانتها اللائقة بها ، ويعود الفضل في ذلك إلى نشاط سموه وإقدامه وحمته العالية . وفي عام ١٣٦٤ هـ أسند إليه صاحب الجلالة رتبة « الفريق الأول » فكان جديراً بأن تزدان بسموه هذه الرتبة ، كما ازدانت به من قبل مرتبة الوزارة . وفي خلال هذين العامين ، سافر سمو الأمير فيصل إلى أمريكا وأوروبا في رحلات متعاقبة عديدة ، فقام سموه بالوكالة عن نائب جلالة الملك خير قيام ، ونهض بأعباء الحكم في الحجاز وإدارة دفة الأمور على أحسن وجه وأكرم منوال ، حتى حاز سموه الإعجاب من جميع الطبقات ، واستولى على الأبواب بما أبداه من الحفكة والرزانة وحسن البصر بالأمور ، وذلك كله إلى جانب عمله الآخر في وزارة الدفاع ، وإلى جانب خدمته كابن لوالده صاحب الجلالة مدة وجوده في الحجاز أيام الحج . ولقد استولى الأمير منصور على القلوب إلى جانب استيلائه على العقول بما ظفر به من محبة بمد ما ظفر به من إعجاب ، وإن من أروع ما يثلج صدر كل مؤمن مخلص أن يرى الأمراء أبناء جلالة الملك موضع تقدير الناس وحبهم بما ينتزعونه بأعمالهم ومجهودهم من ذلك التقدير وذلك الحب ، وإنهم لجديرون كل الجدارة بذلك ، بانتسابهم إلى صاحب الجلالة ، وبأعمالهم الحميدة الخالدة ، وصفاتهم الطريفة التالدة .

وقد سافر سموه إلى الهند وفلسطين وسوريا ومصر ، وكان في كل مكان زاره موضع الإعجاب والتقدير .

وفي اليوم الذي تولى فيه سموه أعمال الوكالة عن نائب جلالة الملك ، أقيمت حفلة

بعد صلاة الجمعة في دار الحكومة أنشد فيها الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي بين يدي
سموه الأبيات الآتية :

(منصور) يا ابن (أبي الصقور) وأخا البواشق والنسور
أنتم كواكبنا التي يزهر بها فلك العصور
من غاب منكم لم يغب إلا ايطلع في (حبور)
غمر (التفاؤل) أمة بسماها تبدو (البدور)
نرجو لك التوفيق في ما تصطفيه من الأمور

وقد عقب فضيلة الشيخ عبد الله الشبيبي ، فاتح بيت الله الحرام ، وعضو مجلس
الشورى على ما تقدم بالكلمة النفيسة الآتية التي اشتملت على وصف صادق لكثير من
سمات الأمير وخصاله .

يا سمو الأمير

«مهما أحسن الناظم ومهما أسهب الناثر فإنه لا يبلغ بإحسانه وإسهابه ما تحلّيت به
من خلق كريم وسجايأ عالية ، وإننا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتولى إعانتكم
وتوفيقكم ، وأن يحفظ للجميع حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم وسمو
أنجاله الأشاوس .

يا سمو الأمير المحبوب

«لقد جبلك الله على الطلاقة والبشر ، وآتاك إلى ذلك العزم المدرع ، والقلب
المطمئن المشيع ، ووهبك الذكاء النادر ، والشجاعة الخارقة ، والإيمان الصادق ،
واليقين الثابت ؛ تلك الأخلاق القويمة الممتازة التي هي غرة في سجل المفاخر ، والتي
تضئ بها آفاق الجزيرة العربية .

«وأى غريب في ذلك وأنت ابن (عبد العزيز) إنما أنت وأخوتك الأشاوس سر

أيك المفدى ، ذلك الأسد المصور الرابض على آجامنا ، والمتغلغل حبه في صميم أفئدتنا وأعماق أكبادنا .

«إننا لنشعر بالغبطة تملأ قلوبنا حينما نرى سموكم تنهضون بالأعباء الكبيرة والمهام الخطيرة ، وتقيمون البرهان تلو البرهان ، والدليل إثر الدليل على عظيم استعدادكم لممارسة الشئون العامة ، وكل ما فيه خير البلاد وسعادتها .

«ياسمو الأمير إننا في الوقت الذى نشعر فيه بأشجان الفراق تعتلج بين جوانحنا بمغادرة سمو أحيكم المعظم النائب العام كلاًه الله وربكه المحروس بعنايته الصمدية، لتعترينا هزة من الفخر والزهو والارتياح انكم تسدون مكانه وتملأون الفراغ الذى يحدثه غياب سموه ، وتثبتون للشعب قاطبة أنكم لاتدخرون وسعاً في احتمال المشاق ، وتذليل الصعاب في سبيل إنعاشه وإنهاضه وسعادته» .

وفي اليوم الذى أسفدت فيه إلى سموه وزارة الدفاع أنشدت بين يدى سموه الأبيات الآتية :

بمثلك تُزدهى رُتب المعالى	وزير الشرفية والعوالى
وباسمك وهو منصور مفدى	تُرزَل في الوغى صُمم الجبال
ومالى لا أقلد جيد شعرى	ثناءك وهو من أغلا الآلى
وأنت ابن المليك وخير مَلِك	أنى في عصره نخر الأوالى
وأنت أخو البطولة من (سعود)	(وفیصل) والشبولة في السكال
ومن (عبد العزيز) له مثال	له من مجده أعلا مثال

فؤاد ساكر

١٤ محرم سنة ١٣٦٤

وفي اليوم الذى أسفدت إلى سموه رتبة الفريق الأول ، ألقىت بين يدى سموه هذه الأبيات :

بك ازدهت في ذرى عليها الرتبُ كما ازدهى بك في أمجاده الحسبُ
 فاهناً بأنك « منصور » وقد ضمنت لك السعادة باسم الله والغلبُ
 قيل الفريق : فقلنا أي مرتبة تدنو إليك وقد زينت بك الرتبُ
 نيّطت بمجدك أمجاد مؤثلة تطلعت نحوها من أفقها العربُ
 ألت شبل أبي الأشبال قاطبة حامى العرين ومنه المعقل الأشبُ!
 هو المليك لأهل الضاد أجمعهم وإنه لهمو في الحادثات أبُ
 ١٨ الحجة ١٣٦٤ فؤاد شاكر

الأمير فهد بن عبد العزيز

والأمير فهد بن عبد العزيز ، هو النجل الثامن لجلالة الملك ، وهو أمير رقيق الحاشية رشيق يشترك مع إخوانه الأمراء في صفات من المحامد وكريم الخصال ، هي من ميزات هذه الأسرة الكريمة ، وهو كثير الحياء ، شديد الخفر ، وسيم الطلعة كأخوانه الأمراء ، وقد سبق له أن سافر إلى أمريكا وأوربا في رحلة مع سمو الأمير فيصل وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير عبد الله بن عبد العزيز

والأمير عبد الله بن عبد العزيز هو النجل التاسع لجلالته ، وهو من الأمراء المحبوبين ، وهو يشترك مع أخوانه الأمراء في تلك الصفات الجليلة التي هي ميزات هذه الأسرة الكريمة ، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى جلالة الملك فاروق الأول إلى سموه الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير بندر بن عبد العزيز

والأمير بندر بن عبد العزيز ، النجل العاشر لصاحب الجلالة من أذكي الأمراء يتحلى بصفات كريهة هي من ميزات أسرة آل سعود ، وكان في معية جلالته والده المعظم في زيارته لمصر في هذا العام ١٣٦٤ . وأهدى إلى سموه جلالته الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير مساعد بن عبد العزيز

والأمير مساعد بن عبد العزيز ، أمير له مكانة أدبية خاصة وقد برز في عالم الأدب وبلغ فيه درجة رفيعة ، وهو كثير الشغف بالمطالعة والقراءة والدراسات الأدبية ، كما أن له صلة بالعالم عن طريق المنبر العام الذي هو منبر الصحافة ، إذ أن سموه مشترك في كثير منها وتصل إليه أعدادها بانتظام ، ولسموه اهتمام كبير بمسيرة شؤون العالم لما وهبه الله من سعة المدارك ، وعلو الهمة ، والشغف بالعلم والتعليم ، فهو ملم بأمور الدنيا لا تسكاد تفوته من أحوالها شاردة ولا واردة . وقد سافر إلى مصر في معية جلالته والده المعظم ، وأهدى إليه جلالته الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز

والأمير عبد المحسن النجل الثاني عشر لصاحب الجلالة ، وهو أمير رقيق الحاشية مهذب ، يتجمل بمكارم الأخلاق ، وله شغف خاص بالأدب ، كثير الاطلاع ، ذلك إلى جانب ميزات الأخرى في الصفات المشتركة التي يتحلى بها أمراء آل سعود . وقد

زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول
الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير مشعل بن عبد العزيز

والأمير مشعل بن عبد العزيز من الأمراء الذين يتمتعون بكرم الخلال ، وحيد
الخصال ، وهو كغيره من أخوانه الأمراء الذين انعقدت القلوب على حبهم لما حباهم
الله به من نادر الصفات ، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه
جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير سلطان بن عبد العزيز

والأمير سلطان بن عبد العزيز ، أمير مهذب ، رقيق الحاشية ، كثير الاطلاع ،
شغوف بالعلم ، واسع المعرفة ، وله من صفات إخوانه الأمراء كريم الخصال التي يتميز بها
أمراء آل سعود ، وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه
جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل .

الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز

والأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز من الأمراء الأمثال الذين حباهم الله مكارم
الأخلاق ، وجميل الصفات ، وهو كأخوانه الأمراء في رقة الحاشية ، وعلو الهمة ،
وكرم الشامل .

الأمير متعب بن عبد العزيز

والأمير متعب بن عبد العزيز ، أمير مهذب ، كريم الخلق ، رقيق الحاشية . وقد زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل ، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما حباهم الله من جلائل الخصال .

الأمير مشارى بن عبد العزيز

والأمير مشارى بن عبد العزيز من الأمراء الأماثل الذين امتازوا بالخلق الكريم وهو كأخوانه يتمتع بما وهبهم الله من جلائل الصفات ، وحلاوة السمائل .

الأمير طلال بن عبد العزيز

والأمير طلال بن عبد العزيز من الأمراء المحبوبين ، وهو يشارك إخوانه الأمراء فيما منحهم الله من الخلق العالى الكريم ، وقد زار مصر عام ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ثم زارها مرة أخرى في معية جلالة والده الملك المعظم في هذا العام ١٣٦٤ ، وأهدى إليه جلالة الملك فاروق الأول الوشاح الأكبر من نيشان النيل ، ولسموه مكانة خاصة في جميع الأوساط التي تشرفت بمعرفته ، فقد حاز الإعجاب ، واستولى على الأبواب بما في شمائله من مكارم ، وبما في أخلاقه من صفات .

الأمير بدر والأمير تركى ابنا عبد العزيز

والأمير بدر والأمير تركى من أنجال جلالة الملك المعظم وهم كأخوانهم الأمراء في مكارم الأخلاق ، وكريم الصفات .

الأمير نواف بن عبد العزيز

والأمير نواف بن عبد العزيز من أصغر الأمراء سنًا ولكنه رغم حداثة على جانب كبير من الذكاء والتعليم وقد زار أمريكا في معية سمو الأمير فيصل ، ثم زار مصر في معية جلالة والده الملك المعظم وأهدى إليه جلالة الملك فاروق ، الوشاح الأكبر من نيشان النيل ، وهو أمير محبوب من كل من رآه .

الأمير عبد الله الفيصل

وفي ذات صباح ، استيقظنا فإذا بشير يقول لنا إن الأمير عبد الله الفيصل قد وصل ، وكانت بشرى يا لها من بشرى ! فمن هو الأمير عبد الله الفيصل ؟ ! أنه الأمير الشاب المحبوب الذي نعرفه كلنا في مكة ، ولنا به صلات محبة ومودة وإكبار وتقدير ، وإنه نجل الأمير فيصل وكفى !! فلا عجب أن يغمرنا السرور ويفيض علينا البشر والفرح لتقديم هذا الأمير المحبوب .

وبادرنا بالسؤال عن مكان نزله من الخيام وتوجهنا بجملةنا إليه ، للسلام والتزود من اجتلاء طلعتة الكريمة المشرقة فأسبغ علينا من عطفه وآدابه ما كنا نعرفه فيه من قبل ومن بعد .

والأمير عبد الله الفيصل ، شاب محبوب لما فيه من صفات هي الرجولة بعينها ، فهو رغم حداثة سنه على جانب كبير من العلم والمعرفة والذكاء واليقظة ، وقد تعلم التعليم المنظم وكان مثال الجد والمثابرة والاجتهاد ولهذا قدّر الله له النجاح ، وساعده ذكاؤه الفطري على استغلال تعليمه في توسيع مداركه الذهنية والثقافية ، وبذلك صار رجلا وإن لم يبلغ سن الشباب ، فهو يواصل أكبر الرجال في أعظم المجالس ، ويدير دفة

الأحاديث مهما كان نوعها ومراميتها ومباحثها ، ولا يسع جليسه إلا أن يشعر بأنه في حضرة رجل واسع المعرفة قوى الحججة ، عالم بشؤون بلاده ، عالم بشؤون العالم وما يدور فيه ، وله ولع بسباق الخيل وركوبها فهو فارس مغوار لا يشق له غبار ويعرف الخيل جيادها وأصائلها وأنسابها ، والفروسية صفة من صفات العرب ، وعادة من خير عاداتهم ، وهي في هذا الأمير الشاب من أظهر ميزاته .

فالأمير عبد الله نابغة الشباب وزيتهم ، بمسا حباه الله من كريم الصفات الآنفة الذكر ، وما جمع حوله من محبة القلوب وتقديرها ، وحسب هذا الشبل أن يكون وليد ذاك الأسد ، وحسب العرين الذي أنجب أباه ، أن يكون من نجبائه عبد الله ! وقد زار سموه مصر وأوروبا وأمريكا في عام ١٣٦٣ ، كما أنه تولى الوكالة عن نائب جلالة الملك المعظم - سمو والده الأمير فيصل - في غيابه وقام بأعباء الحكم خير قيام .

الأمير سعود بن سعد

قات في مقدمة الحديث عن أمراء آل سعود إنني لم يسعدني الحظ بشرف التعرف إلى جميع أصحاب السمو الأمراء ، فإذا قصرت في الحديث عن بعضهم فليس ذلك إلا إلى الفرصة السعيدة القريبة التي تتيح لي شرف الصلة بهم جميعاً إن شاء الله . ومن أبرز أمراء آل سعود سمو الأمير سعود بن سعد ، ابن أخي جلالة الملك ، فقد عرف سموه بالأدب الرفيع الذي هو أبرز صفات أسرة آل سعود ولسموه مكانة محبوبة مرموقة ذلك إلى جانب ما أغدقه الله عليه من نعمة العلم والمعرفة والذكاء وسعة الاطلاع . وقد زار سموه القطر المصري في عام ١٣٦٣ هجرية واحتفى به الحفاوة اللائقة بمقامه الرفيع ، وكان كاتب هذه السطور ممن أتيج له المساهمة في تكريمه بمصر بالآيات الآتية .

سعود ، ومن في وجهه السعد يشرق ومن مجده فوق الأهلة يخفق

أنت سليل المجد في الدوحة التي بها كل قلب في العروبة يعلق ؟ !

سليلى بنى آل السعود من الالى تعالى بهم فى الأفق نجم محلى
 يشار إليهم بالبنان إذا بدت مطالعهم خفافة تتألق
 نزلت بوادى النيل أكرم منزل فلاح عليه من روائك رونق
 ففى كل ناد من لقائك بهجة وكل فؤاد نحو رؤياك شيق
 تركت به آثارك الغر تقتفى تلوح على أفق البلاد وتعبق
 فإن كان فى الغادين من هو قاصد إلى المجد سباقاً ، فإنك أسبق

وأقام لسموه صاحب السعادة الفريق محمد حيدر باشا وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية
 للسجون المصرية ، وياور جلالة الملك فاروق ، حفلة تكريم كبرى فى « إصلاحية
 البنات بالجيزة - بمصر » ، أنشد فى ختامها كاتب هذه السطور الأبيات الآتية :

حفلة أشرقت سناً وسناء وسمت بهجة وعمت ضياء
 شع منها الإصلاح نوراً قيماً ملأ الخافقين روعة وبهاء
 بات فيها الأحداث أبهج حالاً من سواهم سعادة ورواء
 كم سمعنا عنها وكم قد سمعنا ورأينا بخل ما قد تراءى
 قام بالفضل فى البناء عظيم خير من شاد للعقول البناء
 «حيدر» وهو كاسمه ليث غاب أكسب الغاب منعة وإباء
 كم يد منك فى القلوب توالى كندى الروض بهجة وسناء
 فإذا ما كرمت آل سـعـود فى أمير يمثـل الأمراء

فى سعود سليل قوم كرام ملكوا الدهر عزة رفعا
 فلك الفضل أولاً وأخيراً وتقبل مع على الصنيع الثناء
 وتقبل شكر الأمير كريماً فعسى الشكر أن يفيك الجزاء

المأدبة الملكية الكبرى

وبينا كنا في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في ذات صباح ، تفضل جلالته فقال لنا « نريدكم أن تتناولوا معنا طعام العشاء الليلة » فتقبلنا من جلالته هذه الدعوة الكريمة بالابتهاج والشكر والدعاء ، وبعد أصيل اليوم المذكور غادرنا مخيامنا إلى مخيام معالي وزير المالية لند الزيادة لمعاليه فتفضل باستقبالنا وإكرام وفادتنا وقضينا عنده ساعة وبعد أن أدينا صلاة المغرب معاً توجهنا إلى المخيام الخاص لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حيث كان ثمة مقر المأدبة الملكية التي تفضل جلالته بدعوتنا إليها . وصلنا إلى مخيام جلالته وكان الوقت ليلاً ، والمخيام الخاص كالمخيام العام ، كلاهما مضاء بالكهرباء ، ولكن المخيام الخاص يمتاز بجمال موقعه لأنه اختير مقراً هادئاً ، ومكاناً لاستجمام حضرة صاحب الجلالة ، فهو بالجلمة عرين الأسد ومجمع آجابه ، وتقوم حوله سلسلة من الرياض المشوشبة السندسية النضرة التي تهيج النفس وتشرح الصدر ، واقتادنا رجال حاشية جلالته إلى الخيمة الخاصة التي كان جلالته فيها ، فرأينا ويحسن ما رأينا من منظر عجب أبهج نفوسنا وشرح صدورنا ورسخ في أذهاننا رسوخاً لا يبارح خيالها إلى آخر الدهر .

فقد تشرفنا بالدخول إلى خيمة جلالته الخاصة ، وهي عبارة عن قصر جيد التقسيم ، وأقسم أننا طيلة المدة التي مكثناها في تلك الخيمة الخاصة لم نشعر أننا في صحراء ونسينا أننا في بادية أو روضة ، وسبح بنا خيالنا كأننا في قصر منيف عامر البنيان رائع التقسيم .

دخلنا إلى الخيمة الملكية وهي عبارة عن خيمة فسيحة الأرجاء قد قسّمت إلى غرف صغيرة متناسقة في الجمال والترتيب وحسن الذوق ، فأول ما يصادف الداخل

ردهة صغيرة ، ثم ممشى آخر يفضى إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة ، وهى خيمة جمعت أسمى معانى حسن الذوق والترتيب والجمال مع البساطة الخالية من التعقيد إذ ليس فيها شئ من زخرف الدنيا ولا من غريب المتاع ، وكل ما هنالك ذوق جميل وبساطة جميلة وتنسيق رائع ، دخلنا الخيمة فإذا الأسد يستقبلنا كمادة جلالته واقفاً فتشرفنا بالسلام على جلالته ثم دعانا إلى الجلوس فأخذنا أما كننا على كراسى منضدة فى جوانب المسكن ، وكان لجلالته فى هذه الخيمة مقعدان لجلوسه ، أحدهما أرضى لا يمتاز عن غيره من فراش الخيمة إلا بسجادة صغيرة نفيسة ومتكأ أعد بجانب تلك السجادة ، والمقعد الآخر علوى مرتفع ، وهو عبارة عن كرسى مستطيل نفيس فرش بسجادة نفيسة ومتكأ نفيس . وقد تفضل جلالته لجلس على أحد الكراسى ولم يأخذ لنفسه مكاناً خاصاً من ذينك المسكنين اللذين وضع إلى جانب كل منهما لمبة كهرباء صغيرة أعدت للقراءة ، ويلوح أن جلالته يستعملها حين يطالع شيئاً أو يعرض عليه شئ .

وكان منظر الخيمة من الداخل بهيجاً شائقاً بما امتازت به من جو خيالى بديع ، فقد أضيتت بثريات الكهرباء العديدة المتناثرة وأطلقت على تلك الأنوار غيوم بديعة وسحب رقيقة من الدخان ! ولكن أى دخان ؟! ذلك هو الدخان الذى كان نوراً ساطعاً فى العين ، وعبقاً ذكياً فى الأنف ، وبهجة رائعة فى النفس ، هو دخان البخور بخور العنبر المحترق فى مباخر العود والند .

وقد أضفى ذلك الجو الخيالى البديع الشائق لوناً من البهجة والحبور ، لا نعرف لسروره مأتى ولا تعليلاً ، وسبحنا معه فى تلك النعمة الوارفة كأننا فى حلم لم نستفق منه إلا بمفادرتنا ذلك المسكن ، وقضينا لحظات ممتعة لانبسبها من العمر فى ذلك المسكن العامر الحفيل بالنشوة ، وكان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، يتمتع الحاضرين بطرف رائعة من نكاته العذبة ومداعباته الطريفة مما زاد فى جو المسكن

أنساً وجوراً ، وأضفى عليه موجة فياضة من البشر والسرور . وبعد أن قضينا مدة ثلاثين دقيقة في الخيمة الملكية الخاصة نهض جلالتهم قاصداً إلى غرفة الطعام - أو خيمته على الأصح - ونحن في معية جلالتهم . وكانت الغرفة أو الخيمة عبارة عن سرادق كبير ، تفاعرت فيه موائد الطعام على نسق ما يفعل الأوروبيون في أرقى حفلاتهم والفارق الوحيد بين هذه وتلك ، أن موائدنا هنا كانت مبسوطة على الأرض حيث يجلس إليها بحرية لانتشوبها رذائل الكفاة والتقييد ، سوى ما تقضى به الآداب الإسلامية من قواعد هي جزء من سجية النفس وفطرتها ، فلا تكلف فيها ولا إعانات ! وتفضل جلالتهم فتصدر المائدة الرئيسية ، أو لعلها إحدى الموائد ، ولكن يجلس جلالتهم إليها امتازت بشرف الرئاسة والصدارة حيث لا فارق مطلقاً بين الموائد لا في ألوانها ولا في محتوياتها ، وترأس أصحاب السمو الملكي الأمراء أنجال جلالتهم بقية الموائد الأخرى ، وتفرق أعضاء الوفد ورجال الحاشية وكبار موظفي ديوانه على الموائد من غير تفريق ولا تمييز حسبما اتفق ، وتناول الجميع الطعام هنيئاً مريئاً ، وكان عبارة عن قصاع كبيرة من الأرز والثريد واللحم الضأن ، ونثرت من حولها صحاف الآدام المختلف الألوان ، وصحاف الحلوى ، وغيرها من الأطعمة ، وبعد الفراغ من تناول الطعام ، نهض جلالتهم وتبعه الحاضرون ففسلوا أيديهم ثم قصدوا إلى الخيمة الملكية الخاصة حيث أديرت عليهم أكواب القهوة العربية الشهية . وقد تشرفنا بالجلوس في حضرة جلالتهم عشرين دقيقة أخرى استمعنا في خلالها إلى ما كان ينثره من روائع الكلام وجوامع الحكم ، ثم التمسنا الإذن بالانصراف ونهضنا مكررين السلام على جلالتهم رافعين أبلغ الشكر وأخلص الدعاء على ذلك المطف السامي الذي لا يقدر . وكانت هذه الحفلة بما تقدم وصفه من روعتها وبهجتها موضع سمر القوم وحديثهم تلك الليلة ، ثم موضع سمرهم وأحاديثهم كلما استثارت النفس ذكريات رحلة الربيع ، وهي شيء خالد بخلود النفوس لا يبرح خيالها مادامت الأرواح تحف في الأجسام والقلوب تنبض بدقات الحياة !!

مأدبة معالى الشيخ يوسف ياسين

وفي ذات صباح تفضل معالى الشيخ ياسين بزيارتنا على عادته الكريمة في تردده علينا بالزيارة في أوقات مختلفة بين الإصباح والإمساء ، ففي ذلك اليوم قال لنا إنكم مدعوون عندى لتناول طعام العشاء في معية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم مساء الغد ، فشكرنا له كريم شعوره وكريم حفاوته ، وقبلنا دعوته شاكرين ، وكان ذلك في يوم الخميس ١٥ صفر وكان ميعاد الدعوة مساء الجمعة ١٦ صفر ، وعلمنا أنها بالتحديد ستكون في الساعة الحادية عشرة نهائياً أى قبيل صلاة المغرب بساعة واحدة ، وذلك مراعاة لعادة جلالته في تناول طعام العشاء ، كما أسلفنا القول في مناسبة سابقة .

وفي الساعة العاشرة من مساء يوم الجمعة - وهو ميعاد الدعوة - كنّا قد وصلنا إلى خيام معالى الشيخ يوسف ياسين ، فكان يستقبل مدعويه بمنتهى البشاشة والإناس والدعة ومكارم الأخلاق ، بينما كان في نفس الوقت يقوم بإدارة ترتيب الحفلة والإشراف على كل كبيرة وصغيرة فيها ، مبالغة في الحفاوة وحسن الاستعداد للقاء ضيف الشرف العظيم الذى سيشرف الحفلة بعد قليل من الدقائق .

وكان يعاونه في « الخيمة » ، معاونه في « العمل » صديقه الأستاذ المحقق رشدى ملحس ، كما كان يعاونهما الكثير من محبيهما وأصدقائهما من موظفي الشعبة السياسية وديوان جلالته وغيرهم وغيرهم . وكان قد أقيم سرادقان أحدهما أعد لتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم واستراحته ومن في معيته من المدعويين ، والآخر أعد لموائد الطعام ، وقد نثرت فيه على الطريقة التى مرّ وصفها في مأدبة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

وكان جلالتة على عادته اليومية التي وصفناها فيما سلف من القول ، يقضى قيلولة النهار في الروضة والصيد والقنص ، ويعود إلى مخيمه في الساعة الحادية عشرة لتناول طعام العشاء ، وما كاد يحين ذلك الوقت ، حتى علا غبار في أقصى الروضة ، فنهض الحاضرون خفافاً ، وقالوا هذه سيارة جلالتة مقبلة من مقيلا بين الرياض ، وخف الجميع إلى استقبال جلالتة ، وما هي إلا دقيقة أو بعض دقيقة ، حتى كانت سيارة جلالتة قد شرفت إلى المخيام ، فبادر الحاضرون إلى استقباله بما يليق بمقامه من الحفاوة والإكرام . وبما يكنونه لجلالتة في جوانحهم من عواطف الحب والإخلاص ، ثم شرف جلالتة إلى السرادق الذي أعد لاستراحته وقضى فيه بضع دقائق بين مؤانسة الحاضرين وتحياتهم وحفاوتهم . وبعد ذلك شرف جلالتة غرفة الطعام - أو خيمته - وفي معيته الحاضرون فتناولوه هنيئاً مريئاً بين أحاديث طريفة هي سلاف الود ورحيق الإخلاص .

وبعد أن انتهى جلالتة من تناول الطعام أديرت القهوة العربية ، وكانت صلاة المغرب قد أذف مياعداها فغادر جلالتة المكان مشيعاً بمثل ما استقبل به من الحفاوة والإكرام ، قاصداً إلى المخيام الملكي الخاص لأداء فريضة المغرب وقضاء الوقت هناك إلى ما بعد العشاء حسب عادة جلالتة من غير تأخير ولا تقديم .

وبقى المدعون بعد ذلك في ضيافة معالي الشيخ يوسف ياسين مدة من الوقت ومنهم من تعجل وغادر المكان ، ومنهم من ظل مدة أخرى وأدى صلاة المغرب هناك ، وبذلك انقضت المأدبة الحفيلة ، وانفض السامر ، بعد أن قام معالي الشيخ يوسف ياسين بتكريم الوفد الملكي أعظم تكريم ، حيث شرفه بتناول الطعام في مأدبة عاصرة ترأسها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

وفي أثناء الوقت الذي انقضى بين حضورنا إلى الحفلة ، وبين انتظار تشريف
المليك العظيم ، التقيت بمضيفنا الكريم ، فقال لي ماذا عندك ؟ فقلت عندي حورية
نجد ! فقال : وماتلك قلت ؟ قصيدة عصماء من عيون الشعر أوحى بها إلى هذا الوادي
الناضر ، وهذا النجد الزاهر ، فقال : أو تنشد لها حضرة صاحب الجلالة ؟ قلت : أودّ لو
أن جلالته يسممها ! قال : لو أن في الوقت فسحة لنصححك بالقائها ، ولكن جلالته
سيدشرف وشيكا وصلاة المغرب قريبة الميقات ، ولهذا فسيتعجل جلالته الذهاب .
وقد كان ما قال ، فقد شرف جلالته وانصرف عاجلاً .



حضرة صاحب السمو الملكي الأمير منصور وإلى يمينه إبراهيم
عبد الهادي باشا وإلى يساره الأمير فهد



الأمير عبد الحفيد أصغر أنجال جلالة الملك ويرى متمطفا بسلاحه

نجد - وحولية نجد

قبل أن نذكر حولية نجد نريد أن نذكر المناسبة التي عملت فيها ، والمناسبة التي أقيمت فيها ، بعد أن تقدم الكلام في ختام الموضوع السابق في مادة معالي الشيخ يوسف ياسين عن هذه القصيدة وهذا هو الذي حدا بنا إلى إقرار الكلام عن هذه الحولية !

لقد سبق الكلام في ثنايا هذه الرحلة عن مبلغ الشعور الذي تولّد في نفوسنا من مظاهر نجد ومشاهدها الرائعة ، ولقد كان لكاتب هذه السطور من الشعور الخاص ما أرق جفونه وسهّدها في التفكير في نجد ، وما هي نجد بعد أن شجذ نفسه وأوقد شوقها مآقرأه في كتب المتقدمين وأشعارهم من الروايات والأساطير عن نجد ومرابمها ومنازلها ورياضها ومن أنجبت من كرام الشعراء ، وما قال فيها كرام الشعراء ، سواء كان تحقيقاً أو تقليداً ، وسواء كان قديماً أو جديداً !! ومن من الأدباء أو الشعراء من لا يحفظ عن ظهر قلب عشرات القصائد ومئات الأبيات من الشعر ، فيها الكثير من ذكر نجد والحنين إلى نجد ووصف مغانيها ومرابمها ومفاتيحها ومباهجها سواء كان في الحقيقة أو في الخيال !! وسواء كان في القديم أو في الحديث ، فأما في القديم فقد انصرف الشعراء إلى ذلك عن طبيعة وعلم وخبرة ، وعن مكابدة وشوق وحنين ، وأما في الحديث قد اندفع الشعراء المعاصرون وغير المعاصرين إلى ذلك اندفاع طبيعة وسجية لا أثر للتكاف فيه وإن زعم ذلك المتعمقون المزمعون ، والذين يعرفون والذين لا يعرفون ، فقد يوجد فريق من الأدباء المجددين يلومون على القديم ويزعمون التجديد فينقمون على الذين يذكرون المربع والديار ، والمنازل والأوطار ، والأنجاد والأغوار ، لأنها في نظرهم من الكلام القديم الذي لا لزوم لترديده وإعادة ذكره ،

وقد يشترك في هذا اللوم والتقريع من لم يعرف نجداً من قبل ، أما الذى يعرف ماهى نجد وماهى مراتبها ومنازلها وخيامها ومضاربها ، ورياضها وغدرانها ، وأغوارها وأنجادها ، فإنه يعود دائماً على اللاتئين ، مقرأً للمقرئين ، لا أقل من أن يكون هذا شعور شاعر عربى مثل كاتب هذه السطور ، هو وليد نجد وحبيبها ، إن لم يكن بمسّ التراب فلمنازل الأحباب ، ومباءة الأنساب والأحساب ، وجوهر الأدب اللباب ، وهو مدين فى ذلك إلى عاطفة الأدب وخصوصية الشاعرية المطبوعة ، وإلى صدق الولاء الذى يدين به للملك عربى عظيم ، وإلى حقوق الوطنية فى وطن واحد يستوى المنتسب إلى مشرقه ومغرب أو شماله وجنوبه ! وآية ذلك ساعة أن بشرت فى مكة باختيارى للسفر إلى هذه الرحلة ، وكان معى إذ ذاك صديقان كريمان هما الأستاذ الكبير السيد جميل داود معاون أول وزارة الخارجية^(١) ، والأستاذ الصديق الكريم الشيخ عبد السلام غالى ، فسمعانى أمهس إلى نفسى بترجيع الغناء وترتيب النغم فقالا ماذا تقول ؟ فقلت أقول نجداً !! قالوا وبماذا تنفى ، قلت بأقوال خطرت على ذهن من أقوال الشعراء فى نجد ، منها :

ولا تنس نجداً إنها منبت الهوى ومرعى المها من ساحنات ورتع !
وقول الآخر :

وإنا لقوم ليس فىنا معابة سوى أن وادينا بحكم الهوى نجد
نلين وإن كنا أشداء للمدى ونغضب فى شروى نقيز فنشتد

بهذا الوصف الموجز تلقيت نبأ الرحلة إلى نجد ، ومن ذلك الوصف المقتضب يتبين مقدار ذلك الشعور الذى لازمنى وأخذ يزداد معى شيئاً فشيئاً بزيادة المشاهد والمرئيات حتى رأيت نجداً وشهدت أجزاءها منزلاً فنزلاً ، ومرعباً فمرعباً ، والتقيت

(١) السيد جميل داود يشغل الآن منصب سكرتير أول المفوضية العربية السعودية ببلندن .

برياضها التقاء سافراً وضاحاً لا حجاب فيه ، ولا ستر دونه ، وظلت أعجب بكل ما أشاهد ، وأساعد نفسي على الفتنة والإيمان في الافتتان بمنظر الروضات وغير الروضات من مظاهر الصحراء وفتنتها البارعة ، وكفت أشعر بهذا الشعور وأسترسل فيه مع نفسي كأن قد وجدت من يصاحبني في خيالي ويلازمني فيه كل الملازمة ، إلى أن أحسست بنفسي تسيل شعراً وأخذت أقيد مايجول فيها على جذاذات من الورق كان جمع شتاتها قصيدة عامرة الأبيات أصبحت « حولية نجد » فيما بعد !

وتمّ بنيان القصيدة التي أسميتها « حولية نجد » بعد إنشاء هيكلها من مختلف المشاهد المبعثرة ، والمرئيات الظاهرة والمستترة ، وظهر العلان بعد الخفاء وأخذت في تبويضها وترجييعها وقراءتها وتنغيمها والتبغيم بها !! حتى لاحظ ذلك واحد من الرفاق بعد واحد !!

وأخيراً لم أر بداً من إعلانها وإنشادها الرفاق ، فكانت موضع إعجاب كل من سمعها أو قرأها ، واقترح الإخوان والأصدقاء أن أنشدها حضرة صاحب الجلالة الملك فقلت إن القصيدة قلتها في مناسبة خاصة مجاوبة لشعور نفسي نحو نجد ، وليس أحب إلى من أن يسمعها مولاي صاحب الجلالة أو يقرأها ، وكان قد سمعها مني أو اطلع عليها كثير من غير زملاء الرحلة منهم سعادة السيد حمزة غوث والدكتور محمد علي الشواف وغيرهما من رجال الخيام الملوكي ، وقد أجمع رأي الجميع على إنشادها بين يدي صاحب الجلالة رغم ما أبديته من اعتراضات أهمها طول القصيدة وخشية الاملال من سماعها . وبعد انتهاء المناقشات في هذا الموضوع تقرر أن أتشرف بإلقائها غداً بين يدي حضرة صاحب الجلالة ، وكان غداً هو يوم السبت ١٧ صفر ، وهو اليوم التالي لمأدبة معالي الشيخ يوسف ياسين .

وفي صباح اليوم المذكور ، بعد أن تشرفنا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة في

خيمته الملكية تقدم سمادة السيد صالح شطا وقال لجلالته إن « فؤاد » أنشأ قصيدة
في نجد ، ونحب أن نستأذن من جلالته في التفضل بسماعها ، فتفضل جلالته
بالإذن والترحيب ، فتقدمت بين يدي جلالته وأنشدتها ، ومن أكبر الشرف الذي
نلت في ذلك اليوم ، هو تفضل جلالته بالإصغاء إليها وإبداء إعجابه بها وسروره منها ،
وما كان يبدو على ملامح وجهه الكريم المشرق الوضاء من علامات الارتياح والرضا
وحسن القبول ، ثم ما قوبلت به في المجلس وخارج الخيام من إقبال أهل نجد على
سماعها والإعجاب بها والترنح لمعانيتها لما اشتعلت عليه من صفات نجد . ولا أطيل في
وصف ما أقول فهذه نجد ، وهذه حولية نجد !!

حولية نجد

هذه^(١) لؤلؤة من لآلىء الشعر العربى الفصيح ، أشرقت فى روضة الخفس ، أوهى زهرة من يوانع زهره الباسم تفتحت فى تلك الروضة ، عن شاعرية خصبة فياحة لكأنما استمد الشاعر غير شعره من غير الروضة ، فجاءت قصيدته وإياها كالحسناء والمرأة ، وهى قصيدة جادت بها قريحة شاعرنا الكبير الأستاذ فؤاد شاكر عقب وصول الوفد المكي إلى الخيام المكي العامر فى تلك الروضة الفيحاء ، وقد تشرف بإلقائها بين يدى جلالة الملك المعظم فى صباح يوم السبت ١٦ صفر الجارى فخازت من لدن جلالته منتهى الاستحسان والعطف والرضاء السامى ، قال :

أجل هذه نجد ، فسائل ربى نجد !	عن العرب الأبحاد من سالف العهد !
عن الدين والأخلاق والعزم والحجى	عن الشعر والتاريخ والعز والمجد !
عن الخيل والاصباح والسيف والقنا	عن الرأى والإقدام والحزم والجدا !
عن الليل والبيداء والظعن والنوى	عن الدجن والصحراء والغيث والرعد !
عن الصافنات الجرد كالريح ضمراً	عن النوق والأخلاف والعدو والوخدا !
بلاد هى التاريخ أبيض ناصع	زها مجدها كالحسن فى صفحة الخدا
فقل للصبا إذا هب نفح عيرها	(ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد)

أجل هذه نجد ، وهذى رياضها وتلك أفوايح من البان والرنند

(١) هذه المقدمة كتبها جريدة صوت الحجاز حين نشرت القصيدة فى ذلك التاريخ ، وقد حرصنا على إثباتها كما هى لنفاسها ولأنها فى معانيها السامية قصيدة إلى جانب القصيدة .

أجل هذه نجد وهذا أقاحها
 فن (روضة الخفس)^(١) التي فاح عطرها
 تطاول فيها العشب حتى كأنه
 زها نوره في مطلع الفجر مشرقاً
 بدا أصفرأ في أبيض ، فكانه
 وفاح شذاه بالأريج كأنه
 سقاء ولي الغيث صيب مائه
 روح إليه الطير وهي أوانس
 فتشتار من أزهاره الشهد سائفاً
 تناوحه ريح الصبا فتهزه
 تصاخه شمس الأصيل تحية
 فتنقل من مرآه للميف صورة

تفتح عن نور وأشرق عن ند
 إلى (روضة التنها) في النور والوهد
 سنابل أكام تفتح عن ورد
 مع الشمس كالمحبوب ، يسم عن ود
 سماوة قرص الشمس قد لف في برد
 عبير سري رياه من جنة الخلد
 كأن قد سقاء الورد في صورة الورد
 تباكره بالشوق بدءاً على عود
 كما^(٢) اشتار من أزهاره النحل للشهد
 فيختال إذ يهتز في الروض من بعد
 كما صاحته الشمس من قبل في راد
 روح جلاء النور ، في الأعين الرمد

وهذا غدير فاض في أيمن الحمى
 تفضن وجه الماء منه نسائم

ومن حوله ماء تدفق من عِد^(٣)
 فتبدو كحبات تدحرجن من عقد

(١) روضة الخفس ، وروضة التنها ، وغيرها ، أسماء روضات معروفة من رياض نجد التي يتنزه فيها صاحب الجلالة في كثير من أوقات العام .
 (٢) المشتار هو الذي يزرع العسل عن بيوت النحل
 قال النابغة الذبياني :

كان مشمولة صرفاً بريقتها من بعد رقتها أو شهد مشتار

(٣) . العد هو الماء الجاري قال أحمد شوقي بك رحمه الله :

وافتح أصول النيل واستردها شالها وعدبها وعدبها
 وقال أبو العتاهية :

لا بد من ورد لأهل الورد اما إلى ضحل واما عند
 وإن أهل نجد يستعملون هذه الكلمة في التعبير عن السواني ومجاري الماء وهي عربية فصيحة

أطلّ « طويق »^(١) فوقه وكأنه
فلولم يكن إلا (امرؤ القيس) شاعراً
لما كان أجدى من تذكر شاعر
خسبك منه والغدير وما جرى
فإن تك للآرام والغيد ملعباً
خسبك منها أنها اليوم غابة
وأن قيض الرحمن سيد أهلها
فسار عليها سيرة عمرية
هو الملك المعروف بالدين والتقى
أجل أنه عبد العزيز وحسبه

حضيئة آرام ، تقوم على ولد
تنقل في الغدران وهداً إلى وهد
طوى ذكره الأحقاب حافلة العد
وحسب العذارى مالمين على عمد^(٢)
ثوت حقباً ، للهو أنا وللجد
تعج بأشبال العرين وبالأسد
فولاه فيها إمرة الحل والعقد
غدت مضرب الأمثال في العدل والرشد
وبالحلم والإحسان والصون والدود
من الله نعمى الدين والعيشة الرغد

ولما بدا (الخيام) للركب أشرفت
تلوح مع الأصباح كالطير جثا
وتبدو مع الإمساء زهراً مفتحاً
ويغدو عليها بالضياء مسامر
يخال به كبر ، وليس به سوى
هو البدر في ليل من التم مشرق
فطارت نفوس الركب شوقاً وطالما

خيام تفوق الأنجم الزهر في العد
حباها بياض الفجر حُضناً من المهد
يكاد يضيء الليل من بهجة الوجد
وإن كابدت من هجره روعة الصد^(٣)
مناعة مافي البعد ، من لوعة البعد
أطل من العلياء مستوفز الحشد
قضت ليالها في الوجد والشوق والسهد

(١) طويق هو جبل معروف في نجد وهو سلسلة عظيمة تتصل بروضة الخفس وغيرها من الجهات حتى قيل أنه يصل إلى نجران .
(٢) لعل الأدباء جميعاً والشعراء على الأخص يعرفون قصص تنقل امرؤ القيس وحياته بين الغدران في مختلف أنحاء البادية .
(٣) المقصود به البدر وقد كان في ليلة تمامه .

إلى ملك قد أيد الله عرشه فثبت من أركانه راسخ الطود
تناهى إلى (عبد العزيز) ولاؤها بأوسع ما ضمت نفوس من الود

أمولاي فلتهنأ بما أنت أهله من العز والرضوان والعيشة السعد
وحولك من أبنائك الفر سادة مصاييح هذا الملك في الصون والندود
هم الجنود إلا أنهم جنود عزة فأنعم بهم في طاعة الله من جنود
(سمود) وحسبي من مناقب مجده مفاخره اللأني سمون على العمد
وإن رضاء الله فيما أناله رضاك ، وقد أضحي وليك في العهد
وفيصّل المحبوب والنائب الذي تلاقى به حب القلوب على الود
وسارت له في الناس سيرة أصيد فضوعت الأفواه بالزهر والشهد

فيا سائلي عن نجد ، أو عن رياضها فديتك ، هذا بعض ما في ربا نجد
روضة الخفس فؤاد ساكر

وفود جده، والمدينة، والطائف

وكان المقرر من قبل سفرنا من مكة ؛ أن وفدآ من جدة سيسافر إلى الرياض أيضا لمثل الغاية التي سافر اليها وفد مكة ، ومنذ وصولنا إلى الروضة أخذنا نترقب قيام وفد جدة ووصله ، ثم مضى أسبوع كامل على اقامتنا في الروضة دون أن يتحرك وفد جدة وفي ذات صباح كنا في حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فتناول سماعة التلفون وأصدر أمره إلى رئيس ديوانه بالاستفهام - لاسلكيا - عن سبب تأخر الوفد المذكور عن القيام ، وفي اليوم التالي ونحن في حضرة جلالته أخبرنا أن وفد جدة قد تحرك من مكة وأنه يُنتظر أن يصل بعد يومين

وفي تلك الأثناء علمنا أن أهل المدينة التمسوا تأليف وفد منهم والاذن له بالسفر إلى الرياض للتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، فأذن لهم في ذلك ، وأن أهل الطائف التمسوا مثل ذلك الالتماس فتفضل جلالته أيضا بالاذن الكريم

وكان حضرة صاحب الجلالة الملك ؛ قد أخبرنا أنه يريد الذهاب إلى الخرج ونحن في معية جلالته ، وكانت رغبتنا شديدة وأكيدة في أن نحظى بزيارة « الخرج » بعد أن وصلنا إلى أرض نجد ، لما كنا نعرفه عن ذلك المكان التاريخي الجليل ، وما كنا نعلم عن أنبائه الحديثة ومقام به حضرة صاحب المعالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية من إصلاحات واسعة النطاق في ذلك الوادي الخصيب ، تنفيذآ لرغبة حضرة صاحب الجلالة الملك ، ومقترحات جلالته العظيمة الاصلاحية السامية ،

وكان معالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية قد غادر مكة إلى الرياض قبل

سفرنا منها بأسبوعين ، فلما قدمنا إلى الخيام الملكي لم نجد ثمة وقال صاحب الجلالة أن معاليه في الخرج يشرف على أعمال الري والزراعة هناك ، وبعد بضعة أيام من إقامتنا في الروضة قدم معاليه من الخرج وتفضل بزيارة الوفد الملكي في مخيمه زيارة ود وإكرام وترحيب ، وقد أبدى من مكارم الأخلاق في الحفاوة بنا ما كان دليلاً ناصعاً على ما في نفسه من الأدب الرفيع والخلق الكريم .

وكانت الأنباء قد وصلت إلينا عن طريق ديوان جلالة الملك المعظم بأن وفد المدينة قد غادر المدينة في طريقه إلى الرياض ، وأخذنا نتقرب وصوله إلى الخيام بعد أن مضت الأيام المقررة على وجه التقريب لمدة الرحلة في تلك المراحل ، وهو مؤلف من عشرة أشخاص يتقدمهم سماعة الشيخ عبد الله السديري وكيل أمير المدينة^(١) وحضرات ، الشيخ محمد الخريجي ، والشيخ دياب ناصر ، والشيخ عبد القادر غوث والسيد حسين طه ، والشيخ عثمان حافظ ، والسيد أمين مدني ، والسيد أحمد صقر .

(١) أسرة السديري من أكرم الأسر في نجد وهي تشرف بنسب مصاهرة صاحب الجلالة الملك المعظم . وجلالته كثير العطف عليها والمحبة لها ، ومن أبرز أعضائها الأمير عبد الله السديري أمير المدينة بالوكالة ، وقد زار مصر في معية صاحب الجلالة ، وأنعم عليه جلالة الفاروق بالوشاح الأكبر من نيشان النيل . والأمير تركي السديري أمير أبها ، والأمير عبد العزيز السديري أمير جيزان ، والأمير خالد السديري أمير الحدود الشمالية والظهران ، والأمير عبد الرحمن السديري قائم مقام جدة . وفي يوم ١٨ الحجة عام ١٣٦٣ أقام أحمد بك لاري حفلة تكريم للأميرين عبد العزيز السديري وخالد السديري بفندق مصر بمناسبة قدومهما للحج بمكة ألقى فيها المؤلف الأبيات الآتية :

لست أدري ؟ أباقه من ورود	فاح فينا أريجها والعير ؟
أم شمس تنظمت في بروج	أم بروج تنظمتها بدور ؟
لست أدري ؟ أم كما قلت حقاً	أم رجال قد أنجبتهم سدير ؟
سادة ليس فيهموا غير شبل	كلهم كابر ، وكل أمير
حسبهم أنهم إذا ما اتهم	حسب باذخ ومجد وفيه
أنهم من رجال آل سعود	نسب للعلا ، وعز أمير

وبعد أصيل يوم السبت المذكور ، تفرق الرفاق إلى ما هم بسبيله من التنزه أو تبادل الزيارات ، وخرجنا إلى ناحية الغدير في تلك الأمسية كالعادة فإذا بنا نلح عن بعد سيارات مقبلة متجهة نحو الروضة ، فساورنا شيء من الشك في أنها قد تكون سيارات وفد المدينة ، خصوصاً وأننا كنا على انتظار مقدمها بين اليوم والآخر . وكان هذا الشك أو التظن ، كافياً لأن يبعثنا على أن نلوى أزمة المطى عن وجهتها - وليست هناك من المطايا غير السيارات الوثيرة - فأدركنا أعنانها عائدين إلى الروضة لنقتفي أثر الرفاق المدينين - لا المدينين ! - ولنقف على جليلة الخبر ، ولم يطل بنا السير حتى وصلنا إلى الروضة ، وحتى رأينا الخيام الذي أعد لنزول أهل المدينة قد بدأت فيه الحركة وتسرب إليه نشاط الحياة فأرسلنا من يعود إلينا بجلبية الخبر ، وعاد الرسول يقول إن وفد المدينة قد وصل ، وإنه قد قصد إلى خيمة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم للتشرف بالثول بين يدي جلالته والسلام عليه ، وقد ألقى بين يدي جلالته السيد أحمد صقر معتمد المعارف - إذ ذاك - بالمدينة خطبة ، وألقى السيد على حافظ قصيدة وألقى السيد أمين مدني قصيدة في حضرة جلالته قوبلت جميعها بمنتهى الاستحسان والعطف وكریم القبول .

وطال انتظارنا لقدم وفد جدة ، وطال ترقبنا لوصوله ، بعد أن علمنا بنها تحركه من جدة ومن مكة ، وأخذنا نفتحل لتأخيرهم المعاذير ، فمن قائل إنهم يسرون بسير ضعفائهم عملاً بالسنة لأن فيهم الأشيب ، والذي لا يستطيع تحمل عناء مواصلة الأسفار ، ومن قائل إن بين أعضاء الوفد ، الشيخ أحمد باناجة^(١) وهو رجل مرقه غير متعود على مشاق الأسفار ووعثائها فلا بد وأن يكون هو سبب هذا التأخير ، وأخيراً وبعد نفاذ الصبر من تأخيرهم في القيام والسفر ، وصلوا إلى الروضة في ضحى

(١) توفي إلى رحمة الله في عام ١٣٦٤ في طريقه إلى المدينة المنورة .

يوم الثلاثاء ٢٠ صفر ، وهم صفوة أعيان جدة وكبرائها حضرات : الشيخ محمد نصيف الحاج يوسف زينل ، ومحمد بك عبد الله رضا زينل^(١) ، وأحمد افندى باناجة .

وتشرفوا بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ساعة وصولهم ، ثم انضموا إلى نفس الترتيب الذى أعد من قبل للوفود جميعها فى مدة إقامتها فى الروضة فكان يتشرف بمقابلة جلالاته فى صباح كل يوم ومسانئه على ما هو مهيباً من الترتيب مع غيره من الوفود .

وفى المساء تشرف الوفد المذكور بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ، فلقى من لدن جلالاته كل رعاية وإكرام ، وكل لطف وبشاشة .

وكان قد عرف أن لفيفاً من أهل الطائف استأذن من حضرة صاحب الجلالة الملك ، فى السماح بتأليف وفد منهم ، للسفر إلى نجد والتشرف بالسلام على حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، أسوة بالوفود الأخرى ، وأن جلالاته تفضل فأذن لهم بذلك .

وفى مساء يوم الجمعة الذى تقرر السفر فى صباح يومه التالى إلى الخرج ، وصل وفد الطائف ، وهو مؤلف من حضرات ، الشيخ محمد سعيد أبو ناصف ، الشيخ ابراهيم كمال ، الشيخ أحمد قزاز ، الشيخ محمد صالح بن حريب ، وقد قصدوا حال وصولهم إلى المخيم الملكى العامر ، وتشرفوا بالثول بين يدي جلالاته والسلام عليه ، وتفضل حفظه الله على عادته فى مكارم الأخلاق وعلو النفس ، فشملهم بعطفه السامى وأكرم وفادتهم كغيرهم ممن سبق من الوفود .

(١) محمد بك رضا زينل عميد شباب جدة ومن أبرز شخصياتها ، وهو يجمع بين الثقافة العالية والتعليم الرفيع والخلق المهذب ، وقد برز بتفوق فى عالم التجارة والاقتصاد ، مثلما برز فى عالم السياسة والاجتماع ، وقد أسند إليه منصب قنصل تشكوسلوفاكيا قبل الحرب الأخيرة ، كما أنه الآن رئيس الغرفة التجارية بمجدة ، ذلك علاوة على أعماله التجارية الواسعة التى يدير دفنها بلباقة لائتمارى ونجاح عظيم ، وتوفيق جليل .

الفصل الرابع

إلى الخرج

كان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ينتظر وصول الوفود جميعها للسفر بعد ذلك إلى الخرج وهم في معية جلالته ، وكان المقرر أن تزور هذه الوفود الرياض التي هي العاصمة النجدية ، والخرج ، تلك المنطقة الزراعية الخصبة التي قامت بتجديد إنشائها همة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، لأنه ليس من المعقول أن تصل هذه الوفود إلى نجد وتقتصر رحلتها على روضة الخفس، دون أن تشاهد عاصمة البلاد وأهم مركز اقتصادي زراعي فيها . ولكن حضرة صاحب الجلالة الملك أبت مكارم أخلاقه إلا أن يتفضل بنفسه فيسافر إلى تلك الأماكن ويصطحب معه ضيوفه من تلك الوفود التي قدمت إلى منازل بلاده ومرايعها ، وكان هذا التفضل من جلالته من أبرز آيات مكارم أخلاقه وأبرز مظاهر عطفه .

وزاد جلالته في إبراز عطفه ، فلم ير أن يبت في أمر الرحلة دون مشاورتهم وأخذ رأيهم ، مع أن الله سبحانه وتعالى قد وهبه من سداد الرأي ما لا حاجة معه إلى مشاورة ! ولكن هكذا كان وهكذا أبت مكارم أخلاقه إلا أن يكون !

فقد تفضل جلالته قبل الرحلة بيومين ، وأعلن رغبته الكريمة في السفر إلى الخرج وأن نكون في معيته السامية ، وقال ها هي ذى الوفود قد تكاملت ، ولم يبق

إلا أن نشاوركم في ميعاد الرحلة وترتيبها ومراحلها . فقلنا لجلالته إن الأمر لكم فيما ترون، وفيما ترتبون وتأمرون !

فقال لجلالته : « ما لهذا دعوتكم ولا لهذا تحدث إليكم ، والصحيح أنني أريد مشاورتكم في أمر الرحلة فأنا لأقطع برأى دونكم ، وإن أصررتم على ترك الأمرى ، فأنا أخبركم برأى لأنشاور معكم في قبوله أو تعديله » ، ثم قال لجلالته : « إن المسافة من الروضة إلى الخرج تبلغ ١٨٩ كيلومتراً ويمكن اجتيازها في مسافة تتراوح بين الأربع ساعات والخمسة ، ولكننى أرى أن نقطع هذه المسافة على جملة مراحل ، فنغادر الروضة في صباح يوم السبت بعد تناول طعام الفطور ، فإذا صرنا قبيل الظهر نزل في مكان من الطريق ونستريح به قليلاً ثم نتناول طعام الغداء ، وسيكون مطهيماً ومعداً ، وبعد ذلك نواصل السفر إلى مكان آخر نستريح به ، ثم نمشي ساعة من الزمن ، فنصل إلى روضة من الروضات نبيت بها إلى الصباح ، وبعد تناول طعام الفطور نغادر ذلك المكان إلى الخرج فنصل إليه بعد ساعة من الزمن . فما هو رأيكم في هذا الترتيب » فاستحسننا من لجلالته هذا الرأى السيد الصائب ، وقال « إن الغرض من تقطيع الرحلة على الصورة الآتفة الذكر ، أن لا أدعكم تشعرون بتعب في الطريق ، وأن أدعكم تتمتعون بمشاهدة ما فيه من رياض يانعة ومناظر رائعة » . فدعونا لجلالته وشكرنا له هذا العطف الذى لا يبارح سبحانه ، وكان أن اعتمد لجلالته هذا الترتيب وأمر بتنفيذه .

وجاء الشيخ عبد الرحمن الطيشى رئيس الخاصة الملكية إلى مخيماننا ، لتنفيذ التعليمات التى أمر بها حضرة صاحب الجلالة ، وكان فى نيتنا أن يكون السفر إلى الخرج ومنها إلى الرياض ، ثم نستأذن فى مواصلة السفر من هناك عائدين إلى مكة . ولكن الترتيبات التى أمر بها لجلالته قضت بأن نترك أمتعتنا الثقيلة والخيام فى مكانها وأن نصطحب ما نحتاج إليه من الملابس والأدوات الخاصة ، ذلك لأن الرأى

قد استقر على أن نعود ثانية إلى روضة الخفس ، وأن تكون عودتنا إلى مكة عن طريق هذه الروضة ، وأعدت السيارات للسفر وزودت بما تحتاج إليه من الوقود ، وقضينا ليلة السبت الآنفه الذكر في إعداد معدات شؤوننا الخاصة للسفر من ملابس وأدوات ، أما الشؤون العامة الأخرى فلم نكلف بمثقال ذرة منها حيث كان كل شيء قد أجرى ترتيبه في معية مولانا صاحب الجلالة .

وفي الصباح الباكر منذ صلاة الفجر أخذنا نهيئاً للسفر ، وبعد أن تناولنا طعام الافطار والقهوة واسترحنا قليلاً ، جاءنا الدليل الذي أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة على أهبة السفر ، وأن علينا أن نستقل سياراتنا إلى مخيام جلالته حيث ينتظم الموكب هناك . وتوجهنا إلى المخيام الملكي لتلبية للرغبة الكريمة .

ووقفنا ننتظر تشريف جلالته وبعد قليل أقبلت سيارة جلالته ومن خلفها سيارة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل وسيارات أخرى للحاشية والأتباع وسار موكب جلالته وتبعته سيارات الوفود ومشينا مدة خمس دقائق في رياض غناء ، هي الرياض المحيطة بروضة الخفس .

وبعد أن خرج الموكب من ذلك الوادي ، وقفت سيارة جلالته الملك - بأمر جلالته طبعاً - وأمر بأن ينظم الموكب على الصورة التي يريد جلالته أن يسير عليها فقد أمر بأن تكون سيارات الوفود تسير خلف سيارته وسيارة سمو الأمير فيصل مباشرة وأن تكون السيارات الأخرى في آخر الموكب ، ولا شك أن جلالته قصد من ذلك تكريم ضيوفه ، كما قصد أن تكون تلك السيارات في المؤخرة حماية لبقية السيارات من التمثيل والتوقف والانقطاع وكان ذلك أبلغ ما يمكن من حسن الترتيب في إدارة موكب الرحلة .

واستأنف الموكب سفره محفوفاً بعناية الله وجميل رعايته ، يخترق الأودية والرياح ، من وهد إلى نجد ، ومن نجد إلى وهد في تلك الإصباحة الساحية الجميلة .

عاطفة الملك الرحيم

ومنذ ابتدأت هذه الرحلة فيما بين روضة الخفس والخرج ، شهدت ما لم تشهده عيناى ، وإن كانت قد سمعته أذنأى ، والرؤية ليست كالعيان على كل حال ! شهدت لونا من عاطفة هذا الملك الرحيم كنت من قبل شديد الرغبة فى التمتع برؤيتها عن كثب ، ولكن الظروف ما كانت لتسمح بذلك ، لأنه لم يتح لى أن أتشرف بمرافقة جلالته عن كثب هذه المرافقة الدانية ، فالذين يعرفون حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، يصفونه بالكرم إلى جانب ما عرف به من الشجاعة ، والكرم والشجاعة صفتان متلازمتان متفقتان فى المبدأ والغرض ، وليس تاريخ جلالته الحافل ، ولا شخصية جلالته الرفيعة ، بحاجة إلى التدليل على ما طبعت عليه من الكرم والشجاعة لأن تاريخ حياته يثبت أن أسباب نجاحه كلها ترجع بعد فضل الله وتوفيقه إلى هاتين الميزتين اللتين امتاز بهما تاريخه وشخصيته ، فهى ليست بحاجة إلى تدليل ولا تأكيد ! ولكن الشئ الذى يزيد أن تشكلم عنه فى هذه المناسبة والذى شهدناه عن رؤية قريبة ، هو ذلك العطف الرحيم الذى اشتملت عليه نفسه الرفيعة المالية ، والذى لا صنعة فيه ولا تكلف ، ولا عنت فيه ولا رياء .

فلنترك الحديث عن الكرم جانباً ، ولننظر إلى عاطفة الرحمة فى قلب ذلك الملك الرحيم ، وإلى أى حد بلغت من طبيعته العطف والمروءة والنجدة وحب الخير والمواساة .

فما كاد موكب جلالته يواصل السير فى صميم الصحراء وجوفها الطويل ، حتى كان أول مشهد رأيناه ، هو منظر سيارة كبيرة من سيارات الجمل ، تقف إلى جانب من الطريق بحالة تدل على ما بها من عطل تأدى بها إلى ذلك الوقوف ، وإلى جانبها

سائقها البائس الذى طوّحت به المقادير إلى ذلك الموقف التعس !! وكثير من الناس يمر بمثل هذا المشهد دون أن يعطف عليه بالتفاتة ولو من النظر الشرر ، والكثير من الناس يمر بمثل هذا المشهد فيشيع بوجهه عنه أنفة وكبرياء إن لم يرمه بشيء من بطل الحديث وسخرية القول فى السر أو العلن ، أو يغض دونه النظر كأنما :

تقضى بمرآة العيون فلا تراه سوى التماح

ولكن ماذا فعل ذلك الملك الكبير ، والماهل العظيم ؟! لقد أوقف حضرة صاحب الجلالة سيارته ، فوقفت لأجلها عشرات السيارات الملحقة بمعيتها ، والركب ومن فى الركب ؛ وصاح على السائق وناداه ، ماذا بك ؟! فقال له ، لقد نفذ مامعى من الوقود والماء ، فأمر جلالته من فى معيته من الخدم بإعطائه ما يكفيه من الماء والوقود وأمر بإعطائه بعض المال ليصلح به شأنه بعد أن سأله عن أحواله وعن الأسباب التى أدت به إلى ذلك الوقوف ! ومن أين أتى وإلى أين ذاهب !!!

وكأنما تسامعت البادية وتناقلت فى « لاسلكياتها » الخفى ، أن جلالته سيمر من ديارها فى الوقت المعين ، فاحتشد سكانها على أقرب طريق يمر فون أن الموكب سيجتازها ، فأما الموسرون منهم ، فلا هم لهم إلا أن يتشرفوا باجتلاء طلعة المليك المحبوب الذى هو عندهم الإمام ، والقائد ، والزعيم . وأما الفقراء منهم ، فقد عرفوا عادة جلالته لا فى الكرم فحسب ، ولكن فى العطف والرحمة ورقة القلب والحذب على الرعية ، فيتمرضون لنفحات بره وعطفه وهو منهم داني القطوف ، وشيك الجنى ، ويصادف أن يرى جلالته فى أثناء الطريق فرداً واحداً أو جماعة بحالها أو أسرة من الأسر ، فلا يمكن أن يمر موكبه بواحد من هؤلاء ، دون أن يقف سيارته ، وتقف بوقوفها سيارات الموكب كله ، حتى ينفتحهم جلالته ما يعرف أنه يكفهم مؤونة الحاجة ويسد عوزهم ويردهم إلى ديارهم مسرورين جذلين .

وظل موكب جلالته يتنقل في البادية طيلة ذلك اليوم ، وكلما اجتاز قليلاً من الأميال التقى بطائفة من سكان البادية الذين خرجوا لاعتراض نداء واصطياد بره وعطفه ، وهم أفراد وجماعات حسبما يتفق أن يكونوا ، فيقف جلالته وينفجهم بما يستحقون على قدر عددهم ، وينثر عليهم الدراهم نثراً ، وهي عبارة عن كميات من الريالات التي ضرب عليها اسم جلالته ، وقضى الله أن تكون إلى جانب ذلك قاضية الحاجات ! ومجلبة الأنس والمسررات ، ودافعة العوز والفاقات ، ولا أظن أن سرور جلالته بهذا العطاء السخي ، يقل عن السرور الذي يغمر تلك النفوس المتمطشة إلى الرحمة ، والبر والإحسان ، ولست أبالغ أن سحجة نفس جلالته التي طبعت على الرحمة الخالصة لاتعادلها غبطة مايدخل على تلك النفوس من الفرح بهذا العطاء ، فتلك سحجة مطبوعة في نفس صاحبها منذ الفطرة ، وهذه حادثة يحدثه السرور الموقت في نفس الضعفاء والمحتاجين .

وليس هذا الذي شهدناه هو الحادث الفذ ، ولكن تلك هي خطة جلالته وسحجة نفسه في كل حركة من حركات تنقلاته وسفره ، بل حتى في إقامته ، فجلالته كلما سافر من مكان إلى مكان ، أو انتقل من بادية إلى أخرى يؤدي تلك الصدقات وينفق ذلك الإحسان قربى إلى الله وزلفى ، ومن الطريف أن نذكر بهذه المناسبة أن رحلة جلالته في كل عام من الرياض إلى مكة تسير على هذه الوتيرة منذ يتحرك موكب جلالته من أول محطة إلى أن يشرف السكان الذي ينزل فيه في قصره العامر بمكة ، وهو ينفق في هذه الرحلة عشرات الألوف من الريالات ، وربما ارتفع الرقم الذي يبلغه هذا الإنفاق إلى مئات الألوف ، ولقد شهدت في موسم الحج الماضي بطريق المصادفة حادثاً طريفاً في هذا الباب ! حين قدوم جلالته لأداء الحج من الرياض ، فقد خرجنا في لغيرف من الكبراء والأعيان لاستقبال جلالته ، - في طريق الطائف - ، فعلمنا أن موكبه غادر السيل وأنه عما قليل سيشرّف إلى

الزيمة ، وكان الطريق من مكة إلى المحل الذي وصلنا إليه ، مكتظاً بسكان البادية الذين خفوا سراً إلى استقبال جلالته وانتظار مرور موكبهم ، كانوا هتف بهم هاتف أو خف إليهم نفير صائح ، نفر بهم من أقاصى الوديان وأعماق الصحراء ، إلى انتظار استقبال جلالته ، والانتفاع بأريحيته الكريمة ، وعطفه الرحيم .

وشرف موكب جلالته « الزيمة » ، وكان أهلها وسكان البادية التي حولها قد انتظموا صفوفاً متراسة وغير متراسة على مراحل مختلفة من الطريق ، وكان جلالته على سجيته الآنفة قد نفجهم بما نثره عليهم من الريالات ، فلما شرف موكبهم تفضل بمغادرة السيارة في المكان الذى أعد لاستراحته ، وبعد أن تشرف المستقبليون بالسلام التفت جلالته إلى أمير الزيمة وقال له : لقد نفذ مامعنا من الدراهم ، فهل عندك شيء منها على سبيل العارية ؟! — السلفة — فقال أجل إننى تحت أمر مولاي وكل ما أملك ! فقال إن كان عندك أى مبلغ من الريالات فهات ما عندك لأننى فى حاجة إليها !! على أن أردّها إليك بعد وصولنا إلى مكة ، وقام الرجل ذاهلاً لا يلبى على شيء ، وقصد إلى داره ثم عاد منها بحمل كبير من النقود سلّمه إلى جلالته ، فأمر أحد خدمه أن يستلمها ويضعها فى سيارة ركوبه ! ، وتساءلنا عن السبب الذى يحمل جلالته على الاقتراض وهو على قيد أميال من مكة !! فما أسرع ما علمنا أن ذلك يرجع إلى عامل واحد ، فقد تغلبت طبيعة العطف فى نفس جلالته ، فأنفق على الفقراء من أعطياته من غير حساب ونفذ ما كان معه من المبالغ المدخرة لهذا الغرض ^(١) ، وكان بينه وبين مكة مرحلة كبيرة تزيد عن الأربعين ميلاً ، ولا يمكن لجلالته أن يخلف عادته فيمر بسكان البادية فى هذه المساحة الكبيرة وأهلها مصطفون على قدم

(١) من عادات جلالته فى كل رحلاته وتنقلاته سواء فى أسفاره أو فى نزواته اليومية الخلوية أن يصطحب إلى جانبه فى السيارة كيس نقود ملى بالريالات ينفج بها كل من يمر بهم من الفقراء وسكان البادية ، وذلك أبلغ مثل على عطفه وحنوه .

الانتظار من غير أن يشملهم بره وعطفه وإحسانه ، كما شمل غيرهم في مساحة تبلغ الألف ميل ، فلذلك عمد جلالاته إلى هذا « القرض » الحسن لينفقه في بقية الرحلة ، ولا شك أن جلالاته ردّ ما اقترض أضعافاً مضاعفة ! وأن الله جزاء عن إحسانه أضعافاً مضاعفة والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً !!

هذه خلاصة موجزة عن لون من ألوان العطف الذي عمرت به نفس جلالاته نحو رعيته في المناسبات التي ذكرناها ، ولكن هناك ألوان أخرى ، تبدّت في مناسبات أخرى ، فقد حدثت ظروف عامة في خلال الحرب العالمية الأخيرة ، وظروف خاصة في غير أيام الحرب الآتفة الذكر ، أظهرت عطف جلالاته بمظهر رائع أطلق الأسنة الخافقة وحرك القلوب الصامتة ، فابتهلت إلى الله بالدعاء له بطول العمر . فقد حدثت أزمات مادية لبعض الطوائف من أهالي الحجاز ولبعض الهيئات ، وما كان نبأها يصل إلى مسامع جلالاته حتى بادرت سحابة العطف في نفسه العامرة بالإيمان إلى نجدة أولئك المعوزين فأمر بتخصيص مبالغ مالية كبيرة لتوزع على أولئك المأزومين وزاد جلالاته في بره وعطفه فأمر بأن توزع مئات الألوف من الريالات أيضاً على سكان البادية في كل مكان ، ثم تفضل فأمر بأن يوزع كل يوم سبعون كيساً من الدقيق ، تطبخ خبزاً وتفرّق على الفقراء في مكة ، وأن توزع كميات أخرى متناسبة المقدار يومياً على الفقراء في جميع مدن المملكة ، بلغ مجموعها نحو مائة وعشرين ألف قرص يومياً وهذه المبرة العظيمة الجارية المنظمة يمجّز اللسان عن وصف أثرها ومداهها في مجرى حياة الذين يتناولونها في كل يوم من الأيام ! ذلك في المدن ، أما البوادي فقد أمر جلالاته فوزعت عليهم الحبوب والأقشة والكساوي في أكثر جهات المملكة ، في دورات منتظمة كلما مست الحاجة إلى ذلك !!

وحدث بعد ذلك السيل التاريخي العظيم الذي غمر - مكة - يوم الأربعاء

٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ ، وترتب عليه إصابة بعض الناس بأضرار مادية ، وما كاد يصل نبأ ذلك إلى مسامع جلالته حتى أصدر أمره الكريم فوراً إلى وزارة المالية بتخصيص مبلغ كبير من المال حدده جلالته بالأرقام ، لتعمير منازل الفقراء التي نالها شيء من ضرر ذلك السيل ! وأمر بإنفاق مبالغ أخرى للذين فقدوا شيئاً من أمتعتهم بذلك السبب نفسه ، وتسامع الناس بعد ذلك بمبرة جلالته هذه ، نخف الكثيرون منهم شاكين ما نالهم من أضرار مادية ؛ فهذا فقد سيارته ، وذاك فقد متاعه ؛ وكان جلالته يعنى بكل شكوى من هذا القبيل ، ويأمر بتعويض صاحبها بما يخلف عليه ماضع !

هذا كله من الناحية العامة ، أما من الناحية الخاصة ، فإن جلالته ما يكاد يصل إلى مسامعه الكريمة نبأ أى حادث يحدث لأية جهة من الجهات ، أو أية كارثة تحمل بجماعة ما حتى يبادر جلالته إلى إنقاذها وتعويضها ، وقد ألف الناس ذلك من عطفه ودرجوا عليه ، فهذا احترق منزله في حادثة حريق ، وذاك هدمت داره في حادثة انهيار وغير هذا أو ذاك يصاب بكارثة شخصية في ماله أو نفسه ، فلا يجد له ملجأ بعد الله غير حضرة صاحب الجلالة الملك ، فيكتب إليه رسالة برقية أو بريدية مستنجداً فلا يكون جوابها إلا العطف والمواساة وإغداق العطاء وتعويض ما أتلّف .

والحوادث التفصيلية في هذا الصدد معروفة لاخفاء بها ، وتفصيلها يحتاج إلى كتاب لا يقل عن حجم هذا الكتاب إن لم يزد عليه !!

وبعد الكلام عن عطف جلالته ، تقتضينا المناسبة أن نتكلم عن سجية أخرى في نفسه المؤمنة ، هي سجية الكرم ، وقد قلنا في مستهل هذا الموضوع إن الكرم والشجاعة صنوان ، وأن الخلتين صفتان متلازمتان أو هما صفة واحدة لحالة واحدة ، فكرم جلالته يتجلى في أعطياته السخية التي هي عطاء من لا يخشى الفقر ولا يعرف

الفقر ، وقد مرّت بجلالاته ظروف مختلفة من الرفاه والنعمة ، وعكسهما من شظف العيش في حياته العصامية الحفيلة ، وتكوين ملكه العتيد وحروبه المتلاحقة وغزواته الواسعة النطاق ، فكان حربياً بمن حلب شطرى الدهر ، وعرف طعميه من حلو ومر ، أن يكون مقتصداً - على الأقل - إن لم يكن بخيلاً ، وإن لم يكن شحيحاً ؛ ولكن تلك القاعدة التي هي مضطردة بالنسبة لجميع الذين تعرضوا لمثل هذه الظروف ، قد شدّت بالنسبة لجلالاته ، فهو منذ نعومة أظفاره لا يعرف البخل ، وسجيته الواحدة التي لم تتغير أنه « كريم » . وكريم بكل ما في مدلول هذا اللفظ من معنى ، سواء كان أميراً أو غازياً أو سلطاناً أو إماماً أو ملكاً فلم تندّ نفسه عن طبيعتها ، ولم تتغير عن فطرتها ، فهو في جميع حالاته كريم كل الكرم ، وبكل ما يتسع له هذا اللفظ من معنى !! ولجلالاته في هذا الباب حوادث متعددة مروية لا تكاد تصدّق عن إنسان ما ، يعيش في هذا العصر المادّي المتحجّر ، ولولا ما أعرفه شخصياً كل المعرفة من عزوف جلالاته عن الرغبة في نشر تلك الحوادث ، بل وبغضه الشديد وكراهيته لإذاعة ذلك وإصدار أوامره المتكررة في هذا المنع لذكرت من قصصها وحوادثها الشيء المعجب الغريب ، بل الشيء المطرب المرقص ، ولكنني أعرف مالا أقدر أن أقوله وحسبي أن أردد قول القائل :

كالعيس في البيداء يقتلها الظأ والماء فوق ظهورها محمول

بين الروضة والخرج

غادرنا روضة الخفس صباح يوم السبت ٢٤ صفر في معية صاحب الجلالة ، وكان ترتيب السفر محكماً بفضل ما أصدره جلالتـه من أوامر و ترتيبات ، ومشينا مدة ساعتين ونصف ، سيراً طيباً متواصلاً بين السرعة والهوينـا حسبـا يعترض الموكب من وفود أولئك المستقبـلين أو السائلين !! وحسبـا تقتضيه طبيعة الأرض من تلك الروضات المزهرة اليانعة المختلفة الألوان والباسقة الأركان وما تستوجبه من الأناة والتمهل والتنزـه وتسريح النظر وشرود الخيال ، إلى أن وصلنا إلى المكان الذي حدده جلالتـه لنزولنا ، وكان قد أوفد إليه من ينتظرنا بالطعام ، فلما وصلنا إلى ذلك المكان أمر جلالتـه بالوقوف ونزل من سيارته ونزلنا جميعاً ، وكان المكان قفراً من كل شيء إلا من شمس الضاحية المشرقة ، وظهيرته المحرقة اللاذعة ، فأمر جلالتـه بأب تصطف السيارات الكبيرة صفّاً جانبياً واحداً يتألف منها حائط كبير له ظل في الأرض تبلغ مساحة عرضه مترين في طول ذلك الموكب ، فتألف ظل وارف ، نزل جلالتـه يتفياهُ ومن في معيته ، وفي لحظة سريعة من الزمن أديرت أكواب القهوة العربية الحارة الطازجة كأنما هي قد صنعت بنت وقتها ، بينا هي ليس لها وقت يتبناها !! فكيف صنعت؟! لقد كان ترتيبها أعد فيما أعد من قبل ، فهي محمولة ومصنوعة في آن ، لأنها من الأشياء الملحوظة بالعناية في كل ترتيب !

ولم ننـته من تناول القهوة حتى بسطت موائد الطعام ، ثم فرقت صحافه فوق تلك الموائد الواسعة ، وكانت هي الأخرى تشتمل انقاداتاً كأنها أنزلت فوراً من قدورها ، فكيف أعدت هذه الموائد ، وكيف طهى هذا الطعام ، ولما ينقض على نزولنا في هذا المكان غير دقائق معدودات؟! أ كان ذلك هو المن الذي أنزل من السماء على قوم

موسى؟! أم تلك هى مائدته التى سأل الله نزولها فنزات؟! لا شئ من ذلك فقد انقضى عصر النبوات ومعجزاتها ، وإنما هى ترتيبات حكيمة قدرت نتائجها على أسبابها ويرجع فضلها إلى تعليمات صاحب الجلالة وأوامره وحسن بصره بتصرف الأمور وترتيبها فى الحل والترحال !

وتناولنا الطعام شهياً فى تلك الصحراء وفى ذلك الجو الساحر ، وأدبرت بعده أوائى اللبى ، ثم نهضنا إلى غسيل أيدينا ، وإذا بحضرة صاحب الجلالة ينادى « راعى الطيب » وهو الشخص المختص بتقديم الطيب إليه فتناول منه الطيب وتطيب به ، وهو عبارة عن زجاجة متوسطة الحجم فيها ورد زكى من أرقى أنواع العطور الزكية ، ثم قال جلالاته من أراد أن يتطيب فليتقدم ! وتقدمنا للتطيب ، فقال جلالاته من أراد أن يتطيب فليصافحني ! فقد كانت يده الكريمتان مضمختان بالطيب ^(١) ، فتقدم الرفاق إلى مصافحة جلالاته ، وكان كلما انتهى من مصافحة أحدهم غمر يده فى الطيب مرة أخرى حتى يصافح بها غيره ، لأن جلالاته لم يقصد من المصافحة إلا أن يُطيب المصافحين !! وأقبل الرفاق جميعاً على مصافحة جلالاته والابتسام لانتفارق ثغره المشرق ووجهه المتهلل ، وهم جميعاً فى نشوة الغبطة والسرور من هذا العطف الملئى الكريم الذى يدل على أرق صفات الخالق الكريم .

وتقدمت من جلالاته مصافحاً ، ثم قلت إن سلاماً واحداً لا يكفينى !! ولا بد من تكرير السلام على جلالتكم ! وكان المقصود من هذه الدعابة الإشارة إلى الطيب ، وإلى الاستزادة منه ، فقال جلالاته سلم كما تشاء وصافح كما تريد ، فكررت مصافحة جلالاته وتفضل فضمخ يدي وغمرها بما فى يديه من طيب أريج ! وظللت

(١) من عادات جلالاته كثرة الطيب وعلى الأخص بعد الطعام ، ومن أكرم عاداته أنه يصافح ضيوفه وكبار رجاله بما فى يده من طيب . فتطيب نفوسهم قبل جسومهم بعبيره الزكى الفياح .

واقفاً خلف جلالتة أراقب ذلك المنظر الشائق الخلاب عن كُثْب حتى انتهى جميع الحاضرين من التطيُّب بتلك المصافحة والسلام . وبعد ذلك أديرت القهوة العربية مرة بعد مرة ، وجلسنا في استراحة قصيرة ، ثم نهض جلالتة وأمر باستئناف السفر ، وركب سيارته الملكية وظل فيها وانتظم الموكب جملة واحدة كالعادة في كل مرحلة من مراحل السفر .

وهناك ملاحظة نسيت أن أسجلها في محلها من سياق هذا الموضوع ، فإننا ساعة وصولنا إلى هذا الوادى ، وقبل أن يتم نزولنا من السيارات ، تفضل جلالتة وسأل رجال حاشيته أن يحصوا جميع السيارات التى فى معيته وعما إذا كانت قد وصلت جميعها أم تخلف منها شئ . لأى سبب من الأسباب ، فتبين من الإحصاء أن واحدة من السيارات لم تصل ، فأمر جلالتة فطيرت سيارة إلى عرض الطريق لتبحث عنها ، ولم تمض عشرة أو عشرون من الدقائق حتى كانت السيارة المسعفة والسيارة المتخلفة قد وصلتا إلى المكان ، وبعد ذلك أمر جلالتة بالقهوة والطعام .

وسار الموكب مدة ساعتين من الزمن فى سير هين تارة ومتواصل طوراً بين الوحد والخب ، فقد كان جلالتة يجدّ المسير فإذا وصلنا إلى روضة من الرياض المزهرة باليانمة وقف للتنزه واستنشاق الهواء واستعراض مناظر تلك الروضات ^(١) ، ثم يواصل الموكب سفره ، وهكذا دواليك .

وبعد العصر بقليل ، كنّا نجتاز روضة يانمة من أنضر الرياض ذات زهر أصفر اللون عبق الرائحة ، ولمح جلالتة إلى جانب الوادى شجرة كبيرة فأمر بالوقوف وقصد

(١) لاحظ بعض الرفاق أنه يوجد ذباب يتنقل على زهور الأغصان فى بعض الرياض ، فسألنى عن ذلك مندهشاً من أن يسمع طنين الذباب فى كبد الصحراء ، فقلت إن عنترة العيسى لاحظ ذلك وسجله فى يديته من الشعر فى سياق معلقته واصفاً إحدى الروضات حيث قال :

وخلا الذباب بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المتزنم
هزجا يحك ذراعاه بذراعاه قدح المكب على الزناد الأجذم

جلالته إلى تلك الشجرة وأمر بأن تفرش الأبسطة تحت ظلها ففرشت ، وأدى جلالته صلاة العصر وفي معيته جميع المسافرين ، وبعد الانتهاء من الصلاة أمر بمد موائد الطعام ، وكان الطعام في هذه المرة يختلف عن طعام الغداء ، فطعام الظهر كان أرزاً مطهيّاً باللحم ومأكولات أخرى ، ولكن طعام العصر ، كان مؤلفاً من خبز نجدى مدحوق كالرقاق يكاد يدفع نفسه إلى الأكل من لذة الطعم ، وإلى جانبه العسل والزبد والبسكويات وغير ذلك ، فتناولناه بشهية لا توجد إلا في كبد الصحراء ، وفي ثنايا الرحلات والأسفار ، ثم عدنا إلى مجلسنا تحت ظل تلك الشجرة الكبيرة الوارفة ، لتناول القهوة ، وكان جلالته ينثر على الحاضرين مداعباته ونكاته مدة نصف ساعة قضيناها في ذلك المكان !

ونفض جلالته للسفر وأمر بالمسير إلى المرحلة الأخرى ، وكانت على مسافة ساعة واحدة بلغناها قبيل المغرب بقليل في غير مشقة ولا عناء ، وكانت هذه المحطة في مكان يسمى « روضة بلال » وكانت الترتيبات قد سبقت إليها ، فها بلغناها حتى رأينا الخيام منصوبة ، والمضارب ممدودة ، والنيران مشتعلة للطهي ، والأنوار متقدمة للإضاءة ، وحركة الحياة تدب في ذلك الخيام طويلاً وعرضاً ، وقد أعد لكل فريق مكان من تلك المضارب في منازل متقاربة في طول الوادي وعرضه للمبيت فيه . وما كدنا نصل حتى كانت المغرب وشبكة الأذان فتوضأنا ، ثم نادى المؤذن إلى الصلاة بأذان جهورى هزّ صمت الصحراء وأطربها ، فهرعنا إلى مخيام جلالته لنؤدى صلاة المغرب في معيته ، وبعد الصلاة عاد كل فريق إلى مخيامه للاستراحة بعض الوقت !

وكنت منذ صباح ذلك اليوم ، أحس بدبيب من الفتور يتطرق إلى جسمي لا أدري أيرجع سببه إلى تعرضي لحرارة الشمس في النهار أم لبرودة الجو في الليل ولكن الفتور أخذ يزيد شدة بمرور الوقت ، وشعرت أنه من أثر التهاب أصاب الحلق ! وما كاد بعض الرفاق يعلم ذلك منى حتى صحبني رفيق كريم منهم هو الأستاذ عبد الرؤوف الصبان إلى خيمة الطبيب ، وهناك سألنا عن الطبيب فقل لنا إنه يحضر

الآن ، وانصرف رفبق يتجول في الخيام وبقيت برهة في الانتظار ، فقدم معالى الشيخ يوسف ياسين ، فقال لى ماذا أتى بك إلى هنا ؟ فقلت وما الذى أتى بك ؟ قال إنى مريض وأشكو من التهاب اللوزتين فى الحلق منذ أيام ، فقلت له وإنى كذلك مريض بهذا المرض ولكن منذ اليوم فقط ، ولأجل هذا قدمت إلى مكان الطبيب وما كنت أعلم بمرضك من قبل ، فكأننى وإياك كما قال أبو نواس :

إنى حممت ولم أشعر بجهاك حتى تحدث عوادى بشكواك

وكان الحديث عن أبى نواس فاتحة حديث طويل عن الأدب والشعر « وحولية نجد » وغير ذلك من أحاديث النفس ، وانتحينا جانباً من الخيام ، وأخذنا فى غسق ذلك الظلام نتساقى من عذب تلك الأحاديث رحيقاً شهياً مدة نصف ساعة وقدم الطبيب وأسمعنا بما عنده من العلاج ، وكان الطبيب هو الدكتور « رشاد فرعون » الذى لم تكن لى به معرفة إلا منذ هذه الساعة .

وعدت إلى الخيام ، وجلست قليلاً مع الرفاق إلى ما بعد الساعة الواحدة بقليل حيث جاء النفير الذى يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء فى مغيبة صاحب الجلالة ، أما كاتب هذه السطور فقد اشتدّ بى الانحراف فلم أستطع تناول العشاء غير أننى شهيدته ثم عدت أدراجى إلى خيمتى للاستراحة والنوم ، بعد أن أحسست بدبيب المرض يتدافع إلى جسمى ويتسابق إلى شرايينه وخلاياه .

وقضيت تلك الليلة فى نوم متقطع من بوارد الحمى ، وكانت الليلة باردة كأخواتها لاتمتاز إلا بعاصفة شديدة هبت وظلت على وتيرة واحدة طيلة الليل ، وما أكثر العواصف فى الصحراء سواء بالنهار أو الليل ، وما أكثر هبوب الصبا فى نجد ، تلك الصبا الباردة المنعشة التى خلّدت الشعراء بما قالوه فيها من بديع القول ، ورشيق الغزل ! وفى الصباح الباكر بعد الصلاة وبعد تناول طعام الفطور استأنف الموكب سفره

إلى الخرج التى هى بيت القصيد فى هذه الرحلة ! !

حول الخرج

كان الحديث عن الخرج هو الشغل الشاغل لأذهان طبقة كبيرة من الرجال في مكة ، منذ لفت النظر إليها معالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، عند البدء في هذا المشروع الزراعي الكبير المترامي الأطراف ، وكان أهم ما لفت الأنظار إليه في أول تأسيسه سفر وزير المالية إلى الخرج وعودته منها ورجوعه إليها ، وما أشيع من المعلومات الكثيرة الواسعة عن ذلك المشروع ، سواء منها ما جاء على لسان معاليه أو ما أسند إليه من الرواية ، وما تحدث به المتصلون به من الآراء والبيانات التي كانت تفضي في مجموعها إلى شيء واحد هو الإشادة بعظمة هذا المشروع وبما وصلت إليه مراحلها من التقدم السريع المبشر بالخير والنجاح . وظل أمر الخرج يتفاقم في أذهان الناس ومسامعهم بمرور الزمن ، وبتقدم المشروع مراحل جديدة في سبيل النجاح ، وبزيادة المعلومات التي أصبحت تذاع ويتناقلها الناس خصوصاً بعد أن كثر سفر معالي وزير المالية إلى تلك المنطقة وعودته منها واصطحابه بعض الموظفين وإدلائه بالأحداث المختلفة الشائقة عن عوامل تقدمها ونجاحها . وكان أول خبر رسمي يذاع عن منطقة الخرج ومشروعها هو تقرير فني مطول كتبتة البعثة العراقية الزراعية التي استقدمتها حكومة جلالة الملك من العراق للكشف على تلك الأرض واستخدام وسائل الفن الحديث في إنتاجها . وقد سجلناه في مكانه من هذا الكتاب لفائدة الرجوع إليه لمن يشاء .

وانقضت الأيام تباعاً والحديث عن الخرج ، يدور على الألسنة وتتناقله أفواه الرواة كلما جدّت مناسبة أو سنحت فرصة ! أو كلما وصل قادم من تلك المنطقة قد يستطيط بإصغاء المستمعين له ويبصر تشوقهم إلى الاستزادة من سماع أحاديثه فيفيض

في سرد المعلومات التي كثيراً ما تنتهى به إلى تدعيم أقواله بالأرقام عما وصل إليه المحصول ثمة من النجاح والإنتاج ، على أننا لم نكن نظن شيئاً من المبالغة في أقوال الرواة نظراً لما هو معروف عن خصوبة تلك المنطقة قديماً حتى قيل إنها ما سُميت « الخرج » إلا لأن محصولها كان « يخرج » إلى الحرمين الشريفين في أزمنة مختلفة من التاريخ القديم ، ورغم أنه مرت على تلك المنطقة سنة من النوم تبدلت حالها من العمران الزاهر والخصوبة اليانعة إلى الإفقار والجذب ، إلا أن إحياء المشروع على يد حكومة حضرة صاحب الجلالة وأتجاه المزعمة إلى إحياء مواتها ، ونهوض معالي وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان بتنفيذ رغبة جلالته ، ثم استخدام وسائل الفن والعلم في الأثمار والإنتاج ، كل ذلك لم يدع ظن المبالغة يتطرق إلى نفوسنا فيما كانت تسرده علينا السنة الرواة عن خصوبة الخرج وإنتاجه وأرقام محصوله ، والشئ الذي ثبت عندنا من تلك الروايات كلها ، أن في الخرج ما يشبه بحيرات الماء أى أن الماء متوفر بكثرة تضمن الري الزراعى على أحسن حال واقترن تصديق الروايات المؤكدة عن مياه الخرج وغزارتها بوقوع حادث رسخ في الأذهان بعد أن صرف الله شره ، فقد تصادف أن بعض حضرات أصحاب السمو الأمراء كانوا في زيارة تلك المنطقة فلما وصلوا إليها وقفوا بسياراتهم عند حافة العين الكبيرة التي يُستقى منها للرى ، ولأمر ما يريده الله ، تحركت السيارة من نفسها واندفعت إلى العين فابتلعها لجة الماء وغاصت إلى القرار ، ولحسن الحظ كان فيها واحد من الركاب أنقذه الله بأن ألهمه أن يقذف بنفسه منها قبل سقوطها إلى الماء !! وضاعت السيارة في اللجة وابتلعها ذلك اليم الزاخر الذي احتواها في أحشائه وضم بها على النور والحياة ، وقد كانت من الأسباب التي ترتبت على ذلك أن استقدمت الحكومة إخصائين من الفواصين ودفعتهم إلى سبر غور هذه العين ، فزلوا إلى ما استطاعوا النزول إليه من مسافات في الأعماق ، ثم عادوا لا بالسيارة ولا بخفي حنين ، ذلك أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى قراراتها ،

ولا إلى نهاية أعماقها ، وإنهم لو استطاعوا لعادوا بنجر ما ، فإما أن يعودوا بنبأ السيارة وما تأدى إليه مصرعها من التحطيم ، وإما أن يعودوا بخفيّ حنين بعد أن يكونوا سبروا غور العمق ووصلوا إلى نهايته ، فأما وأن ذلك لم يحصل فما كان هناك سوى الخيبة في الوقوف على حقيقة الأبعاد التي تصل إليها أعماق ذلك الماء ، ولقد كانت النتيجة الأخيرة هي المطلوبة لأن أمر الحصول على السيارة سليمة أو العثور عليها غير سليمة أمر ميثوس منه ولا أمل فيه ، وكذلك الشأن فيما يتعلق بخفيّ حنين التي يرجع بها - مجازاً - كل خائب الأمل ولم ترجع بها الحقيقة التي أضاءتها القرون الطويلة الخالية !!

كان هذا الحادث المزعج ، وعاقبته السليمة سبباً مباشراً في ذبوع المعلومات الواسعة عن حقيقة العميون في الخرج ، وما تنتجه من المياه ، فالبر التي تبتلع سيارة وتهضمها أعضاؤها ليست بئراً ، والعين التي تستنبد بعيائها كتلة من الحديد والخشب وتزدد لها لقمة سائغة ، ليست عيناً وحسب ، فلم يبق إلا أن نقول أنها بحيرة أو شبه بحيرة !!

وفي يوم من أيام آخر شهر محرم من ذلك العام - ١٣٦٠ - كنت خارجاً من وزارة المالية ظهراً ، فالتقيت بصديق الشاب الأديب ، والشاعر المستتر ، الأستاذ أحمد موصلي مدير مكتب معالي وزير المالية ، وركبنا السيارة معاً إلى أوتيل مكة ، حيث كانت سيارتي تنتظرني هناك ، وفي هذه المسافة الصغيرة التي قطعناها معاً كان الحديث يدور بيني وبينه عن الخرج ، ولا أدري ما هي المناسبة التي دفعتنا إلى ذلك الحديث ؛ لأن سفرنا ورحلتنا هذه لم تكن قد تقرر بعد وأظن أن المناسبة لذلك كانت سفر معالي وزير المالية في ذينك اليومين إلى نجد وكان المفهوم في ذلك الحين أن سفر معاليه إلى نجد ، معناه سفره إلى الخرج أيضاً لأنه من غير المعقول أن يزور

معاليه نجداً ولا يزور تلك المنطقة التي تيمته وأغرم بها كل الغرام وكرس كل جهوده لأجلها في ذلك الوقت .

وكانت خلاصة الحديث أنه سألني: ألم تكتب شيئاً جديداً عن الخرج؟! فقلت له ليس لديّ من معلومات جديدة عنها وإن أكثر ما نسمعه من المعلومات الأخيرة ليس إلا من أسنة الرواة ، وأسنة الرواة مهما تكون منزلتها من الثقة - وهم غير مسؤولين - بينها فارق كبير وبين الأرقام الرسمية أو الرايات الشبيهة بالرسمية ، وكاتب مثلي حين يريد أن ينشر أقواله على الناس لا يصح له أن يعتمد على الأولى دون الثانية!! فقال لي لِمَ لَمْ تسأل حضرات الموظفين الذين يخلطون إلى تلك المنطقة في مرافقة معالي وزير المالية؟! فقلت قد فعلت وقد سمعت منهم معلومات محدودة ليست هي بُلغة الكاتب المتعطش في إبراد معلومات شاملة للجُمهور الظالم!! فقال هناك معالي الوزير نفسه افتراه يضمن عليك لو سألته عن معلوماته في هذا الصدد ومعاليه هو جهينة تلك الأخبار؟ قلت لا ، فإن معاليه لا يضمن بذلك ، بل هو كثير الإفاضة في هذا الموضوع في كل مناسبة ولكن العقبة الكؤود ، هي أن تضع يدي على معالي الوزير! فأين هو الآن؟! هو في جدة ولكنك بعد قليل تسمع أنه في مكة ، ولا تلبث بعد ذلك أن تبحث عنه فتجده في الطريق بين مكة وجدة أولاً وتجده ، فإذا قدر لمعاليه تخليّة هذا الخط بين مكة وجدة ، فدونك والخط الثاني بين مكة والطائف ، فهو يوماً في الطائف وأياماً بين مكة وجدة ، وأياماً أخرى بين أرباض نجد وربوعها ، لا في بلد واحد ولا في مستقر واحد بل في جميع بادية نجد والاحساء ومدنهما الشاسعة الأمداء البعيدة الأطراف ، وقد لا يكون في كل هؤلاء فيكون في الظهران حيث تقوم مناجم شركة استخراج البترول هناك!! أفليس الحصول على رؤية معالي الوزير المشغول ، مشكلة دونها كل المشاكل ، ما لم تتح الظروف وجوده مصادفة في أي مكان ما من هذه الأمكنة؟! وانتهى الحديث بيني وبين صديقي

الأستاذ أحمد موصلي بأن قال لي «إذا يجب أن تذهب بنفسك إلى الخرج ، وتراها وتكتب عنها ما تراه ، فقلت له هذه هي النتيجة التي أريد الوصول إليها من هذه المحاوراة ! فهل يقدّر لي ذلك ، قال سيقدر إن شاء الله » ولم تسكن رحلتنا إلى نجد قد تقرر بعد ، وحدث بعد يومين أن حضر معالي الوزير من جدة فقصى يوماً في العاصمة ، وغادرها بليل إلى الشرايع ومنها إلى الرياض .

والغرض من إيراد هذه القصة القول بأن سفرنا إلى نجد لم يكن قد تقرر إلى تلك اللحظة ! حتى في الساعة التي ودعنا فيها معالي الوزير وهو مسافر إلى نجد أو إلى الخرج التي هي هدف القول في هذا السياق . ولكن بعد يومين اثنين من ذلك الموقف وبعد بضعة أيام من الحديث الذي جرى بيني وبين الأستاذ أحمد موصلي مدير مكتب الوزير عن الخرج ، أراد الله أن يصبح حقيقة واقعة ملموسة دانية التحقيق ما كنا نظنه محالاً بعيد الوقوع ، فها هو ذا سفرنا إلى نجد قد تحقق وصدر به الأمر السابق الكريم ، وها نحن في نجد وعمّا قريب سننحظى برؤية الخرج التي طالما أحسستنا بلوعة الشوق إليها والوجد بها .

وما كنا نعلم أنه سيكون من برنامج زيارتنا لنجد أن نزور منطقة الخرج ، ما كنا نعلم ذلك من قبل ، ولسكني بيني وبين نفسي ، كنت مصراً على التطفل بعد الوصول إلى نجد في طلب الإذن بالسماح لي بزيارة تلك المنطقة إن لم يكن الترتيب قد سبقنا إلى إقرارها ، وكانت حكمة جلالة الملك المعظم قد سبقتنا إلى اتخاذ ذلك الترتيب فكفتنا مؤونة ذلك التطفل الذي كنت أتحاشاه !!

قلت فيما سبق من الكلام ، في الليلة التي أمضيناها في « روضة بلال » إنني التقيت بمعالي الشيخ يوسف ياسين ودار بيننا حديث - والحديث شجون - عن مختلف الأغراض والشؤون ، وكان فيما دار بيننا من الحديث قول سعادته « سنشاهد غداً



سعادة الشيخ عبد الرؤف الصبان
أمين العاصمة ومدير الأوقاف العام



فضيلة الشيخ عبد الله الشبي
فأخ بيت الله الحرام



المؤلف



الأستاذ ابراهيم السويل
سكرتير المفوضية العربية السعودية بمصر

أعظم مشروع انضمت عليه جوانح هذه المملكة ، بعد مشروع استنباط البترول الذي تعرفه ! » فقلت لمعالیه مندهشاً : إننى أخشى المبالغة فيما تقول ، فإذا تعنى ؟ ! قال أعنى الخرج التى ستشاهدها غداً فى مشروع خصب وفير الثروة ، كثير النماء ، داني القطوف ، وإن وزير المالية بذل فى خدمته مجهوداً محموداً حتى وصل إلى ماصار إليه من الإنتاج ، ولا سبيل للمبالغة فيما أقول ، فنحن نصل إليه فى الصباح الباكر وستشاهده بعينى رأسك !! وهنا لذت بالصمت عن الجواب ، ولجأت إلى السكوت للخروج به عن النفي والإثبات ، ذلك لأننى واثق بما يقوله رجل كبير المكانة كالشيخ يوسف ياسين ، ولا أعرف عليه مبالغة ولا تهويلاً ، ولو إننى سمعت هذا القول من شخص آخر غيره ، لما قابلته بمثل ذلك التسليم . أما وقد سمعته بأذنى من الرجل الذى أعرفه ولا أجهل مكانته الشخصية ولا أجهل مكانته الاجتماعية ، وهو الرزين الذى لا ينطق إلا بمقدار ، ولا يتكلم بغير الحقيقة ، فلا سبيل إلا إلى التأمين على مايقول ! أو الصمت وهو من علامات التأمين أو الرضا كما يقولون ! وسكت وأنا أشد وثوقاً بما كنت أسمع وأعرف من الأنباء عن « الخرج » بعد أن زكاه عندى رجل من أصدق الرجال وأبرزهم ، ومالى لا أصدقّه وليس بينى وبين مشاهدة مايقول غير سواد ليلة أو بعض ليلة !!

وفى الصباح الباكر من يوم الأحد ٢٥ صفر تحرك موكب حضرة صاحب الجلالة قاصدين إلى الخرج ، وكانت كلما اقتربت مسافات الرحلة ، وكلما قطعنا مرحلة من الطريق ، زادت النفس شغفاً بالشوق إلى رؤية الخرج ، وما لنا لا نتمجّل الوصول إلى مكان يقودنا إليه حضرة صاحب الجلالة قاصدين إلى تلك الغاية التى خفقت من أجل

تحقيقها نفوسنا ، وهفت إلى رؤيتها قلوبنا قبل أن ترنو أبصارنا . أفنحن في حلم أم في يقظة ؟ وهل هوسبات أم صحو ؟!!

وكان موكب جلالة الملك يقطع المسافات على سيره المعتاد ، فهو حيناً وثيد ، وحيناً غير وثيد حسبما تقتضيه طبيعة الأرض ، أو تقتضيه مناظرها الخلابة وما فيها من بواعث الفتنة والجمال والتريث بين تلك الروضات المبعثرة ، أو بين أناس يقفون إلى جانب الطريق فيقف الموكب لوقوفهم طيلة المدة التي يتفضل فيها جلالتهم بالسؤال عنهم وتقصى أحوالهم والسؤال عن حاجياتهم ، ونفحهم بما يشرح صدورهم ويبهج نفوسهم من الغضة البيضاء اللامعة التي توجت باسمه الكريم ، وجعلها الله فرجاً للناس من الضيق ، ومخرجاً لهم من الضنك ، ووقاء من الحاجة !!

وأخيراً أقبلنا على عمران أو شبه عمران ، فقد بدأنا نبصر طلائع الناس المجدنين المشتغلين ، الناس الذين يزرعون الحقول وكلهم أمل ، ويمجنون الحصاد وكلهم ثقة ، وبدأنا نبصر السواد ، وما أدراك ما السواد ؟!! فعلمنا أننا أوشكنا أن نصل إلى غايتنا ، فقد بدأت طلائع العمران ، والعمران في الصحراء ليس هو في بناء القصور ، ولا إعلاء الدور ، ولكنه في تلمس ديب الحياة حين تحس ديبها ، أو في تحسس مظاهرها حين تبصر مناظرها ، وديب الحياة في الصحراء الجرداء يتلمسه المسافر في أبسط الحركات ، ومظاهر الحياة في البداء ، يتحسسها الضارب في كبد الصحراء ، في أهون مظاهر ألوانها وحركاتها !!

وفي هذه اللحظة اشترأبت أعناق المسافرين إلى اجتلاء طلعة ذلك السواد ، لما كان يبشر به من الوصول إلى العمران ، ولما كان فيه من مظاهر الخصوبة البادية ، التي لولاها لما أبصرت آدمياً واحداً من أولئك الناس الضاربين في هذه البداء ، وهي لا تحمل من معنى الصحراء غير اسمها ، أما هي في حقيقتها فكان خصب جميل يكاد يُسلمك منظره إلى تذكر أية قرية من قرى الريف الوارف في مصر وغير مصر من بلاد الأنهر المتدفقة ، وهذا ما شعر به الرفاق جميعاً وما تحدثوا به وما أطلقوه من الوصف على مستهل الخرج في مرآها الأول .

إلى زرقاء اليمامة

أقبلنا^(١) على الخرج من بعيد ، فسكنا أقبلنا على قرية خصبة من قرى الريف الخصب ، ورأينا آثار تلك الحصوبة تتجلى فيما نشاهد من مزارع وحقول ، وكان ذلك المنظر يختلف في مشهده وعلاماته عن سائر ما رأينا من بوادي الصحراء ، لأن دلائل الحياة والإنعاش في تلك الصورة الرائعة لها مظهر يبعث في نفس رائيها اليقين بحقيقة خصبها ، أما البادية الجرداء أو المعشوشبة فرآها في العين يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فنحن إذ نقبل على الخرج ، لانشك أننا نقبل على قرية أهلة بالسكن والحصوبة وال عمران ، فهؤلاء المزارعون منتشرون من مسافات بعيدة ، وعلى مساحات مختلفة . ترى فيهم روح الحياة والنشاط والعمل ، وتلك مواشيهم وأباعرهم وغيرها من الدواب ، تشاركهم الدأب والسعي والعمل والإعمار والإنتاج ؛ وفي تلك الحالة الزاهية الناضرة لا ترى للفقر شبحاً ولا تشعر برثاء أو إشفاق نحو أولئك السكان ، كما هو الشعور نحو غيرهم من أعراب البادية الرحل الذين يعيشون على التنقل في طلب العشب واصطياد السكلا والمرعى ، وانتجاع الغيث من مظاهره ومراميه السحيقة غير

(١) هذا القسم الجنوبي الشرقي من نجد هو المعروف قديماً باسم اليمامة ، واليمامة معروفة منذ القدم بالحصوبة الزاهية ، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عبد الوهاب عزام في كتابه « مهاد العرب » بعبارات تقتطف منها : وقد ضرب المثل بكثرة نخيلها كما قال أبو العلاء « وجدت العلم يبعد أ كثر من الجريد باليمامة » وفي الجنوب الغربي من وادي حنيفة إقليم الخرج وهو من أخصب بقاع نجد وقد عني به جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فاستخرج مياهه بآلات عظيمة وهو يمتد ثمانين ميلاً في خمسين

وكانت في اليمامة منازل طسم وجديس من قبائل العرب البائدة ، وكذلك قصة زرقاء اليمامة التي كانت تبصر من مسافة ثلاثة أيام وقد ضرب بها المثل في الأشعار والأخبار ، وهناك قرية منفوحة التي كان يسكنها الأعشى وفيها دفن ، وقال الشيخ يوسف ياسين إن بيت الأعشى معروف فيها إلى اليوم

المستقرة ، بل إنك لتنبط أولئك السكان المستقرين بين الخصوبة وبين وسائل الحياة المواتية ، الريفية الجميلة المستقرة .

وكان أول ما شهدناه من أسباب الخصوبة في الخرج ، مجرى عين ماء يقع على مسافة ميل منها ، وهو مجرى مستقر بالبناء ، وموطأ في ناحية من نواحيه لاجتياز السيارات ، إذ هو يعترض طريقها ، وقد قال لنا حضرة صاحب الجلالة الملك فيما بعد أن جلالته والده الإمام عبد الرحمن رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، هو الذي أصلح مجرى ذلك العين وأقامه للانتفاع بمياهها في الري والسقيا هناك ، وكنا كلما نقرب من المدينة الزراعية ، كلما رأينا نشاط مظاهر الخصوبة تدنو إلينا أو ندنو منها حتى أصبحنا وجهاً لوجه أمام حدائق غناء نثرت فيها شجيرات النخيل ومن بينها الزروع الأخرى من شجيرات الفاكهة ، وبين ذلك كله قنوات عريضة تجري فيها المياه ، كأنها فروع من نهر ، كما هو الشأن في توزيع مياه الري والسقيا في بلاد الأنهر الزراعية . وبعد دقائق معدودة رأينا أنفسنا أمام قصور شاهقة ، ومبانى عديدة متفرقة فعلمنا أننا ألقينا عصا التسيار ، وأن هذه هي ضالتنا من الرحلة . ولم يطل بنا التفكير حتى وقف الموكب ، أمام القصر الملكي الذي أعد لنزول جلالته ، حيث شرف إلى الطابق العلوى ، ومن في معيته وقصد إلى مجلسه الحفيل ، وهو عبارة عن غرفة كبيرة المساحة لا يقل طولها عن عشرين متراً في عرض ثمانية أمتار .

وتفرق من في معية جلالته على غرف القصر وأبهائه الفسيحة وهم يبلغون المئات من الأشخاص ، وهناك في يمين القصر شرفة مكشوفة تواجه الهواء ، يتألف منها مجلس يزيد طوله عن العشرة أمتار ولا يقل عرضه عن الأربعة ، وهذا المجلس بتلك الشرفة يفصل بين غرفة الاستقبال الكبرى في القصر وبين غرفة الطعام ، وكلاهما في مساحة واحدة ، وكانت تلك الشرفة بمثابة مجلس استراحة لتناول القهوة ، بالنظر لجودة موضعها وتعرضها لطلاقة الجو ورقة الهواء الشمالى الذى يهب من ناحيتها .

جلس جلالتة في صدر المجلس ومن حوله الحاضرون ، وكان جلالتة على مسجتيته في مكارم الأخلاق ، يؤانس ضيوفه بطيب حديثه ، وما هي إلا دقائق حتى حضر إلى المجلس الشاب النشيط « سليمان الحمد » نبجل سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية ، يدعو جلالتة إلى تناول طعام الإفطار .

و « سليمان الحمد » هو النجل الأكبر لسعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية وهو شاب مثقف ذكي في الحلقة الثالثة من حياته - كما أظن - وقد سبق أن أوفده والده إلى بيروت لتلقي العلم في جامعاتها فمكث مدة غير قصيرة اغترف فيها من مناهل العلم ما شاء له الله أن يغترف ، وقد حال دون رغبة والده ورغبته في مواصلة التعليم إلى نهايته انحراف طراً على عينيه فنصححه الأطباء بالعدول عن مواصلة القراءة والكتابة بالمجهود الذي يخشى من تأثيره على بصره ، وبعد ذلك ترك معاهد العلم في لبنان وسافر إلى القاهرة فقفى فيها بعض الوقت ، ثم قفل إلى بلاده راجعاً . وقد رأى فيه حضرة صاحب المعالي الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، مخاض النجابة والذكاء ، بعد أن تزود بما استطاع أن يتزوّد به من التعليم والثقافة ، فمهد إليه ببعض الأعمال الإدارية في الدوائر التابعة لوزارة المالية ، فكانت إدارته لها كفاءة بمضاعفة الثقة في حسن تصريفه للأعمال ، فانتدبه عمه - وزير المالية - إلى الحضور للخروج ، وظل فيها مدة من الزمن ناهضاً على تصريف الأعمال والإنشاء والإدارة حتى اكتسب درجة واسعة ومراناً عظيماً ، وأصبح فيما بعد الساعد الأيمن لعمه في القيام بالأعمال الإدارية المتعلقة بزراعة الخرج وريه وسقياه . وكان من المصادفات أن معالي وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان سافر من الخرج هذه إلى منطقة الإحساء لأعمال هامة ، فلم يشهد تشريف جلالة الملك إلى الخرج ، وإنما كان فيها « سليمان الحمد » ابن أخى الوزير ، وهو الذي تشرف باستقبال حضرة صاحب الجلالة

الملك، وهو الذى كان يقوم بخدمة جلالته ، والسهر على راحة الوفود وإكرامهم طيلة الأيام التى قضاها جلالته فى الخارج .

ولقد ظهر لسليمان الحمد فيما بعد شأن كبير فى إدارة أعمال كثيرة عهد بها إليه ، وطدت من كفاءاته وجدارته بالنهوض بمختلف الأعباء ما أثلج صدور محبيه وأصدقائه من كانوا يتوسموت فيه ذلك ، ويترقبون له النجاح كما أنه زار مصر مرات عديدة ، واختلط بأكثر أوساطها الراقية ، وبيئاتها الكبرى فكان موضع الإعجاب والتقدير حيثما حل لما كان يبدية وهو فى سنه المبكرة من رجولة صادقة لفتت إليه أنظار الإعجاب والتقدير ، وفد زار مصر أخيراً فى معية حضرة صاحب الجلالة الملك وأنعم عليه جلالة الملك فاروق الأول بنديشان اسماعيل .

وبعد الانتهاء من الإفطار وتناول القهوة أذن جلالته لضيوفه ورجاله بالانصراف إلى الأماكن المخصصة لنزولهم للاستراحة من عناء السفر ، وقال جلالته « إننى أدعوكم أولاً إلى المواظبة فى الحضور إلى فى مواعيد الطعام للفقور والغداء والعشاء لتتناوله معاً ، ثم أدعوكم بصفة عامة إلى زيارتى فى هذا المكان فى أى وقت من أوقات النهار والليل من غير قيد ولا شرط ، ومن غير إذن ولا حجاب ، فأنا هنا معكم وأنتم معى ، وليس لنا من عمل يججبى عنكم أو يججبكم عنى ، وما حضرنا إلى هذا المكان إلا للتنزه وتفريح النفس والاتصال ببعضنا ، فى أى وقت تشعرون فيه بالرغبة فى زيارتى فلتتفضلوا ، سواء كلكم جميعاً أو بعضكم ، ولا تتقيدوا بأى قيد مطلقاً ! » فشكرنا جلالته جلالته على هذا الخلق العظيم والعطف الذى لا مزيد عليه .

غادرنا قصر جلالته - الحديث - إلى القصر الأول الذى كان يسكنه ، والذى أعد فيما بعد لاستقبال الضيوف وهو على مسافة مئات قليلة من الأمتار من القصر الآخر ، فنزلنا فيه جميعنا كل فريق فى جناح بحيث اتسع لنا من غير ضيق ولا تراحم ، فقد كان القصر مؤلفاً من أجنحة مستقلة ، فسيحة الأرجاء ، متسعة الغرف ، متعددة

المنافع ، فرش كله بالأبسطة الجميلة فراشاً بسيطاً ليس فيه أى شيء من مظاهر التكلفة ، وأعظم ما فيه من مظاهر الكمال فى حسن الاستعداد أنه مضاء بالكهرباء ومن أين لك بضوء الكهرباء اللامع فى صميم تلك البادية المفصولة عن العمران بعشرات المئات - أو بمئات العشرات !! - من الأميال . إن الكهرباء زينة فى صميم العواصم وكبريات المدن ، فما بالك بها فى صميم الصحراء وقلب البادية ، أليست زينة الزينات ، وأعظم مظهر من مظاهر الكمال العمرانى البهيج !!؟

وبعد أن قضينا ساعات عديدة فى الاستراحة والاستجمام غادرنا نزلنا إلى قصر حضرة صاحب الجلالة لتناول طعام الغداء فى معية جلالته ، وعدنا إلى نزلنا للاستراحة إلى العصر . وفى الأصيل أرسل جلالته فى طلب الوفود جميعها ، فلما تشرفت بالثول بين يدى جلالته امتطى سيارته وهم فى معيته فقصده بهم إلى الحقول والمزارع المترامية الأطراف حول الخرج ، وبعد جولة واسعة حولها جلس جلالته فى مكان وارف الظلال للتمتع بمباهج الجو وجماله ، ثم نهض منصرفاً إلى قصره العامر ، واستأذن الجميع فى العودة إلى نزلهم ؛ وبعد صلاة المغرب جاء الرسول الذى يدعو الوفود إلى تناول طعام العشاء على مائدة جلالته . فقصدوا إلى القصر العامر لتناول طعام العشاء وتناول القهوة والسمر قليلاً إلى الساعة الثالثة حيث يقفلون راجعين إلى نزلهم فيتممون السمر إلى السحر ، ويظلون فى حديث ممتع ، كل جماعة وجماعة أو يتبادلون الزيارة فى أجنحة القصر وأروقته الفسيحة التى شِعَّ فيها ضوء الكهرباء . وكان هذا هو « نظام الإقامة » اليومى فى الخرج .

الزراعة في الخرج

نسوق فيما يلي بعض المعلومات عن الزراعة في الخرج ، فهي تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، الأول هو الغلال والحبوب ، وفي مقدمتها « القمح » والقسم الثاني ، هو الفواكه بأكثر أنواعها وفي مقدمتها الموالح ، والقسم الأول هو الأكثر إنتاجاً لما هو معروف من قصر المدة التي يحتاج إليها نضوج الحبوب وأثمارها وذلك غير القسم الثاني الذي هو بطيء الإنتاج في سنته الأولى هو قسم الفواكه والموالح لما تحتاج إليه من زمن طويل قد يبلغ بضعة سنين في بعض الحالات ، وهو قد أنتج على كل حال ولكن إنتاجه لم يصل بعد إلى الحصد الذي ينتظر ، وسيصل إن شاء الله إلى غايته القصوى بمرور الزمن .

أما القمح والحبوب ، فقد حصد ثمرها منذ ثلاث سنوات^(١) ، وهذا الثمر يتضاعف عاماً بعد عام ، بمضاعفة الجهود المتوفرة على خدمته وإنتاجه وحصاده ، وبحسن استخدام الجهود الفنية في الري وتنظيمه وتوزيعه على حسب الحاجة ومقتضاها ، وبحسن إدارة العمل في تنظيم تلك الجهود وتوجيهها إلى الناحية الأكثر إنتاجاً واستثماراً . وقد بلغ محصول ما حصد من سنابل القمح ، في مدة موسم واحد من مواسم أحد الأعوام ، حوالي عشرين ألف صاع ، وقد أخذت تلك الكميات تزايد في أرقامها منذ ذلك الوقت ، بمناية الله تعالى ، ثم بفضل الأسباب الأخرى التي ذكرناها آنفاً ، حتى ارتفع المحصول من ذلك الرقم إلى مضاعفات أخرى ، هي بلاشك في طريقها إلى الزيادة المضطردة بمرور الزمان ومضاعفة العمل فالقمح في سنابله كان

(١) هذه الكلمات كتبت عام ١٣٦٠ هـ - ١٩٤٠ م . ولا شك أن الحالة الزراعية العامة في تلك المنطقة تقدمت كثيراً عما كانت عليه في ذلك التاريخ البعيد .

كاملاً ومهيئاً للحصد في المرة التي زرنا فيها هذه المنطقة وكنا نتجول بالسيارة في قلب مزارع القمح ، في طرق خاصة مخططة لمرور السيارات تفصل المربعات المزروعة ، وكنا كلما انتهينا من مزرعة أو حقل ، قصدنا إلى مزرعة أخرى أو حقل آخر ، في أى اتجاه نريد ، فقد كنا محاطين بالحقول والمزارع من جهاتنا الأربع ، لا يفصلنا عن الزرع غير تلك المربعات الهندسية التي نظمت بها الحقول وخططات فيها طرق السيارات وغير السيارات ، من المشاة والمزارعين ، وكذلك الشأن فيما يتعلق بالرى في سقيا الزرع ، فقد أنشئت للرى خطوط فنية بعضها أشبه بقنوات الماء المتحدر من الأنهر والجداول الكبيرة وبعضه في أنابيب صناعية تصل الماء إلى المجرى المقصود ومنه ينحدر على حسب الرغبة إلى المزرعة المراد سقيها ، وكفه عن المزرعة المرتوبة ، ولا شك أن نظام توزيع المياه بين المزارع ، نظام دقيق يرجع إليه العامل الأول في كيفية النهوض بإدارة الزراعة إدارة فنية ناجحة بإذن الله ، ذلك لأن الماء هو الذى يقول الله فيه « وجعلنا من الماء كل شيء حى » ومن هنا وجبت الدقة في توزيعه على قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان ، فكما أن الزيادة في شرب الماء بالنسبة للآدميين أو المزروعات توجب التلف - والماء يشرق بالزلزال البارد - فكذلك النقص فيها يؤدي إلى نفس النتيجة من الهلاك .

وقد انتفع كثيراً بالمحاصيل الزراعية في الخرج ، إذ لا يخفى أن إنتاج كمية كبيرة كهذه الكمية من الزراعة ، والحبوب على الأخص ، لها أكبر الأثر في تموين العدد الهائل من السكان ، فالحبوب هى الغذاء الأساسى للناس ، وتوفير إنتاجها في مكان قريب مثل ذلك المكان يكفل تموين المنطقة التي حولها من مناطق نجد ، وعلى الأخص العاصمة النجدية - الرياض - التي لا تبعد عنها بأكثر من عشرات الأميال ، ووسائل النقل متوفرة غير عسيرة بجميع أنواعها ، إذ يمكن إرسال سيارات الحمل الكبيرة التي تحمل بضعة أطنان من الحبوب فتنقلها إلى أى جهة أريد النقل إليها ، كما أن

وسائل النقل الأخرى على الدواب وفي مقدمتها الجمال متوفرة أيضاً وسهلة التناول إذا لم يكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى السرعة والتعجيل . وما نقوله عن الحبوب يمكن أن نقوله عن الفواكه المختلفة الأنواع . مما ينتج في مزارع الخرج ، فالفواكه في هذه البلاد - وفي غيرها أيضاً - مادة رئيسية من مواد الغذاء ، كما أنها مادة رئيسية من مواد الثروة الزراعية لما تباع به من الأثمان ولا تجاه الطلبات إليها في قوانين العرض والأسواق .

وتتجلى أهمية الزراعة في هذه المنطقة إذا قيس محصولها إلى جانب ما استورده البلاد باستمرار من نظائره من المحاصيل العالمية من الخارج ، وفي الظروف التي يتعذر فيها استمرار النقل المتصل بين الأقطار البعيدة وبعضها كما وقع في ظروف الحرب العالمية الماضية التي اجتازتها هذه البلاد وقاست محنتها إلى أقصى حد^(١) ، لذلك تضاعفت المهمة في العناية بزراعة الخرج وبارك الله في تلك المهمة بنجاح مجهوداتها ومواناة ثمرها حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن في مدة قصيرة من الزمن ، ينتظر أن تصل إلى أضعافها المضاعفة في السنوات القليلة من الزمن إن شاء الله .

وكان من أسباب نجاح هذا المشروع ، تنظيم الري لسقيا الزراعة ، ذلك بأن مجرد وجود الماء في منطقة من المناطق ، لا يكفي لخصوبتها إذا لم تكن هناك الأيدي العاملة التي تقوم بما تستوجبه الزراعة من حركة ، وإذا لم تكن هناك أدمغة مفكرة في استنباط أقرب الطرق وأنجمها لاستغلال ذلك الماء والانتفاع به في أوسع صورة وعلى أكبر منوال ، في ري الأراضي وسقيها وإحياء موائها والرجوع بها من حالة الجذب إلى حالة الخصب والنماء والازدهار . وإلا فالأمر وحده من غير عمل يدوي أو تفكير إنساني ، شيء عديم الجدوى إذا فاض عن حاجة الإنسان بل هو أداة من

(١) المقصود بها الحرب الكبرى الماضية التي نشبت عام ١٩١٤ م .

أدوات التلف بالنسبة لكل شيء إذا أسيء استعماله ، على حد قول الشاعر : « لو بغير الماء حاقى شرق !! » .

لذلك استقدمت حكومة جلالة الملك المعظم بعثة من المهندسين والعمال الفنيين من العراق ، ثم من مصر لاستغلال ذلك الماء وصرفه في أوجه النفع من الري والسقيا حسبما تقتضيه الحاجة ، وقد زادت عناية حكومة جلالة هذا الجانب الخصيب من المملكة ، واستقدمت له بعثات خاصة في الزراعة وشؤون الري وما يمت إلى ذلك بالصلوات ، فتقدمت كلها وازداد نماؤها وخصبها وربها ، ولا زال المأمول أن يتضاعف الإنتاج لا تسده محصولاته من حاجات السكان الغذائية ، ذلك إلى جانب الرفاهية المترتبة على خصوبة منطقة كبيرة كهذه المنطقة ، وما ينتفع به أهلها وغير أهلها من المحيطين بها ، من رفاه العيشة وخصبها .

والكلام عن الزراعة في الخرج ^(١) ، يدعونا إلى الكلام عن المياه في تلك المنطقة ، الخصوبة والجذب ، وقد تقدم فيما سبق من الكلام وصف موجز لبعض مياه الخرج وأخصها العين الكبيرة التي تسح بالماء المتواصل الذي نهض عليه مشروع الري في تلك المنطقة ، وزيد في هذا المكان أن ندلى بعلوماتنا عن ماء الخرج .

لقد وجدت العين الرئيسية في الخرج ، وهي عين « سمحة » وكان عليها كل الاعتماد في الري والسقيا لأنها أكبر العيون ، وكان سحب الماء منها بالطرق الابتدائية المعروفة فلما وجد المشروع الفنى وأحاطته عناية حضرة صاحب الجلالة الملك وأمر

(١) جاء في كتاب قلب جزيرة العرب لسعادة فؤاد بك حمزة عن « الخرج » في صفحات متفرقة ما يأتي : تسكن قبيلة آل مرة في منازلها الممتدة من جنوبى الطريق بين الحسا والرياض إلى جهات الخرج والعقير ، وقد استولى جلالة الملك على هذه المنطقة في تأسيس ملكه في معركة حاسمة عام ١٣٢٠ هـ . وقعت في نخيل بلدة الدلم بعد معارك مختلفة بين آل سعود وآل رشيد استمر أوارها في كثير من سنى القرن الماضى .

بذلك معالى الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية ، اهتم معاليه كل الاهتمام بأعمال الزراعة فى الخرج ، وكان من آثار ذلك أن استقدمت حكومة جلالة الملك بعثة فنية من العراق قضت مدة من الزمن فى معاينة تلك المنطقة معاينة « جيولوجية » وكتبت تقريراً بنى على الخبرة والمعلومات الصحيحة . عما يجب عمله فنياً لاستغلال هذا الوادى الزراعى الخصب .

وفى الخرج كثير من العيون والآبار سندكر عنه بعض المعلومات فيما يلى (١) :

١ - « عين سمحة » التى تقدم ذكرها وقد ركب عليها ثلاث طلمبات لسحب الماء ويسحب منها مقدار (٦٠٠٠) ستة آلاف جالون فى الدقيقة الواحدة .

٢ - « عين أم خيسة » وقد ركب عليها ما كينة قوة ٢٢ حصان وهى تسحب من الماء مقدار (٨٠٠٠) جالون فى الدقيقة الواحدة .

٣ - « بئر نبعة » وهى بئر حفرها معالى الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، وقد ركبت عليها ما كينة قوتها ١٦ حصاناً ، ومقدار مايسحب منها من الماء هو ٦٥٠ جالون فى الدقيقة الواحدة .

٤ - « بئر قطيعان » وقد حفرها الشاب النقيب سليمان الحمد ، وركب عليها موتور قوة ٣٠ حصان تشتغل مدة ساعتين فى اليوم ويسحب منها من الماء ما مقداره ٨٠٠ جالون فى الدقيقة الواحدة .

٥ - « بئر العوينة » وقد حفرها معالى الوزير الشيخ عبد الله السليمان وركبت

(١) أسلفنا القول فيما تقدم أن المعلومات والأرقام الآتية الذكر هى سابقة العهد ، فقد سجلت فى عام ١٣٦١ هـ ١٩٤٠ م . ولعل الحال الآن قد تغير بتطور الأحوال وتقدمها .

عليها طلمبة فوهتها ١٢ بوصة وموتور يسحب الماء بمقدار (١٥٠٠) جالون في الدقيقة الواحدة وهي غزيرة الماء باستمرار .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه الآبار ، يسحب الماء منها مدة محدودة من أوقات النهار بحسب الحاجة إليها ، ولكن العين الرئيسية الآنفة الذكر ابتدئ سحب الماء منها بالما كينة التي ركبت عليها من يوم ٥ شوال عام ١٣٥٨ هجرية وهي منذ ذلك التاريخ لم يقف سحب الماء منها ليل نهار ، ذلك بأنه متى أوقف سحب الماء بضع ساعات تطفح العين ويفيض الماء منها .

ومن الضروري أن توقف الماكينة مدة خمس ساعات مرة في كل شهر لتنظيفها ومسحها وتفقدتها ، وفيما عدا ذلك فالماكينات تشتغل في مواصلة سحب الماء من تلك العين منذ ذلك التاريخ الذي ذكرناه من غير توقف ولا ركود .

ومما تحسن الإشارة إليه ، أن الماء يصب من العين الكبيرة الآنفة الذكر أو على الأصح من طلمباتها في مجرى واسع عميق يصل غمق الماء فيه إلى متر ونصف ، والمجرى نفسه ينزل عن سطح الأرض في نفق طبيعي مقدار ثلاثة أمتار ، وجوانب هذا المجرى تشكّل حائطين طبيعيين مرتفعين ، وقد سقّف سطحهما بسقّف صناعي جعل جانباً منه في وقاية من الشمس ، وقد أقيم على سطح ماء المجرى مباشرة دكة من الخشب مثبتة في حائط المجرى ، وهذه الدكة قد فرشت بالبسط النفيسة وجعلت مكاناً لاستراحة جلالة الملك عند تشريفه هناك ، وقد جلسنا في ذلك المكان أكبر مدة استطعنا أن نقضيها فيها ، وغادرناها ونحن أشد ما نكون شوقاً إلى إطالة الجلوس فيها بله إلى عدم مفارقتها بالرة ، فهي جلسة سحرية شعرية لا يستطيع القلم وصفها لبراعة مناظرها الخلابة الساحرة وما فيها من أسباب الاستجمام والهدوء ، ولواستطاع القارئ أن يتصور المعنى الذي قصدت إليه من تصويري ذلك المكان اشاركني

الشعور الذى كان يدفعنى إلى الجلوس وعدم المباحرة ولعلنى أكون على وتيرة الشاعر الذى اتهم بالفهاة والعمى فيما تقدم من الزمن حين وقف على منظر كهذا المنظر فلم يستطع وصفه إلا ببيت من الشعر اعتبر مثلاً فى الفهاة والعمى حين قال وحين كان كما كنا - :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء !!

وقد ظل وصفه الساذج هذا ، موضع دعاية القرون والأجيال ، ولكن مالى أنهم نفسى وأجارى من سبقنى فى اتهام الشاعر المتقدم ، وقد جاء شاعر أوربى محدث فقال مثل ما قال زميله العربى ، ذلك أن « لأمارتين » الشاعر الفرنسى الشهير ، بل أرق شعراء العاطفة فى فرنسا فى الجيل الماضى ، كان فى رحلة كبيرة أو صلته إلى شلالات نياجرا ، فلما رآها بهت لجلالها واستخفه حسنها فعقد لسانه فلم يستطع أن يعبر لآعن شعوره نحو ذلك المنظر ، ولا عن وصف حقيقة وما فيه من إبداع ، فما كان منه إلا أن اندفع صائحاً وبغير شعور منه قائلاً « نياجراً !! نياجراً !! نياجراً !! » ثلاث مرات ، ثم صاح « إنها نياجرا وكفى » فاعتبر الفرنسيون ، وشاركهم فى هذا الاعتقاد غيرهم ، أن هذا أبلغ وصف استطاع لأمارتين أن يصف به شعوره نحو شلالات نياجرا وما فيها من بهاء وما فيها من جمال !

إذاً رحم الله الشاعر العربى الذى قال - :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء !!

ولا تسفيهه لرأيه بعد اليوم ، فقد كنا حقيقة عند وصف ما قال من غير زيادة ولا نقصان !! وحسبنا أن نكون كذلك والسلام .

أيام الخرج

قضينا في الخرج - أو في وادي زرقاء اليمامة - أربعة أيام في معية حضرة صاحب الجلالة ، كانت أزه أيام الرحلة على الإطلاق وأبهجها بالنظر لما تمتع به ذلك الوادي من الخصوبة وجمال المناظر ووفرة الزراعة ما كان منها طبيعيا كالروضات ، وما كان منها صناعيا كالخقول ، ولكن حدث لكاتب هذه السطور حادث قوّت عليه تلك البهجة وأبدلها بكابوس ثقيل الظل جعله يقضى تلك الأيام متمللا طريحا حتى أنعم الله عليه في آخر يوم من أيامها بما كشف الغمة وأزال الكابوس . فقد تقدم الكلام في مراحل الطريق ، أننى شعرت بطارىء من المرض وقد قدّر الله لى من النشاط والمقاومة ما احتملت به وعناء الطريق وهم المرض ، حتى وصلت مع رفاقي إلى الخرج وقضيت ثلاث ليال وثلاثة أيام في سريري والمرضى يهز جسمي هزاً ويكاد يضنى نفسى ويرمضها ، . وكان أول الرفاق عناية بى ، هو الصديق الكريم سعادة الأستاذ الرؤوف الصبان الذى ما كان يغمض له جفن دون أن يبذل لى من وسائل العناية بى كل ما يستطیع !!

وأول ما فعله هذا الصديق ، هو الاستنجد بمروءة الطبيب البارع الدكتور رشاد فرعون مدير صحة الرياض وطبيب صاحب الجلالة^(١) ، وقد قام على غير تعارف سابق بى وبينه بمعالجتي وعيادتي بعناية ليست هى مجرد عناية الطبيب الإنسانى البار ، بل عناية الأخ والصديق الكريم ، فقد كثر تردده على عيادتي إما للمعالجة أو للزيارة والاطمئنان برغم ما كان مثقلاً به من الأعمال وكانت عناية الرفاق وغيرهم من الأصدقاء هى المؤاساة الكبرى التى خففت من ألم المرض وقد تطوع بتمريضى بصفة أخص شاب رفيق

(١) سبقت الإشارة فى صفحة ٩٤ إلى تعيينه وزميله مستشارين لحضرة صاحب الجلالة فى

هو السيد صادق دحلان الموظف بمجالس الشورى بمكة ، فقد تكشف لى عن مرودة
فى نفسه منقطعة النظير ، وعن خلق سمح كريم . ولقد كانت لىالى المرض ثقيلة الوطأة
من شدة الحمى وهذيانها ، فذكرت فى ذلك الموقف أبا الطيب حين دهمته الحمى فشكاها
إلى الله فى قصيدة طويلة يقول منها - :

وزائرتى ^(١) كأن بها حياء	فليس تزور إلا فى الظلام
بذات لها المطارف والحشايا	فعاقتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنهما	فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتنى غسلتنى	كانا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى	مدامعها بأربعة سجام
ويصدق وعدها والصدق شر	إذا ألقاك فى الكرب العظام
وملئى الفراش وكان جسمى	يميل لقائه فى كل عام
يقول لى الطبيب أكلت شيئا	وداؤك فى شرباك والطعام
وما فى طبه لى جواد	أضرّ بجسمه طول الجمال
فإن أمرض فامرض اصطبارى !!	وإن أحم فما حم اعتزأى !!

وفى اليوم الثالث ، حين شعرت بديب العافية ، نشطت من عقال المرض ،
وأحسست بأن على واجبات اجتماعية لا بد من أدائها فأنا لم أحضر إلى نجسد المجرد
الزهة والتمتع بالمناظر البهيجة ولكنى مطالب كصحفى بأن أكتب ما شاهدت ،
وأنا ككاتب مطالب بأن أدون ما رأيت ، وأنا قبل ذلك وبعده لم أغفل حركة من
حركات الرحلة ولا منظراً من مناظرها إلا سجلته فى رسالة برقية وطيرتها إلى صحف

(١) يقصد بزائرته « الحمى » التى كانت تطرقه ليلاً .

ولا منظر آ من مناظرها إلا سجلته في رسالة برقية وطيرتها إلى صحف مكة يوماً بيوم، تلك هي أوليات مهمة « عميد الصحافة » فكيف يجوز لعميد الصحافة أن يغفل الصحافة من حسابه !! ذلك مالا يكون ، وذلك ما كاشفت به رفقاءى في الخرج فقد حرمت في أيام هذا المرض من رؤية كل شيء ، وأنا في الواقع لم أشهد شيئاً مما جئت لأجل رؤيته في هذا الوادى البهيج !!

وفي اليوم الثالث غادرت غرفتى في الصباح الباكر . وأنا مشدود بين لفائف الوقاية من البرد ، وقصدت مع أصحابى إلى قصر حضرة صاحب الجلالة الملك للتشرف بالسلام عليه ، وتناول طعام الغطور ، فلما رآنى جلالته مقبلاً استقبلنى ببشاشته الممودة ، وقال لى : « إنك محفوظ إن شاء الله لا بأس عليك » فقبلت يد جلالته وشكرت كريم عطفه ، وكان حفظه الله دائم السؤال عنى يومياً ، وقد بلغت سؤال جلالته وعطفه من قبل .

وفي ذلك اليوم طلبت من بعض الزملاء مرافقتى للتجول فى الأماكن التى لم أشهدها فتجولت قبل الظهر وبعده وقضيت اليوم فى مشاهدات ، هذا الذى ذكرته هو خلاصة منها .

وقد قيلت هذه الأبيات فى الخرج وفى وصفه :

هذا هو الخرج ، فاسأل صدق مخبره	عن قدرة الله فى تجميل منظره
تدفق الماء من ميزاب رحمته	بما يضيق الحجبى عن وصف أيسره
مشى فأحيا موات الأرض فى سعة	فعاد مجده يزهو بأنصره
فانظر إلى تسلك الامداء شاسعة	لا يدرك الطرف أقصاها بمجهره

تضاعف البرُّ في أعلا سنابله	فضاعف الله منه حبّ أكثره
والروض فاح عبيراً في مزارعه	فعطّر الجو منه ريح عنبره
تفأثرت فيه روضات مزخرفة	في اليد جناها ترهوّ بأنهره
والنخل بمثر في أرجاء ساحته	يبدو التواضع منه في تكبره
والأثل قام على حافات روضته	كشاعر الروض يشدو فوق منبره
والزهر خلف لثام الطل محتجب	كأنه الحسن يبدو خلف مثره
يكاد في نسائم الصبح ريقه	يضيّ على الجو مسكاً من تعطّره

مولاي كم نعمة لله سابغة	تضائل الشكر فيها عن تشكره
أجرى بك الله أمن النفس في بلد	لم يعرف الأمن في تاريخ أعصره
وأصبح القفر مأنوساً بوحشته	وليّشه يتلاقى عند جؤذره
يجوبه المرء لا يدري به سغباً	ولم يذق ظمأ أباب معبره
وأخصبت أرضه في كل ناحية	وزاد إنتاجه خصباً بمثمره
وقاخرت بك تقديراً ولا عجب	فالغاب يختال من عجب بقسوره
أدامك الله للإسلام حارسه	تذود عنه وتفري حد منكوره

إلى الرياض

وفي يوم الثلاثاء ٢٧ من صفر ، تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك ، وأصدر أمره الكريم بأخذ الأهبة للسفر والاستعداد له . وفي الصباح الباكر ، انتظم الموكب في معية جلالته واتخذ وجهته إلى الرياض ، إلى عاصمة نجد !!

غادرنا الحرج في الموكب الملكي ونحن مأخوذين بموامل كثيرة متعددة من الذكريات والحنين ، ومن الشوق والتعجّل ، فقد كنا في أسف شديد على فراق تلك المنطقة الحصبة العريضة ، وفراق ما فيها من الذكريات من سمر الليالي التي أمضيناها فيها ، فهي ذكريات عذبة عن حوادث سعيدة ، قلما يجود بها أو بأمثالها الزمان ، وأما الشوق والتعجّل ، فقد كان مثاره الحنين إلى الرياض عاصمة نجد ، وهي بيت القصيد في الرحلة !! فالرياض هي عاصمة نجد ، وعاصمة نجد هي عاصمة الحوادث التاريخية المجيدة - في القديم والحديث - وإذا كان القديم الغابر لا يعنيننا كثيراً في أمر رحلتنا هذه ، فإن الذي يعنيننا حقيقة والذي هو منا بمرأى ومشهد ، هو تاريخها الحديث ، ومعنى تاريخها الحديث هو تاريخ آل سعود وما لهذه الأسرة المجيدة من مجد تالد وهناك خلاصة الخلاصة من هذا التاريخ ، وهي تنحصر في سيرة حضرة صاحب الجلالة ملك هذه البلاد وليها المغوار ، وبطلها الذي لا يشق له غبار .

فتاريخ نجد إذاً ، هو تاريخ الأسرة السعودية ، وتاريخ هذه الأسرة متوّج بتاريخ هذا الملك الذي تكاد سيرته ورواية حوادثه وسرد أفاصيص وقائمه تذهب مذهب الخيال ، لولا أنها حقيقة واقعة لم يستطع الزمن أن يسحب عليها ذبول النسيان ، وكيف يستطيع الزمن أن يعنى على مجد باذخ ولم تزل لبنات تأسيسه تترايد كل يوم لبنة جديدة ، تزيد في تدعيم صرحه العتيق ، وبنياه الراسخ المشيد . فإذا كنا وصلنا

إلى الغاية التي نقصدها ، وقد أصبحنا من الرياض قاصدين أو أدنى ، فلا شك أننا سنشهد مصدراً من مصادر التاريخ الحديث . ولا شك أننا نقبل على تحقيق ما هو معتلج في النفس من الحنين إلى مصدر المجد ، ومبعث الرجولة الصادقة ومأوى العز التليد !! أليست هذه « الرياض »^(١) التي اقتحمها ابن السعود عنوة في غابر صباه واسترد باستردادها ملك أجداده وحریات شعبه ، ثم وضع فوق كيائها لبنات المجد الباذخ التي تأسست عليها مملكته الواسعة الأطراف ؟! أليست الرياض هذه هي بلدة الأول التي أراد الله أن يتفجر نور الدعوة السلفية الصالحة من جوارها ، وأن تحتضن هذه « الرياض » تلك الدعوة الإسلامية الجريئة الصارخة ، وأن تخرجها طابعا رائعا يُقبل الناس من صحيحى العقيدة كل الإقبال على الانضواء تحت لوائها !!

أليست هذه هي الرياض ، وهذا هو بعض شأنها في تاريخ المجد ، وتاريخ الدعوة السلفية ، وتاريخ بناء أعمال الرجولة الصادقة والشجاعة الموفقة من الله ؟!

أجل هذه هي الرياض ، وهذا هو بعض شعورنا نحوها ، وشعورنا بالحنين إلى ذكرياتها ، وهي ذكريات لا يمكن التعبير عن كيفية اعتلاجها في نفوس القادمين عليها ، وقد تشاركنا السيارات التي تركبها في مثل هذا الشعور بالحنين ، فهي تسابق الأرض سبقا ، وتطويها طيا وتسكاد تنهبها نهبا . أفتركون سيارتنا هذه من مطايا « ابن معتوق » الشاعر حين قال - :

(١) الرياض هذه كانت مسرح شجاعة جلالة الملك ابن السعود حين فتحها بعد أن تم لجلائه الاستيلاء عليها مرتين في قصة تعد من أروع قصص البطولة ، ومن أروع ما في قصة فتح الرياض الصراع اليدوي الذي دار بينه وبين عجلان عامل الرياض من قبل ابن الرشيد عام ١٣١٩ هجرية . حين سار إلى اقتحام الحصن في نفر من قومه لا يتجاوز عديم الأربعين جعل ثلاثين منهم للرديف ، وعشرة للهجوم والصراع ، وقد أشار إلى هذه الواقعة سعادة فؤاد حمزة بك في كتابه « قلب جزيرة العرب » صفحة ٣٦٣

قد براها للسرى جذب براها	فدراها يأكل السير ذراها
ودعاها للحمى داعى الهوى	فدعاها ، فالهوى حيث دعاها
يا لها من أحرف مسطورة	تسبق الوحي إذا الحادى تلاها
ترتمى شوقاً فلولا ثقل ما	في صدور الركب طارت في سراها
سحب صيف قدح أيديها الحصى	برقها والرعد أصوات رغاها
كلا حنت لأرض المنحنى	وكلاها ، أفرح الشوق كلاها
ذات أنفاس حرار صيرت	خمة الظلماء جراً من لظاها

قد يكون ذلك أو قد لا يكون !! ولكن الشيء الذى لاشية فيه ولا مرية ،
أننا نغالب في أعماق نفوسنا ذلك الشهور بالحزين إلى ما نحن مقبلين عليه من مرثيات
الرياض ومشاهدها ، ونتمجّل الخطى ونستبق « المطايا » إلى الوصول السريع !!
وما زلنا نجد السير ، ويطوى الله الأرض لنا طياً ، ونحن نعد الدقائق ،
ونستنطق الساعات التى فى أيدينا أو فى جيوبنا ، ونكثر من لهفة التشوف فيها
والتطلع إليها !!

في الرياض

بعد سفر متواصل ، في مدة تقرب من الساعتين ، أقبلنا على شبه مزارع عرفنا لأول وهلة أنها مظاهر القرب من الرياض ، ولم نلبث أن تبيننا مظاهر العمران بما لاح أمامنا من مناظر الحضرة والزراعة ، ثم بمنظر ساريتين عاليتين في كبد السماء ، هما ساريتا اللاسلكي اللتان ترتفعان إلى علو ثلاثمائة قدم في الجو ، وبدت خيام سكان البادية الضاريين حول الرياض . وبعد دقائق معدودة في استدارة من السير اجتزنا بها بعض المرتفعات ، رأينا « الرياض » وجهاً لوجه ! فحمدنا الله ، ثم حمد القوم السرى ، وعرج الموكب ، على القصر الملكي العامر .

وشرف جلالته إلى الطابق العلوى في القصر وفي معيته الحاضرون ، فاسترحنا قليلا ، ثم تفضل وأذن لنا بالانصراف إلى نزلنا من الاستراحة وكان قد أمر جلالته بأن يكون نزلنا في القصر الملكي الذي كان يسكنه جلالته قبل تشييد القصر الحالي الذي يقيم فيه .

ولجلالة الملك في الرياض ثلاثة قصور ، أولها وأقدمها القصر الملكي القديم المبني داخل المدينة ، وهو القصر التاريخي الذي كان يسكنه جلالته وجلالة والده من قبل ، ومن تقدمهما من الأسرة السعودية^(١) ، وثانيها : القصر الملكي الذي بني خارج سور الرياض والذي يطلق عليه اصطلاحاً اسم « المربعة » وقد ظل هذا القصر مسكناً خاصاً لجلالته خارج سور الرياض مدة طويلة من الزمن ، ثم منذ بضع سنوات أمر جلالته ببناء قصر جديد آخر ، في المكان الذي سمي « المربعة » خارج السور ، وهو

(١) شهدنا في هذا القصر آثار ضربة سيف تاريخية ضربها البطل المجاهد - الملك عبد العزيز - يوم صراعه في اقتحام حصن هذا القصر في فتح الرياض ، كما تقدم ذكره .

يقع في مواجهة باب القصر السالف ، وبعد الانتهاء من تشييده شرفه جلالته بالسكنى ، وتم إنشاء ملحق لهذا القصر ، ليتسع لجميع أعضاء أسرته الكريمة ، وهذا الملحق هو بمثابة قصر كبير جداً أنشئ من وراء القصر الذى يسكنه جلالته على شكل مربع وألحق به فتألف من الجميع قصر واحد كبير مربع يتوسطه حوش كبير لا تقل مساحته عن بضعة أميال . وقد أحيط ذلك المربع كله من خارجه بسور كبير هو واجهة البناء الذى تتألف منه واجهة القصر من جهاته الأربع ، وأقيم فى القصر المذكور مسجد فسيح الأركان على البنيان تؤدى فيه الصلاة ، ويؤدى صاحب الجلالة الصلاة فى الطابق العلوى منه فى جميع الأوقات وهو مسجد فطرى لا أثر للإناقة فيه وقد أدينا فيه صلاة الجمعة .

وتتصل القصور الملكية المذكورة بالمدينة ، بواسطة شارع مرصوف بالحجر ، كما أن هناك بعض المزارع الحديثة أنشئت على مسافة أميال قليلة من الرياض ويرجع السبب فى إنشائها إلى ما أبداه جلالته من الاهتمام بإيجاد المياه وتوفيرها فى تلك الأمكنة فقد أنشئت بأمر جلالته آبار ارتوازية عديدة وتصب الماء ليل نهار ، فى المجارى التى أعدت لجريانه والانتفاع به وتوصيله إلى المزارع .

وقد أصبحت مدينة الرياض فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك ، مدينة شاحخة البنيان ، عامرة بالسكان ، وأصبحت سوقاً تجارية نافقة ، ومركزاً مهماً للتصدير والتوريد ، وكعبة مقصودة من كثير من الطبقات العاملة ، نظراً لما لقيته فى عهد جلالته من الازدهار والعمران ونشاط الحركات فى شتى مرافق الحياة العملية ، ولا شك أن هذه المدينة ، مدينة جلالته ولعمريه الزاهر السعيد بذلك النشاط الآنف الذكر ، وفى الرياض ، مركز للاسلكى ، وإدارة للبرق والبريد والتلفون وإدارة للصحة والمستشفى الأميرى وإدارة للبلدية ، وإدارة لسيارات النقل الحكومى والأهلى ، عدا إدارة سيارات الخاصة الملكية ، وعدا الإدارات التابعة لديوان جلالته .

ومما زاد في نشاط الحركات التجارية والعمرانية في الرياض ، تواد الوفود بين فترات مختلفة من أجزاء السنة على تلك المدينة من ضيوف جلالة الملك وزواره وغيرهم من كبار رجال حكومته وموظفيها في شتى فروع الدولة الذين تقتضيهم أعمالهم التردد عليها وما تقتضيه تلك المناسبات من ارتياد الأسواق والإنفاق وتدعيم الحركات التجارية ، وهناك في موسم معين من مواسم السنة - في كل عام - يفقه على الرياض بضعة عشرات الألوف من أهالى نجد على مختلف طبقاتهم ، فينزلون ضيوفاً على أريحية صاحب الجلالة ، وقد تمتد إقامتهم إلى شهرين أو ثلاثة أشهر تبعاً ، يتفضل جلالتهم أثناءها بضياقتهم ومنحهم الأعطيات السنوية التي تعودت أريحيته أن تجود بها عليهم وقد تبلغ مئات الألوف من الريالات ، وقد يكون ذلك عاملاً من عوامل النشاط التجارى في تلك المدينة .

وبالجملة ، إن وجود حضرة صاحب الجلالة في مدينة الرياض علاوة على ما أكسبها إياها من المجد التاريخي ، فقد أكسبها حياة تجارية وعمرانية لم تصل إليه في أى عصر من العصور ، وحسبك أن تكون «الكهرباء» إحدى صنائع جلالتهم على هذه المدينة النائية في قلب الصحراء وصميمها .

وهناك حقيقة ثابتة يعرفها أهل هذه المملكة جميعاً ، وهي أن كل مكان يقطن فيه جلالة الملك أية مدة كانت ، يصبح «رياضاً» بالمعنى الصحيح ويصبح «موسماً» على وجه الحقيقة لا الحجاز ، وذلك يرجع إلى سخائه وبذله بما يعود نفعه على جميع سكان المدينة التي يشرفها بالإقامة فيها .

قلت : إننا بعد أن وصلنا إلى الرياض أذن لنا جلالتهم بالانصراف إلى نزلنا ، وهو في القصر الملكي السابق ، وقد تفرق الوفود في مختلف غرفه الفسيحة وأبهائه المترامية الأطراف ، فاستوعب ذلك الطابق وحده جميع الوفود بسعة وتبسط .

وفي أصيل ذلك اليوم ، جاءنا من أخبرنا أن حضرة صاحب الجلالة حفظه الله ، سيتفضل بعد دقائق قليلة بتشريف هذا القصر الذي نحن فيه ، لزيارة ضيوفه . وقد سرى هذا النبأ في الرفاق مسرى البهجة والحبور ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لجلالته على هذا الخلق الكريم ، وعلى هذا التشريف الذي أولاهم به منتهى الفخر وغاية المجد .

وبعد قليل لحنا ، موكب جلالته مقبلاً ، نحف الجميع إلى استقباله عند باب القصر فلما شرف قصد إلى مجلسه العلوى وأخذ يصدق عبارات الترحيب والأنس ، وتفضل جلالته على عادته بالتبسط في الحديث مع جلسائه ومداعبتهم بكل طريف من رائع القول وجميل الدعابة ، ثم قال جلالته إن سروره بقدم ضيوفه لا حد له وإنه يزداد ذلك السرور بقدم أولئك الضيوف في كل عام ، وإن جلالته منذ الآن يأذن لهم سلفاً بالقدوم إلى نجد في مثل هذا الوقت من كل عام ، وإنه يرحب بهم أجمل الترحيب .

وفي ختام تلك الجلسة الطريفة الشائقة نهض جلالته ودعا الوفود في معيته إلى زهرة خلوية جميلة في ذلك الأصيل الجميل ، فانتظم الموكب في معية جلالته إلى جولة بديعة حول أطراف الرياض ، وكان أول منظر شاهدها بعد مغادرة القصر الملكي ذلك « الارتوازي » الذي يجود بالماء وتفيض به ميازيه المرتفعة الشاهقة ، وقضينا في ذلك جولة قصيرة وذقنا طعم ذلك المساء الجارى المتدفق ، ثم مشينا إلى ضاحية قريبة من أرباض الرياض ، وهناك استراح جلالته في مزرعة ناضرة فرشت أرضها بالبسط ، وبعد أن تناول جلالته القهوة مع الحاضرين نهض مستأنفاً المسير إلى حديقة « الأمير فيصل بن سعد » على مسافة أميال قليلة من ذلك المكان ، حيث أدى جلالته بها صلاة المغرب إماماً بالمصلين ، ثم استأنف الموكب الميمون عودته إلى الرياض .

وفي تلك الليلة تشرفنا على عادتنا بزيارة حضرة صاحب الجلالة فتفضل جلالته واقترح علينا أن نتصل بأهلينا في مكة وفي جدة بالتلفون اللاسلكي وأن نتحدث

مع من يزيد من أهلنا بتلك الوسطة الرائعة التي تحمل إلينا أصوات من يزيد عبر
القضاء الشاسع الذي يزيد طوله على الألف ميل ، وقد شفع جلالتة اقتراحه هذا
بإصدار الأوامر إلى المختصين في هذا الشأن بإعداد العدة للمخاطبة في أصيل اليوم التالي .
وقال لنا جلالتة : إنه في اليوم التالي سيفادر الرياض عائداً إلى روضة الخفس ،
حيث المخيم الملكي هناك ، وإنه يتركنا في الرياض لقضاء يومين فيها لنصلح من
شؤوننا ونزود من معرفتها .

وفي صباح اليوم التالي غادر جلالتة قصره العامر الذي هو خارج الرياض ، حيث
شرف إلى القصر الذي بداخل المدينة ، وكانت غاية جلالتة من ذلك أن يجلس في
القصر الداخلي القريب من سكان الرياض ليكفيهم مشقة التعب في الخروج إلى القصر
الآخر النائي عن البلدة ، للتشرف بالسلام على جلالتة ، وفعلاً توافد العلماء^(١) ورجال
الدين والأعيان على ذلك القصر وتدفقوا للسلام على جلالتة هناك وظل جلالتة في ذلك
القصر إلى الظهر ، ثم غادره قاصداً إلى روضة الخفس .

أما الرفاق ، فقد قضى أكثرهم ذلك اليوم بداخل مدينة الرياض ، بين التجول
في أسواقها ، ومشترى ما وقعت عليه أنظارهم من الحاجيات والتحف النفيسة ، وبين
تبادل الزيارة مع من لهم من الأصدقاء والمحبين هناك ، وقد تقدم الكلام على أن مدينة
الرياض مركز تجاري هام لكثرة الوافدين عليها ، والمقيمين فيها .

وقضى الرفاق بقية اليوم في زلهم بالقصر العامر إلى الأصيل ، وكان الشيخ عبدالرحمن

(١) في نجد كثير من العلماء العاملين من آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، عرفوا بعلو
المسكنة وجلالة الملك يحب العلماء ويقدروهم لما فطره الله عليه من التقوى ، ومن العلماء المبرزين
المشار إليهم أصحاب الساحة والفضيلة : الشيخ محمد بن إبراهيم ، والشيخ محمد بن عبد اللطيف ،
والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف ، والشيخ عمر بن حسن ، والشيخ عبد العزيز بن باز .
ومنهم في الحجاز فضيلة الشيخ عبد الله بن حسن رئيس القضاء ، وفضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير
المعارف العام ، والشيخ عبد الله بن زاحم قاضي المدينة ، والشيخ محمد الباز قاضي جدة .

الطبيشى رئيس الخاصة الملكية قد وجه دعوة إلى الوفود لتناول طعام العشاء فى داره فى هذه الليلة ، فخرجنا إلى ضاحية خصبة ، عامرة بالبساتين والحدائق تسمى « البديعة » تقع على مسافة ثلاثة أميال من الرياض وفيها حدائق ذات نخيل وثمر ، وفيها قصر ملكى ، وقصر آخر للأمير سعود ، وقصور لبعض الأمراء ، وبعد أن تجولنا قليلاً فى تلك الحدائق توجهنا إلى دار صاحب الدعوة ، فوجدنا منه ترحيباً واحتفالاً وإيناساً ، وفى الدار حديقة غناء ، هى روضة من رياض الأنس ، تفرق الرفاق تحت خمائلهما .

ومن أبرز ما شاهدناه من الثمر فى حدائق « البديعة » هو ثمر النبق ، وهو يختلف عن نظائره فى الحجاز ومصر بما يمتاز به من كبر الحجم ، وحلاوة الطعم ، ولذة النكهة ، ثم رأينا هناك « شجر » الجرجير ، وهذه الخضرة مشهورة فى مصر وغير معروفة فى الحجاز ، وهى عادة تنبت فى حجم صغير ، وقد لفت نظرى وجودها فى نجد ، وأنها تكبر فى شجيرات ترتفع إلى متر وأكثر من متر .

وبعد صلاة المغرب قصدنا إلى دار مضيفنا سعادة الشيخ عبد الرحمن الطبيشى ، فتناولنا طعام العشاء على مائدة فخمة أنيقة ، وبعد تناول القهوة كالمتاد عاد الرفاق إلى منازلهم ينتظرون الصباح بجفون مسلوبة الكرى ، فماذا ينتظروهم فى الصباح ، أو ماذا ينتظرون من الصباح !!؟

أجل ! لقد تقدم السلام أن حضرة صاحب الجلالة كان قد أصدر أمره لهم بأن تتصل الوفود جميعها بأهلهم فى مكة وجدة بطريق التليفون اللاسلكى .

وكان الميعاد الذى حددته إدارة اللاسلكى هو الساعة الرابعة قبل ظهر يوم الجمعة - غداً - لتتصل بأهلينا فى مكة وجدة . ولهذا فقد كان الرفاق يبيتون تلك الليلة وأهدابهم معقودة باللاسلكى يرون من خلاله الرؤى المتنوعة ، والأحلام الطريفة

الذيذة ، وينتظرون تباشير الاتصال بأهلهم مع تباشير الصباح حتى لكان أصوات مناعهم زقزقة العصافير لاستقبال الفجر المشرق ، وما لهم لا يكونون كذلك وقد قامت بينهم وبين أعز عزيز لديهم من الأهل والولد ، سحابة كثيفة من الأبعاد الشاسعة والزمن الطويل ، فهذه الألف من الأميال ، وتلك الثلاثون من الأيام حجاب لن يخترقه غير موجات اللاسلكى .

لهذه العواطف المتأججة أقام الرفاق ليلتهم ساهرين ، ثم خلوا إلى مضاجعهم لمسامرة الرؤى والأحلام ، ومناجاة الأفكار والهواجس .

وفي الصباح تجولنا فى أسواق الرياض ، فلما حان الوقت أسرعنا نجر الذيل عائدين ! لا إلى منازلنا ، ولكن إلى منزل اللاسلكى فى القصر الذى يسكنه جلالة الملك . ووصلنا مسرعين فى لهفة واشتياق ، ولقد كنت طلبت من مكة اثنين من إخوانى للتحدث معهم ، أحدهما أخ لم تلده أمى ، وقد قيل قديماً « رب أخ لم تلده أمك » والثانى أخ ولده أمى ، فذاك شقيق النفس والروح ، وهذا شقيق الجسم والنسب ، أما الأول فهو الأستاذ الشيخ عبد السلام غالى ، وأما الثانى فهو عبد المنعم شاكر ، فلما جاء دورى فى الكلام ، اضطربت أعصابى هيبة للقاء الريب وهو لقاء إن لم يكن بالرؤية فهو بالسمع ، وما كان والله الحمد بين أخوى من هو كالميدى - السماع به خير من رؤياه - فقد كان كل منهما حبيب إلى النفس ، شقيق للروح ، وبعد تبادل التحيات بينى وبينهم ، أرتج على من هيبة اللقاء المفاجئ ، والرؤية العمياء ، فسا زدت على ما قلت أن كررت عبارات التحية والسلام ، ولم يكن موقف مخاطبى بأحسن من موقفى فقد كان شعورهم كشعورى ، وقد أرتج عليهم كما أرتج على ، فلم يزيدوا فى الكلام عن مثل ما قلت ، وكأنهم نسوا مثل ما نسيت ، ما كنت قد أعددت من طيب الحديث !! وبعد الانتهاء من هذه المحادثة التلفونية انصرف الرفاق لأداء صلاة الجمعة ،

في مسجد القصر وهو يقع في حوش القصر كما تقدم الكلام ، ومما هو جدير بالذكر أن المسجد الملكي المذكور كغيره من المساجد العامة في الرياض وفي نجد جميعها من حيث الشكل والبساطة والبعد عن زخرف الدنيا وباطلها ، وقد أتيسر لي في عودتي أن أقف قليلا في قرية «مرات» التي مر ذكرها ، وكان أول ما طلبت الذهاب إليه هو المسجد الجامع ، ومع أن الوقت لم يكن وقت صلاة إلا أنني قضيت وطرى من مشاهدة المسجد من داخله ومن أعلاه ، ورتبت حكى على تلك المشاهدة بأن المساجد في نجد تقوم على طراز واحد ونسق متفق من البساطة والبعد عن الزخرفة ، بما يتفق وما للعبادة من الهيبة والخشوع .

وبعد أداء الصلاة عاد الرفاق إلى نزلهم في القصر الملكي العامر لتناول طعام الغداء والاستراحة^(١) ، لاستئناف السفر من الرياض والعودة إلى روضة الخفس ، حيث كان هناك جلالة الملك ، وقد قضى الرفاق تلك السويعات القليلة في التهيؤ للسفر، متزودين من مدينة الرياض بالذكريات التي ستكون لهم زاداً في المستقبل ومورداً خصباً للتخيل البعيد حين يعودون إلى بلادهم وتقوم الأبعاد الشاسعة بينهم وبين ما كانوا متمعين به من نجد ، ومن ربى نجد ومن صباها ، ورياضها ، وروضاتها ، وأعشابها ، وأزهارها ، وجبالها ، ووهادها ، وسنابلها ، وأوديتها ، وما إلى ذلك من مترادفات الجمال في نجد وهو الذي لا تنقطع له مادة في الوصف ولا في الخيال !!

(١) من المصادفات الطريفة أن حضر إلى مصر الشاب الزكي النقيب إبراهيم بن الأمير عبد العزيز بن إبراهيم عضو مجلس الوكلاء أثناء طبع هذا الكتاب وقد تفضل ببعض المعلومات التي احتجنا إلى مراجعته فيها . وهو شاب كريم الخلق تسكلم عنه سعادة الدكتور محمد حسين هيكمل باشا في صفحة ٤٨٧ من كتاب منزل الوحي وأثنى عليه الثناء الجميل .

العودة إلى روضة الخفس

وفي الساعة العاشرة غادر الرفاق مدينة الرياض عائدین إلى روضة الخفس ، إلا واحداً منهم هو الشيخ محمد نصيف ، كان قد استأذن من جلالة الملك في أن يعرج على روضة من روضات الطريق ، كان فيها فضيلة الشيخ محمد بن عبد اللطيف من مشايخ نجد وعلمائها مقيماً بعض الوقت ، وقد استأذن الشيخ محمد نصيف من جلالته في السماح له بزيارة الشيخ العالم المذكور ، لأن فضيلته لم يكن في الرياض مدة وجودنا فيها ، وإنما كان ضارباً في جانب من جوانب الصحراء المعشوشبة الزاهرة ، للاستجمام وعبادة الله .

والطريق بين الرياض وروضة الخفس يبلغ الثمانين كيلو متراً ، وهو يخترق سلسلة من الأودية المتصلة ، بينها كثير من الروضات الزاهرة المتناثرة ، وهو كغيره من طرق نجد ، سهل منبسط لا أثر للوعورة فيه ، وأكثر رياض نجد وأجزائها سهل منبسط لا يلح الإنسان فيه جبلاً إلا ما يقع نادراً من المرور بجبل متسلسل كجبل « العرمة » أو جبل « طويق » وما عدا ذلك فليس هناك شيء من الجبال الصغيرة الكثيرة المتصلة أو المتلاصقة كما هو مشاهد وموجود في أكثر أودية الحجاز وغيرها من بلاد الجزيرة العربية .

وفي المغرب ، وصل الرفاق جميعهم إلى روضة الخفس ، وقصدوا إلى مخيامهم ، أو قصد كل وفد وفد إلى مخيامه ، كما قصد كل فرد أو فريق إلى خيمته ليصلح شؤون نفسه . وبعد قليل من الوقت ، تشرف الجميع بالسلام على جلالة الملك . وكان لقاء باهراً ، بمناسبة ما تركته زيارة الرياض من الأثر الخالد الذي لا يمحي ، وبعد أن كان الخبر عنها سماعاً وعن بُعد حققها لهم المشاهدة والقرب ، على حد قول الشاعر :

« فلما التقينا صدق الخبر الخبر » .

الفصل الخامس

ليالي الحنين

كانت هذه الليالي الثلاث التي قضيناها في « روضة الخفس » قبيل السفر منها عائدین إلى الدار والأهل الولد ، هي ليالي الحنين الشديد الذي لم تشعر به نفوسنا إلا في حالات نادرة ، فهو لاء نحن قد قضينا ما يزيد عن الشهر بعيدین عن الأهل والأبناء وغيرهم من الأصدقاء والمحبين ، وقد انقضى الوطر من الرحلة بتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بالإذن لنا بالسفر والعودة ، ولم يبق لنا دون الوصول إلى أهليتنا وإطفاء غلة الشوق بلقائهم ، غير انتظار اليوم الذي حدد للسفر ، كأنما ننتظر معه قدوم السفينة التي تقلنا ، أو ميعاد القطار الذي يطوى بنا المسافات !! وهي ليالات ثلاث كانت تمر بنا كمر السحاب ، أو كننا نمر بها مر الكرام ، لانعرف لها قيمة في عداد العمر ولا في حساب الزمان ، لو لم تسكن ليالات انتظار وليالي حنين ، فسكن فيها من الساعات ، وكم فيها من الدقائق والثواني ، إنها عملية حسابية تستنفد جهد الخبير وصبر الصبور ، فالأمر لله ولنحاول قطعها بكل ما يمكن اختلاقه من أسباب السلو والذسيان. ولكن هناك شبح يقض مضاجعنا ، وتمعد لأجله أجفاننا ، هو شبح الحنين ؛ والحنين مسامر لطيف يتطرق إلى النفس كالسم في الدسم ، فهو خيال طريف ، وسمر شهى ممتع يخلو به الإنسان مع نفسه فتتلذ بطرافة خياله وشهى سمره ، وجمال خلوته ، ولكنه يسلب الكرى ، ويستطير باللب ، ويبعث على التفكير ، ويوقظ الأعصاب ، ثم إذا به في نهاية الليل يسلمك من الأرق إلى السهاد ، ويبدلك السهر بطيب الرقاد ،

فلا تستفيق من حلم في ذلك الصحو الدائم إلا إلى حلم ألد منه صحواً وأكثر يقظة وانتباها .

ولقد كانت نفوسنا تملج بألوان متضاربة من الحنين ، وأشكال متباينة متناقضة ولا شك أن كاتب هذه السطور كان أشد الرفاق تعرضاً لذلك الداء الويل الذي قلنا إنه يقض المضجع ويساب الكرى ، حينئذ إلى بنيات قيل في مثلهم :

لولا بنيات كزغب القطا يفزعن من بعض إلى بعض
لكان لي ملتجأ واسع في الأرض ذات الطول والعرض
ولكن أين هم مني ؛ وأين أنا منهم ، حين أتمثل بقول الفائل :

أحن لهم شوقاً على أن يبيننا مهامه يعيا دون أقصرها الربد

وهذا الذي أقوله عن نفسي ، لست أشك مثقال ذرة في أنه شعور غيري من الرفقاء أيضاً .

وهناك لون آخر من الحنين غير هذا اللون ، فالشوق إلى روضة الخفس قد بدأ يساورنا ونحن في روضة الخفس ، أو بمعنى آخر ، إن الحنين إلى نجد ، وإلى ساكني نجد وإلى ديارها وروضاتها ومعالمها وأرباضها ومنازلها ، قد بدأ يساورنا ونحن فيها لما ننتقل منها ولما نتحرك عنها ، فهي في ذاكرتنا حاضرة قبل أن تبقى خيالاً ، وقد ارتسمت خيالاً قبل أن تطويها الذكريات ، فأين من هذا الشعور قول الشاعر :

أشوقاً ولم يحض السرى غير ليلة فكيف إذا خبّ المطى بنا عسرا

فهذه روضة الخفس ، وهذا غديرها المشهور الذي كان يتلقى أنفاسنا الحرى ملتبها بالشوق والحنين ، فيحيلها برداً وسلاماً ، وننسى ونحن في ظلاله ما كان يعتلج في نفوسنا من ذلك الشوق والحنين ، وهما نحن أولاء مفارقوه بعد لحظات قصيرة تسمى بالأيام ، فكيف لا نحن إليه ونحن فيه .

وهذا جبل طويق الذى احتضن روضة الخفس ، وقام عليها كالأم الرؤوم ، وقد كانت لنا جولات ونزهات من حول أرباضه وبين سفوحه ، ولقد أذكر مرة أننى خرجت مع رفيق فى إصباحة بأكرة لمحاولة التعلق بأهداب ذلك الجبل والتصعيد إليه فقضينا زهاء الساعتين فى محاولات عابثة عدنا منها بالضنى والكلال ، والمعجز عن إدراك الغاية ، فقد كان الجبل مقطوع الأطراف كأنه حائط قد بالسيف ، أو كأنه برج معلق فى الفضاء ، أو كأنه حصن لم يضع له صانعه مصعداً ، حتى قلت لصاحبي : لعله جبل السمؤال ، فإن لم يكنه فهو فى صفته على الأقل ، ولعله كما قال فيه صاحبه :

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كاليل

فقال لى ، أجل : منيع يرد الطرف فهو كاليل ! ومع ذلك لم نياس من تلك المحاولة السابقة فقد عمدنا إلى محاولة أخرى أوسع نطاقاً ، فركبنا سيارة وقمنا بجولة التفاف حول الجبل علنا نبصر منفذاً إليه . وبعد جهد جهيد عدنا أدراجنا من حيث أتينا دون أن نظفر من جبل السمؤال بطائل !! وكل ما أمكن أن نظفر به منه هو اقتناء حصباوات غريبة الشكل من حصباء الجبل لغقت نظرنا بأحجامها الدقيقة الغريبة ومناظرها الخلابة الرائعة ... فالتنا لأنحن إلى طويق ، ومالنا لانفعم منه بالذكريات ، بعد أن صحبناه شهراً من الزمن أو يزيد !! وبعد أن كانت لنا معه تلك الجولات الشائقة فى الإصباح والإمساء ، وبعد أن أصبحت قطع من حصبائه تقوم بمملها على مكتبي فى حراسة الأوراق من الهواء !! من تلك الحصباء التى صحبتها من سفوحه .

وهذا « غدير الخويبي » الذى يقع فى شرق الروضة ويحتضنه جبل طويق ، متزهنا فى كل يوم ، كيف نودعه اليوم ، وكيف لا نلحن إليه ولنا فيه ذكريات ، فقد كانت تنتظم حلقة الرفاق فى ظلال أشجاره ، أو تسبح على موجات مائه ، أو تتسامر تحت أغصانه ملهية بما توحىه تلك الجلسة عن عقب الحديث الذى يختلط نشره

بعمق الروضة وجمال الماء ، ومن الذكريات التي لا تنسى فيه أن الشيخ عبد الله الشيبى
 بأبى أن يقضى زهرته حول ذلك الغدير إلا مختبئاً تحت أغصان أشجاره ، مستترآ بها
 وفوهة بندقيته مصوبة من خلال الأشجار والأغصان إما إلى كبء الجو الفضاء يتلمس
 طيراً هائماً ، وإما إلى سطح الماء يتلمس طيراً ظامئاً ، فإن لم يظفر فى كلتا الحالتين
 بضالته من الطيور الضالة !! فلا أقل من طلقة أو طلقتين يرسلهما مدوّيتين عبر الفضاء
 ليعرف الرفاق أن الشيخ قام بمهمته خير قيام ، وأنه صوّب بندقيته وأطلقها ، ولا
 عليه بعد ذلك ان أخطأ أو أصاب ، فالمرء عليه أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه
 أن تم المطالب ، كما يقول الشاعر !!

ومن الذكريات التي لا تنسى فيه أن سعادة الشريف شرف رضا ، وهو رجل
 رقيق العاطفة ، وقد قلنا فى مناسبة سابقة إنه كاد يصبح شاعراً طيلة مدة الإقامة فى
 الروضة لما شحذت من عاطفته مناظر الصحراء ، كان يجلس جلسات طويلة فى متنزه
 ذلك الغدير متفياً ظلال أغصانه الوارفة ، فيقول إن جمال هذه الروضة ومناظرها
 تفوق روعتها « غابة بولون » فى باريس ، ولا يكاد يخلو فى هذا المتنزه إلا ويتذكر
 غابة بولونيا وجمالها فينشء أبياتاً من قصيدة لأحمد شوقى بك فى وصف جمال تلك الغابة
 ويستنشدنا بقية أبيات القصيدة فننشده إياها ، فيطرب ونطرب معه من ذلك الوصف
 ونتمثل الشاعر كأنه قالها فى وصف مجلسنا الحاضر ، لا مجلسه الغابر ، فنستعيد
 الوصف ونردد منها قوله .

يا غاب بولون ولى	ذم عليك ولى عهد
يا غاب بولون ولى	وجد مع الذكرى يزيد
هلا ذكرت زمان كنا	والزمان كما تريد
نطوى إليك دجى اليا	لى ، والدجى عنا يزود
فنقول عندك ما نقو	ل ، وليس غيرك من يعيد

نظفي هووى وصباية وحديثها وتر وعود
نسرى ونسرح فى فضا نك والرياح به هجود
نسقى ونسقى والهوى ما بين أعيننا وليد
والفصن يسجد فى الفضا ء وحيدا منه السجود
والنجم يلحظنا بعين ما تحول ولا تحيد
حتى إذا دعت النوى فتبدد الشمل النصيد
بتنا ومما بيننا بحر ، ودون البحر بيد !!

وفى ذات إصباح ، قابلنى سعادة الشريف شرف رضا ، فانفجرت أساريره
الوضاحة عن مداعبة رقيقة كخلقه الرقيق ، فقال : أين أنت يا فؤادى ؟! ولماذا لم
تظهر اليوم ولم تبين ، فقلت لسعاده :

أنا فيما علمته من مكاني رابض منك فى حنايا الجنان
لذت بالقلب ، فاحتجبت عن العين جلت رؤياك عن أن ترانى !!

أما الأستاذ عبد الرؤوف الصبان ، فقد اشتهر بالتخصص فى كل الأبحاث
والمواضيع ، فهو يجول فى العلوم الاقتصادية والمالية والتاريخية واللغوية أيضاً ، وقد
سبق أن قلنا فيما تقدم إنه كان يصطحب قاموس المنجد فى جمعة كتبه إلى جانب
ما اصطحب أو ما لم يصطحب من الكتب الأخرى ، أما ولعه بالأبحاث
التاريخية ، فلا أدل عليها من أنه أخذ يحقق ويدقق منذ وصلنا إلى نجد عن رحلة
الصحابى الجليل والفارس الإسلامى العظيم خالد بن الوليد على رأس سراياه العسكرية
فى حروب الردة ، وعن الطريق التى سلكها من مقر القيادة فى يثرب إلى اليمامة
لغزوة بنى حنيفة ، ويحقق فى البلاد التى اخترقها أو مر منها ، وكانت عدته فى تطبيق
الاستشهاد على الواقع ، نسخة من كتيب الشهر اسمه « خالد بن الوليد » بقلم الفريق

طه باشا الهاشمي ، وقد تشرف في أثناء زيارته لحضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل نائب جلالة الملك بمرض خلاصة بحثه ورأيه ، فكان سموه يناقشه في رأيه ويبادل الملاحظات حول ذلك الموضوع .

وأما أبحاثه الاقتصادية والمالية ، فلا أدل على براعته من وقوع الاختيار عليه جملة مرات لانتدابه في مهمات من ذلك القبيل ، وأجدر مايلفت النظر من الأدلة على ذلك ، تشرفه بالاختيار الملكي الكريم للسفر إلى الأحساء في عمل يتعلق بمهمة اقتصادية إدارية ، ولقد وفقه الله إلى النجاح في كل عمل عهد به إليه ، لما فيه من حسن البصر بتصرف الأمور ، وما فيه من الحزم المقرون بالعزم ، والجرأة المصحوبة بالإقدام ، ولقد كان له في مناصب الحكومة بعد ذلك أوفر نصيب من النجاح مما دل على بعد نظره وأيد ماعرفه به أصدقائه ومحبه من الرغبة الصادقة في خدمة مليكه وبلاده ، وخدمة المجتمع العربي السعودي ، سواء يوم كان عضواً في مجلس الشورى أو رئيساً لمجلس المعارف أو في مديرية الأوقاف العامة ، أوحى هو الآن مضافاً إلى عمله أمين العاصمة - مكة المكرمة - وذلك غير المهمات الأخرى التي كثيراً ما تسند لها إليه حكومة صاحب الجلالة فيخرج من أداؤها موفور النجاح .

ليلة السفر

الكلام على « ليلة السفر » يحتاج إلى مقدمة وبيان ، ذلك بأنها ليلة فذة في حياة الإنسان بالنسبة لما هو مترتب عليها من فراق ولقاء ، والمسافر غالباً لا بد أن يفارق حبيباً أو يلاقى حبيباً ، وأشد ما تكون لوعة الفراق حين يكون الإنسان موزع القلب بين توديع حبيب عزيز ، إلى لقاء حبيب عزيز . وكذلك كان شأننا ، فنحن سنفارق اثنين من رفقاءنا الذين زاملونا في الرحلة من مكة إلى هذه اللحظة ، سنفارقهم وهما يسافران إلى رحلة طويلة ، ثم إننا سنفارق هذه الروضة التي أصبحت لنا مألفاً وأصبح لعبير أعشابها في أنوفنا مسكة من العبق لانفارقها لافي ظمن ولا في إقامة ، فكيف نفارق هذا المكان وهذه الحياة التي ألفناها ، وهذه النعمة التي نعمنا بها ، دون أن يكون الحنين إليه ، قد دب إلى نفوسنا قبل أن نفارقه وقبل أن يصبح ذكرى من الذكريات !!

لهذا كله كانت ليلتنا تلك ليلة سهر وسمر ، وليلة شجو وحنين ، فنحن نصطخب في نفوسنا بين عوامل مختلفة من التأثر ، لانبج الفراق ، وإن كنا نظرب للقاء ، وتستطير ألبابنا أسى على الفراق ، وتحن نفوسنا شوقاً إلى اللقاء ، وقد قال النابغة الذبياني في قصيدته التي يصف بها المتجردة - :

قالوا غداً يوم الرحيل فن لهم يبقاء نفس المستهام إلى غـد
وعارضه البارودي بيت مماثل من قصيدة مماثلة بقوله - :
قالوا غداً يوم الرحيل فن لهم خوف التفرق أن أعيش إلى غـد
وعارضهما كاتب هذه السطور قبل خمسة عشر عاماً بقوله - :

قالوا الرحيل ضحى غد فأجبتهم رباه لاندنى إلى ضحى الغد !
وعلى هذا النحو كانت ليلتنا من السمر والسهر ، والشجو والحنين .

فى تلك الليلة التى هى أولى لىالى الحنين ، وكان التأثر متبادلاً بين عواطف جميع الرفاق ، تجلت عواطف الأستاذ عبد الرؤوف الصبان ، واستطعننا أن نستشف صباية نفسه نحو داره وأهله وأولاده من وراء ستار الوقار والرزانة الذى كان مسدولاً على تلك الناحية العاطفية الفنية فى نفسه ، فجلس إلى رفقاءه ، وخص من بينهم زميليه الشاعرين السيد عبيد مدنى وفؤاد شاكر ، ينشدها ويستنشدها أقوال الشعراء فى الصباية والحنين ، وقد طلب إليهما أن ينشدها قصيدة ابن زيدون ، ولم يكن معنا أى مرجع يشتمل عليها ، فرجعنا ورجع معنا إلى المكتبة التى يرجع إليها عند الحاجة ، وهى الذاكرة ، فعصرناها ، وهصرناها ، واستقطرنا منها أبيات القصيدة وأمليناها عليه فكتبها فى سجل ضمه إلى محفوظاته ، وأخذ يرددها ويتلوها فى ترنم موجه واستذكار وحنين ! فى تلك الساعة الشاجية الراهبة . وهى ذى القصيدة عساها أن تكون مرجعاً لطالب غلبته الصباية وأشجاء الحنين ، فى لحظة من اللحظات التى تطوف بأكناف الحياة على غير ميعاد !

أضحى التئانى بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضائرنا	يقضى علينا الأسمى لولا تأسينا
حالت لبعدمكم أيامنا ففدت	سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا	ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية	قطوفها فجئتنا منه ماشينا
لپسق عهدكم عهد السرور فما	كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مبلغ الملبسينا بانتراحهم
 إن الزمان الذى قد كان يضحكننا
 غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
 فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا
 وقد نكون وما يخشى تفرقنا
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
 يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
 لا غرو إنا ذكرنا الحزن حين نهت
 إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
 أما هواك فلم نعدل بمنهله
 لم تجف أفق جمال أنت كوكبه
 ولا اختياراً تجنبناك عن كذب
 نأسى عليك إذا حنت مشعشة
 لأ كؤوس الراح تبدى من شمائلنا
 دوى على العهد مادمننا محافظة
 ولا ابتغينا خليلاً منك يحسبنا
 ولو صبا نحونا من علو مطالعه
 أولى وفاء وإن لم تبدل صلة
 وفى الجواب قناع لو شفعت به
 حزننا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
 أنساً بقرهم قد عاد يبيكننا
 بأن نغص فقال الدهر آمينا
 وأنبت ما كان موصولاً بأيدينا
 فالـيوم نحن وما يرجى تلاقينا
 رأياً ولم نتقلد غيره ديننا
 ان طالما غير الرأى المحينا
 عنكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا
 من كان صرف الهوى والود يسقيننا
 عنه النهى وتركنا الصبر سالينا
 مكتوبة وأخذنا الصبر تلحيننا
 شرباً وإن كان يروينا فيظميننا
 سالين عنه ولم نهجره قالينا
 لكن عدتنا على كره عوادينا
 فينا الشمول وغنانا مغنيننا
 سيما الارتياح ولا الأوتار تلحيننا
 فالحر من دان انصافاً كما ديننا
 ولا استفدنا حبيباً عنك يغنيننا
 بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبيننا
 فالذكر يقنعنا والطييف يصبيننا
 بيض الأيادى التى مازلت تولينا

عليك منا سلام الله مابقيت صباية منك نخفيها فتخفيننا !!
وهذه القصيدة كما ترى ، في حالتها الأنيقة الرشيقة ، وفيما عرفت به من سمو
المعاني ورقة العبارة وشبوب العاطفة كفييلة بأن تهدي ثورة جامحة من ثورات النفس
أو أن توقظ فتنة نائمة من أحاسيس الهوى والفتون ، وقد جاء في كلام العرب قديماً
أن من ابس البياض ، وتحتم بالعقيق ، وحفظ قصيدة ابن زيدون فقد حاز
الطرف كله !!

وفي ليلة السفر تشرفنا بتوديع حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم وداعاً حاراً
مؤثراً بليغاً لاتستطيع وصفه أسلات الأقلام ، ولا ريشة الرسام ولا ترقى إليه بلاغة
لسان ، ولا نبضات جنان ، ولو كان الواصف في بلاغة قس أو فصاحة سحبان !!
وفي تلك الليلة طافت برؤسنا أخيلة الذكريات والحنين عن الماضي القريب الذي
ساختناه في هذه الروضة ، وعن المستقبل الوشيك الذي ننتظره من لقاء الأهل
الأولاد ، فكانت ليلة فذة من ليالي العمر التي لاتنسى ، وكانت ليلة صاحبة مصبحة
ساهرنا فيها الذكريات والنجوى . وسامرنا فيها الأماني والأحلام .

يوم السفر وذكريات الروضة

أصبحنا - يوم الاثنين ٤ ربيع الأول - نسرف المهمة في الاستعداد للسفر ، فمذه السيارات الكبيرة قد عيئت من الليل ، وهذه السيارات الصغيرة تبعاً للسفر ، وهانحن أولاء تنبياً للركوب ، وفي عشرات من الدقائق كنا قد أخذنا أهبتنا وانتظم الموكب في استقبال طريقه إلى السير ، فقال لي صاحبي ماذا تقول ، قلت - :

عليك سلام الله يا روضة الخفس ويأمن لها في النفس منزلة النفس
نودعها والقلب بالشوق مغمم إليها ، فهل عود إلى « روضة الخفس » !!
فقال لي صاحبي - أجل « فهل عود إلى روضة الخفس » قلت نعم إن شاء الله
وكانت في العمر بقية .

وكانت هذه الأبيات على صفرها وقصرها ، سلوة كثير من الرفاق في سياق السفر وحين التوريع ، وكانت هي النعمة التي ترجعها أصواتهم الهامسة معبرة عن دفين الشوق وكامن الحنين .

ومن أجل ذكريات الروضة ، أننا كنا في « غدير الخويين » ذات ليلة نتنزه على عادتنا ، وكان ذلك ليلة ١٥ صفر ، ولا يعني من تحديد التاريخ إلا أن أقول إنها كانت ليلة تمام البدر ، فشهدنا منظرآ لم نشهده من قبل وهو منظر طلوع القمر وغروب الشمس ، ذلك في المشرق وتلك في المغرب وقد تقابلا وجهاً لوجه ، فلفت نظري هذا المشهد الذي يمثل أسمی معانی الجمال وأبهاها ، فقلت لصاحبي ماهذا ؟ فقبل لي إن هذا المنظر لا يتاح إلا في مثل هذه الليلة من كل شهر أى في النصف منه ، فقلت لاني لم أشهده من قبل ، فقال ولسكنه لا يتاح إلا في منتصف الشهر ، وفي مثل هذه

الصحراء التي لا يحجبها حجاب ، والتي يستشف منها الإنسان صفاء نفسه ، فيستشف فيها صورة النيرين متقابلين ، هذه الشمس وذاك القمر ، ولولا الصحراء ومواجهتها للفضاء ، لما استطعنا أن نشهد هذا المشهد الجليل الرائع ، فلما رأى الرفاق إعجابي بهذا المنظر وشغفي بجماله ، قالوا ماذا ترى في هذا المنظر من الشعر وأين منه الشاعرية قلت أجل ومن للشاعرية بمثل هذه المواجهة المصاحفة ، فها أناذا أقول ولعل أوفق فيما أقول - :

أطل علينا البدر في ليلة الخفس لعشر من الليلات عدت على خمس
تلاقى وقرص الشمس في الأفق غارب كوجه إلى وجه ، ونفس إلى نفس
ولا أدري ماذا قوبل به هذا الوصف المنسجم مع الواقع ، ولكن الذي أدريه أن هناك من حفظه وردده عن ظهر قلب! أما أنا فقد نسيت ما قلت لولا جمال الذكرى وما تشجذ به القريحة من إرهاف وإصغاء ، وها أناذا أحن إلى نجد قبل مفارقتها فأردد متمثلاً بقول القائل :

يا سمد قل لي وأنت حر متى رعان العميق تبدو
أشتاق نجدا وساكنيه وأين منى الغداة نجد؟!
وفي معرض هذه الذكرى ، وفي سورة من سور الحنين خلوت إلى نفسي ، وذكرت ما أنا فيه من نعيم طريف ، ومن أنتظر لقاءهم من الأهل والأولاد ، فقارنت بين الحالتين فلم أستطع تقديراً وغلبني الشوق إلى ما أنا فيه ، كما غلبني الحنين إلى من أنتظر لقاءهم ، وتداومت نفسي تصطبغ بشتى اللواعج والآلام ، فقلت بيتاً من الشعر أو بيتين - :

لم أدر أيّ الهوى في مهجتي باري من روضة الخفس أو من شعب أجياد
هنا رفاق وأصحاب غطارفة وذاك في سفحه أفلاذ أكبادي

وظللت أهمس بهذه الأبيات ، وظل رفاقي يتناقلون كلماتها ، ثم استرسلت فيها في لحظات فينات متتابة من ذلك اليوم ، فقلت - :

لم أدر أى الهوى فى مهجتي بادي من روضة الخفس أو من شعب أجباد^(١)
هنا رفاق وأصحاب غطارفة وذلك فى سفحه أفلاذ أ كبادى
الله فى مهجة أودى بها شغف وفى « فؤاد » إلى « أكباده » صادى
كم وقفة فى خيال الشعر رائة كأنها روضة فى شاطئ الوادى
سبحت منها بأحلام منمقة كأنها فى ليالى الدهر أعيادى
أصغى إلى الطير فى الأوكار ناغية ترتل اللحن فى ترجيع إنشاد
كأنها شاعر الروض الذى هتفت على قوافيه حسناً روعة الضاد
أو أنها الشعر أجنى من مزارعه ثمار ما أنتجته كف حصاد
أو أنها النوق تزجى السير دائبة إلى الحبيب وشعرى وحده الحادى

واستأنفنا المسير من الروضة فى ذلك الصباح الباكر ، وكان أسلوب السفر فى العودة غير أسلوب السفر فى الذهاب ، فقد واصلنا السفر بهمة بعيدة ، ونشاط عظيم ، ولست أعرف على التحقيق مرجع ذلك النشاط ، أكان هو بدافع الشوق إلى الأهل والدار ، أم كان بعامل آخر هو عامل التخشن والتعود على حمل المشاق والتجلىد على مواصلة الأسفار ، اكتسبناه فى مدة ذلك الشهر من تلك العوامل ؟ !

أجل ، فقد واصلنا السفر ، وطوينا الأرض طياً ، ونهينا المسافات الشاسعة نهياً ، حيث مشينا فى اليوم الأول من الروضة إلى الدوادي على مرحلة فيها استراحة قصيرة لقضاء الليل فى قصر الدوادي حسب البرنامج الذى اتفقنا على تنفيذه ، والمسافة

(١) كاتب هذه السطور يسكن فى شعب أجباد بمكة ، وهو مألّف سكنه ومكان حنينه .

في هذه المرحلة هي ٣٢٠ كيلومتراً ، وهي مسافة قل أن يقطعها مسافر في يوم واحد
مرحلة واحدة !!

وقضينا ليلة الثلاثاء في قصر الدوامي ثم استأنفنا السفر في صباح يوم الثلاثاء ،
مواصلين السفر بنفس المهمة العالمية التي قطعناها بها المسافات في اليوم الأول ، فقد كان
المقرر في برنامج هذا اليوم أن نواصل السفر إلى المويه ، لنقضي الليل في قصر المويه
وكانت المسافة جد شاسعة ، والشقة جد بعيدة ، إذ هي تزيد عن مرحلة اليوم الأول ،
ولكن الله المستعان ، فقد أعان بحسن توفيقه على مواصلة السير فاجترينا في هذه
المرحلة الشاسعة جملة مراحل ومحطات لم نتوقف إلا في واحدة منها لتناول طعام الغداء ،
وفي بعضها للتزود من الماء وهي : « القاعية وعفيف والدفينة ثم المويه ، وقد بلغناها بعد
المغرب بقليل في جو ممطر بمض الشئ . وقد بلغت المسافة التي قطعناها في هذا اليوم
بين تلك المراحل ٣٧٦ كيلومتراً هي المسافة بين الدوامي والمويه . وكان المقرر في
برنامجنا أن نستأنف السفر في صباح اليوم التالي - الأربعاء - من المويه فنصل إلى
مكة في مسائه ، والمسافة في هذه المرحلة ٢٧٢ كيلومتراً أي أقل من مرحلتى اليومين
السابقين ، واسترسلنا في الأحلام الذهبية بضع ساعات بعد أن منينا النفس بالوصول
إلى الدار والأهل في مساء ذلك اليوم الأربعاء ، فنكون قد قطعنا الطريق في ليلتين
أو ثلاثة أيام ، وهي مدة أقل من نصف المدة التي استغرقناها في الذهاب !! وكان
سرورنا عظيماً بما سينسب إلينا من علو المهمة في مواصلة السفر وبما ترتب عليه من
سرعة العودة وسرعة اللقاء !!! ولكن حدث كما قال الشاعر : « وتقدرون فتضحك
الأقدار »

ذلك أن المطر الرذاذ الخفيف الذي صحبنا في أوصل يوم الثلاثاء وظل يصحبنا إلى
وصولنا للمويه ، قد استأنف هطوله بغزارة طيلة تلك الليلة ، وكان المعروف لنا ولن
استرشدنا بأرائهم أن قبل المويه وبمدها مساحة كبيرة من الأرض السبخة التي إذا

غمرها قليل من ماء المطر - فضلا عن كثيره - عادت غير صالحة للسير مطلقا فإذا غمرت سيارة بالمرور فيها ساخت أقدامها - أى عجلاتها - ورفارفها وجوانبها فى أرض طينية مالحة رخوة ، وكذلك الشأن فى الجمال والمشاة وقد رأينا ذلك فى أنفسنا فقد حدث فى اليوم التالى أن خرجنا لنزهة قصيرة حول القصر ، - وحول القصر فقط - فكان من بيننا من ساخت رجلاه إلى حد الركبة .

وقد ورد فى كتاب « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد بك حمزه ، ذكر لأهم السبخات الموجودة فى المملكة فذكر تسع سبخات سمّاها بأسماء أماكنها ، ولم يذكر سبخة المويه هذه ولعلها لم تكن قد عرفت من قبل ، أو انها ثانوية الأهمية بالنسبة لغيرها ، والذى حدانا إلى تسجيل هذه الملاحظة هو أهمية كتاب قلب جزيرة العرب ومكانته الرفيعة فى موضوعه ، ثم أهمية هذه السبخة بالنسبة لما شهدناه فيها رأى العين ، ولعلنا لو لم نشاهد هذه السبخة فى حالتها الممطرة ، لكننا مررنا بها مر الكرام من غير أن نقدر لها من الأهمية ما تستحقه ، لأنها فى حالتها العادية لا تلفت النظر مطلقاً أكثر من أن لونها الأسمر ولعبة الملوحة فى بياض سطحها ، يدل المسافر على أنه يقطع أرضاً سبخة ، ومما حدانا أيضاً إلى تسجيل هذه الإشارة أن هذه السبخة من أمهات السبخات نظراً لكبرها وسعة مساحتها ، فهى فى المسافة التى قبل المويه أو بعده تزيد عن عشرات الأميال ، وتلك مساحة لا يستهان بها بالنسبة إلى غيرها ، وهى لهذه الأهمية قضت علينا بالاحتباس فى المويه مدة ٤٨ ساعة لم نستطع معها مغادرة غرفنا فى القصر ، وتفصيل ذلك أننا أمضينا ليلة الثلاثاء فى المويه ، فلما كان الصباح عوّلنا على استئناف السفر بعد أن كفت المطر قليلا ، ولكن بعض ذوى رأى والخبرة ومن استشرناهم من الرفقاء ومن سكان البادية ، أشاروا علينا بعدم السفر وتأجيله مدة ٢٤ ساعة أخرى حتى تجف أرض السبخة التى لا يمكن اجتيازها مطلقاً وهى رخوة لينّة ، - هذا على فرض انقطاع المطر ، أما إذا لم ينقطع فسنظل

محبسين في غرفنا بالقصر أياماً أخرى إلى أن تجف أرض السبخة من لينها ورخاوتها، ولذلك قضينا يوم الأربعاء مقيّلين في قصر المويه والمطر ينهمر أحياناً وينحف أحياناً أخرى إلى أن انقطع بعض الشيء ، ثم واصل الانهمار في فترات متقطعة من الليل ، فقضينا طيلة يوم الأربعاء في القصر ، كما قضينا ليلة الخميس ساهرين ساهدين ! ومالنا لا نسهر وما لأجفاننا لا يجفوها الكرى ، وهذه مكة ومن فيها لنا من أهل وأولاد ، على قيد مرحلة واحدة من مراحل برنامج سفرنا ، وهذا الطريق إليها موصد في وجوهنا لاستطيع منه دنواً ولا قرباً .

لقد كانت ليلة المويه هذه من أمهات ليالي الدهر ، وكانت ليلة نابغة طويلة مملّة لم تنفع معها حيل السمّر ، ولا اصطناع البهجة ولا اختلاق الجبور ، لأننا أكرهنا على البقاء في مكاننا هذا إكراهاً طويلاً بلغ الثمانية والأربعين ساعة ، وكنا عولنا على السفر في إصباح تلك الليلة ، فليس عجيباً أن تكون طويلة وأن تكون مملّة إلى ذلك الحد من الطول والإملال ، وأن نشد فيها مع ابن معتوق :

يا ساكني الجراء لا أقوى الفضا	منكم ولا فقدت مهاكم توضّح
هل في الزيارة للنسيم أذنتموا	فلقد أشم المسك منه ينفج
لا تنكروا قتل الرقاد بينكم	أو ليس ذا دمه بخدى يسفج
لله كم في سربكم من مقلة	تمضى ، ويبض صفاحها لا تجرح
رفقاً بمنترح إليكم روحه	تقدو بها ربح الصبا وتروح
يصبو إلى برق الحجون فتلتظي	ويصوبّ الدمع الهتون فتسبح
رعيّاً لأيام الحمى ، ورعى الحمى	وسقت معا هذه المهاد الروح
كل الموارد بعد زمزم حاوها	بفمي يمج ، وكل عذب يملح
لا تطلبوا عندي الفؤاد فداره	إما ربوع منى ، وإما الأبطح

أجل ، لقد قضينا تلك الليلة الليلاء ، بطول السهر ، واصطناع السمر ، واختلاق
 الهجة والخبور ، وكان ينسل أحد الرفاق بين الفينة والأخرى مراسلاً بصره إلى
 السماء ليتبين فيها النجوم ، بين الأمل والوجوم ، فإن لمح نجماً في أقصى السماء
 انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضى والاطمئنان إلى مواصلة السفر في الغد ، وإن
 أبصرها مغيمة مكفهرة ، عاد مغماً مكفهرآ !! وقضينا الليل في تلك الحال وعلى ذلك
 المنوال ، حتى ضحكت السماء عن ابتسامتها الواضحة ، وأشرقت النجوم بإذن ربها ،
 وجفت من مآقيها الدموع المرسلات التي غمرت بها الأرض ، فكان ضحكات السماء
 هي ضحكات نفوسنا التي استبشرت بها ، بعد ما كان بكاء السماء بدموعها المنهمرة
 ووجوم نجومها ، كآبة في نفوسنا ووجوماً فيها ، وزادت السماء وضاحة وإشراقاً بما
 استمدته من وضاحة الشمس وإشراق نورها بإذن الله، وهناك انفرج الأمل في نفوسنا
 وضحكت إلى مصافحة الجو وإشراقه، ثم اجتمع مؤتمراً وقرر استئناف السفر والتوكل
 على الله سبحانه وتعالى .

وبعد أن قضينا ليلتي السجن المكروه في المويه ، ويومئذ ، قررنا مواجهة الأمر
 الواقع واستئناف السفر ، حيث لم يكن منه بد ، وحيث قد نفذ الصبر ، وها هي ذي
 إشراقه الجو قد لاحت فلاحته في نفوسنا إشراقاً ، وقد سطعت فبعثت في نفوسنا
 عزماً دفاقاً .

وفي الصباح الباكر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول ، شددنا رحالنا وليست هي
 غير السيارات ، وغادرنا المويه قاصدين إلى عشيرة فسكة ، وقد أعان الله على مشقة
 الرحلة وعلى مشقة السبخة فلم نصادف صعوبة تذكر ، واستعمل سائقو سياراتنا كل
 مافي وسعهم من دهاء الصناعة ، وذكاء الحيلة ، في تفادي الاصطدام بتلك السبخات
 فكانوا يعمرون بها من الكرام بجميع مافي هذا المثل من معنى ، والاسراف في السرعة

حتى يفتدوا سياراتهم - وركابها أيضاً - من أن تسوخ أقدامها - وركابها - في باطن الأرض ، وكانت تلك حكمتهم طيلة الأرض الرخوة اللينة ، حتى قدّر الله لنا السلامة في اجتيازها . ومن أعجب المناظر في تلك السبخة هو منظر تراكد مياه ذلك المطر الغزير في شمالها بما كان يشبه البحيرات ، فمررنا بها وقلوبنا واجفة ، وأبصارنا زائفة طيلة بضع ساعات من الزمن حتى اجتزناها إلى الأرض الصماء الجلد الشديدة .

وخرجنا من السبخة إلى سهل فسيح هو سهل ركبة الذي سبق أن ذكرنا وصفه في الذهاب بين العشيرة والمويه ، وفساحته وامتداد رقمته ، وهذا السهل يلفت النظر بجماله الأصم ، فلا هو مزدهم بالأشجار والغابات ، ولا هو مأهول بالجبال والهضبات ، ولا هو مشاب بالنوائى والوعورة ، فهو من هذه الناحية في جمال أصم إن صح هذا التعبير ، لأنه جميل بخلوه من تلك الوعورة والجبال والنوائى ، وغير جميل بخلوه من الروضات والغابات والمزارع ، فلذلك قلنا إن جماله أصم ، كما قال العرب قديماً عن جمال شهر رجب بأنه « رجب الأصم » لخلوه من قمة السلاح ، التي هي غير محببة إلى النفس على كل حال .

وقد ورد في كتاب « قلب جزيرة العرب » لمؤلفه سعادة الأستاذ فؤاد بك حمزة فصل خاص عن السهول والسبخات ، جاء في الصفحة رقم ٤٢ منه عن سهل ركبة البيانات الآتية :

« وتوجد في المناطق الداخلية في البلاد سهول مترامية الأطراف ، واسعة الأرجاء يسير فيها الإنسان مسيرة أيام دون أن يجتاز آخرها . ومن أهم هذه السهول في جهة الحجاز سهل ركبة المشهور الذي يحده من الشرق جبل حضن ، ومن الجنوب جبال عشيرة والعرجية والطائف ، ومن الغرب سلسلة جبال الحجاز العليا ، ويمتد من نواحي عشيرة التي تبعد عن الطائف ٦٥ كيلو متراً إلى جهات المويه وأرض هذا السهل

الواسع مؤلفة من الطبقات الرسوبية الصلصالية تعلوها في أماكن قليلة حصباء وسوداء وخلافها » اهـ .

وهذا الوصف الذى ذكره فؤاد بك حمزة ينطبق تمام الانطباق على حقيقة سهل ركة الذى مر ذكره !!

وبعد متابعة السير ، أسلفنا سهل ركة إلى العشيرة ، فتنفسنا الصعداء بالوصول إليها لأنها طليعة مكة ، وقد أذنتنا برؤيتها تلك الحرار السوداء المحيطة بها والتي تعتبر بشيراً بها لكل صادر ووارد ، فهي تلوح للقادم من مكة مثلما تلوح للقادم من نجد ، وهى فى الحالتين علم على المكان وإيدان بالوصول !!

وصلنا إلى عشيرة بين الظهر والعصر من يوم الخميس ٧ ربيع الأول ، فقصدنا إلى محطة البنزين لنستريح فى إحدى غرفها مدة من الوقت حتى تصل بقية سيارات الرفاق جميعهم ، وحتى نترؤد منها بما تحتاج إليه سياراتنا من طعام وشراب ، وليس هما غير الوقود من زيت وبنزين !!

وقضينا مدة ساعتين فى تلك الاستراحة الهانئة حتى اجتمع الرفاق وحتى قضينا وطرنا ووطر سياراتنا من التروؤد بالوقود ، وبعد الساعة التاسعة بقليل تحرك المؤكب قاصداً إلى مكة ، فررنا بالسيل الكبير ومنه إلى الزيما ، ثم إلى الشرايع ، وقد بلغناها حول المغرب ، وهناك نزلنا لأداء فريضة الصلاة ، وللسلام على المستقبليين الذين خرجوا لاستقبالنا على غير ميعاد ، وكان فى مقدمتهم الشيخ أمين الشيبى وغيره من بعض الأصدقاء ، وقد جاء لاستقبال والده ، واستقبال أصدقائه من أعضاء الوفد المسكى . وبعد صلاة المغرب ، نهضنا من الشرايع قاصدين إلى أم القرى ، وبلد الله الحرام ، وموئل الأهل والأولاد والأصدقاء ، فبلغناها قبيل صلاة العشاء ،

وكنا قد أحرمانا من الميقات لدخول مكة معتمرين ، فقصص الجميع إلى المسجد للطواف ثم إلى المشعر الحرام للسعى ، ومن ثم تفرقوا إلى منازلهم على متون سياراتهم التي لا أظن أنها كانت تسير بوقود من البنزين ، وإنما كانت تسير بوقدة من الشوق ، وبحرارة من الحنين إلى حيث الأهل والدار ، في لوعة الشوق والانتظار ...

وقد حدث أن بعض الرفاق ، وبقية الوفود الأخرى كانت سياراتهم متأخرة عنا في الطريق بضع ساعات ، وقد قلنا إن المطر قد هطل قبيل المويه فعاقتها السبخة التي مر ذكرها عن متابعة السير بضعة أيام وكان طريقها يختلف عن طريقنا .
فذلك وفد المدينة قد اختار طريق المهدي ، وهو يتفق مع طريقنا من نجد إلى عشيرة ، ومن ثم يأخذ سبيله إلى المدينة المنورة ، وقد لقي هذا الوفد عقبات في عودته بسبب هطول الأمطار وآثارها في بعض السبخات بما أدى إلى تأخيرته .
وهذا وفد الطائف يتفق طريقه معنا من نجد إلى العشيرة أيضاً ، ومن هناك يختلف عنا في سلوك طريقه إلى الطائف من أحد جوانب سهل ركة الفسيح ، وقد وصل متأخراً عنا أربعة أيام . ولم يصل معنا غير وفد جدة ، الذي كنا نلتقي به في فترات من الطريق حتى اتفق لنا اللقاء به في السيل الكبير ، ثم في مكة أيضاً ، وكان من أعضائه الشيخ محمد حسين نصيف وأحمد بك باناجه ، حيث تخلف الحاج يوسف زنيل في الروضة وقصد منها إلى الظهران والإحساء والبحرين .

ختام الرحلة - الربيع في الحجاز

قلنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إن من الأسباب والعوامل في تكوين الرحلة وجود الربيع في نجد في ربيع هذا العام ، بحالة جيدة من الخير والرخاء اللذين ترتبا على فضل الله بالغيث العميم ، وجوده بالمطر الغزير ، حتى استحال الصحراء بنعمة الله إلى جنات زاهرة ورياض أنيقة مشرقة ، وخصوبة معشوشبة ناضرة ، وقلنا إن الله أراد بالملكة كلها خيراً ، وأن يكون ختام الرحلة مثل بدئها ، مقروناً باليمن والخصب والخير الوفير ، فكان ختاماً رضيعاً بهيجاً ، وذلك بإرساله الغيث إلى الحجاز ، وإلى جميع أنحاء المملكة بحالة نادرة قليلة المثال ، ترتب عليها الخصب العام لجميع أجزاء المملكة ، وبذلك كان البدء مثل الختام ، خير في الأول وخير في الآخر وفيما يلي نذكر كيف كان الربيع في الحجاز .

قلنا أن دخولنا مكة كان مقررآ في برنامج سفرنا أن يكون - على الأرجح - في يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول ، وقلنا إن الأمطار التي هطلت علينا في الطريق احتجزتنا في « المويه » مدة ٤٨ ساعة حتى سكنت الأمطار وجفت سبخة الأرض التي حول ذلك المكان . وفي الأقوال المأثورة « لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع » فقد كانت نفوسنا تلحّ علينا في السفر بغية الوصول إلى مكة في ذلك اليوم ، حتى أراد الله أن نحتجز في المويه إلى اليوم التالي - الخميس - حيث بلغنا مكة في مسائه ، فهل يعلم القارئ كيف رأينا مكة حين بلغناها ، وهل يعلم مقدار فضل الله علينا ونعمته في تأخير وصولنا إلى مكة مدة الثمانية والأربعين ساعة التي تأخرناها مكرهين في محطة المويه؟! أجل ، لقد كان من أكبر نعم الله علينا وبره بنا أن أرغمنا على مخالفة هوى نفوسنا في الوصول إلى مكة في اليوم السابق ، وإن أبقانا برغمنا في محطة المويه إلى

اليوم التالى ، فقد كانت مكة فى ذلك اليوم الذى كنا نطمح بوصولنا إليها ، غارقة بين أمطار السماء التى فتحت ميازيبها ، وأمواج البحيرات التى تدفقت بها بحالة لم تعهدها ولم تعرفها منذ عشرات السنين ، بحيث كانت الدخول إليها متعذراً ، والوصول إلى بيوتنا أشد تعذراً ، فكانت حكمة الله فيما اختاره لنا من الأمر الواقع ، وذلك لما أحدثته من أضرار فى الطرق ، كانت الأخطار فى ارتيادها محققة مكفولة !

فقد صبحا الناس من نومهم بمكة فى الفجر من يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول على صوت الغيث وهو يهطل رذاذاً من السماء ، ثم أخذ ينهمر قليلاً قليلاً ، ثم كف بعض الشيء ، إلى قبل شروق الشمس حيث تلبدت السماء بغيوم داكنة ممطرة ، شحنت أطرافها بطبقات كثيفة من تلك الغيوم القائمة المنذرة ، وكانت السماء فى حالتها وفى معناها ، أشبه بمظاهر القرب السوداء التى انتفخت أوداجها من شدة ما تحمل بين جلودها من المياه الحبيسة المتدافعة ، أو كأنها فوهات الأنابيب المتدفقة ، التى تندفع منها المياه مجنونة صاحبة نائرة ، أو كأن كل قطرة من قطراتها تفتحت عن ميزاب من الميازيب ، أو عن بئر من الآبار . وأخذ المطر ينهمر على تلك الصورة الرائعة من اعتدال النهار إلى أصيله ، وقد أحصيت المدة التى انهمرت فيها الأمطار فكانت تسع ساعات سوية إلى أن خفت سورتها ، وهبطت حدتها واعتسدت حالتها ، وخفت وطأة شدتها !

فهل يعرف القارىء ، عم تكشف تلك الأمطار الغزيرة التى تقدم بعض وصفها فى إيجاز نخل لا يمكن أن يصل إلى حقيقة التعبير عنها بحال من الأحوال !!؟

لقد تكشف تلك الأمطار عن حوادث لا تحصى من الخير والشر ، وإن كان جانب الخير فيها هو المطلق الأعم ، ولقد تكشف عن معلومات واسعة بما لحقت الناس من الخيرات والأضرار ، وكان فيها إلى جانب تلك الحوادث جوانب أخرى

للعظة والتنادر ، وجواب للجد والفكاهة ، أظنها ستكون حديث الجليل بأسره ، ولا أبالغ فأقول إنها حديث الدهر ، فقد طغت على الدهر حوادث الحرب وويلاتها بما ينسى كل شيء !!؟

١ — أما جانب الخير فيها ، فهو ما ترتب على هذا الغيث من الخير للبادية بصفة خاصة ، ثم للمجموع بصفة عامة ، حيث انتفع الناس بما أنتجته الحقول من ثمار وبما انتفعت به من النمو والازدهار وخصوصية المرعى .

٢ — وأما جانب الشر فيها ، فهو ما حدث من الأضرار المادية الفردية التي أصابت بعض الناس ، وهي أضرار وإن كانت فادحة بعض الشيء ولكنها لا تنكاد تذكر بجانب ما أفاضت من الخير .

٣ — وأما جانب العظة والاعتبار ، فقد ترجم عنه حضرة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل في حديث من أحاديث مجاسه العامر الحفيل ، فقد قال إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعظ عباده وينذرهم في هذه البلاد المقدسة التي رفلت في بحبوحة الأمن من الخوف والجوع ، لتقابل نعمته بحققها من الشكر فتفضل سبحانه وتعالى ، فيجمل إنذارهم عن طريق رحمته ، ووعظهم عن طريق بره ، فأراد أن يريهم الشر من طريق الخير ، وأن ينذرهم من حيث يبشرهم ، فأرسل الغيث فيه رحمة ، وفيه نذير فانتفع به الأعم ، وأصاب به الأخص ، ليتنبه الناس إلى دينهم ودنياهم ، وفي ذلك أسمى معاني الرحمة من الله في الإنذار والتحذير .

٤ — وأما جانب الفكاهة والتنادر فينتحصر في بعض حوادث فردية ترتبت على وقوع السيل ومفاجأته للناس ومداهمته لبعض شؤونهم وهم في غفلة عنه ، ومن الأمثلة على ذلك منظر سيارة جرفها السيل بسائقها فكانت كالزورق العاطل حين تتقاذفه الأمواج ، أو منظر بعض الأمتعة التي جرفها السيل فكانت تتقاذفها أمواجه

على مرأى من الناس ، ومنها صناديق حديدية وأمتعة أخرى وأوانى منزلية وحاجيات إلى جانب مايمثل هذه الحوادث من المظاهر ، مما سيأتى ذكره فى محله .

ظل المطر ينهمر كأفواه القرب على مكة وضواحيها طيلة تلك المدة من الساعات التسع فى يوم الأربعاء ٦ من ربيع الأول ، وقد شمل مكة من أقصاها إلى أدناها وانحدرت حباته على رؤوس الجبال بأصوات مدوية ، ونبرات متدافعة ، ثم اندفعت إلى السفوح فالسهول حيث تحولت إلى سيول فى كل مجرى من مجارى الماء ، ومن ثم تكون السيل الرئيسى العظيم الذى يخترق وادى إبراهيم . ولما كانت ضواحي مكة قد أمطرت أيضاً إلى مسافات بعيدة شاسعة فى البادية ، فقد انحدرت مياه الأمطار من رؤوس الجبال وتكونت منها سيول عظيمة متدفقة اندفعت كلها إلى مكة وزودت سيل وادى إبراهيم بما لم يكن معه حاجة إلى زيادة لمستريد ! فجعلته شبه بحيرة عظيمة تتلاطم فيها الأمواج الصخابة المرغية المزبدة وأخذت مياه تلك البحيرة الهائجة المائجة ، تهاجم كل من اعترضها فى طريقها ، أو كان على حوافها وضفافها من إنسان أو حيوان ، أو بناء أو متاع ! ومن لم يعترض طريقها لم تضن عليه بلفتة من لفقات مياهها تجذبه بها أو تقصيه عنها !!

فهناك كثير من البيوت التى هى على ضفاف سيل وادى إبراهيم أو غيره من مسالك السيل هاجمها الماء ، أو على الأقل هاجم مبانيها السفلى فاغترف ما فيها من الأمتعة وجرفها ، فكان منظر تلك الأمتعة وهى تتراقص على نفحات المطر ، وتتدافع على حركات الأمواج ، من المناظر التى تبعث على الضحك والرائاء فى آن ، وكثير من الحوانيت وهى معرضة لسهولة تناولها على الأمواج ، هوجت من السيول وانجرف ما فى باطنها من الأمتعة والأوانى والأدوات ، حتى أن صندوقاً من الصناديق الحديدية التى يستعملها الصيارف لحفظ نقودهم ، لم يستطع ثقله وثقل ما فيه من فضة وذهب

إن يستعصى على تيار المياه التي جرفته إلى مسافة عشرات من الأميال ، ثم حطمته شر تحطيم .

وكثير من البيوت التي كانت بمنأى عن مسيل الوادى ، وبمرتفع من المسابيل عامة ، لم تسلم من أذى الأمطار ، وانهيار قواتها ، فأصيبت الضعيفة الواهية ، بنصيب ضعفها من الأضرار ، ولذلك فقد كانت الخسائر المادية المترتبة على هذا الحادث فادحة إلى حد ما ، ولكنها خسائر لا تذكر إذا قسناها إلى جانب الفائدة العامة التي عادت على البلاد والعباد من هذه الرحمة الإلهية الكريمة .

أما الخسائر في الأنفس فلم تقع إلا في غرق ثلاثة أشخاص ، منهم رجل زنجي دمه السيل في ناحية من نواحيه الغزيرة ، واثنان غرقا بعد بضعة أيام بينما كانا يستحجان في أحد المستنقعات العميقة التي تخلفت عن ذلك السيل العظيم .

وهناك بعض خسائر طفيفة أصابت عدداً من المواشى في بعض جهات العاصمة ، وفي بعض جهات البادية ، لم يتأثر بها أصحابها ، كما أصابت بعض المزارع والحقول بتلف بسيط لم يؤثر في موسم الزراعة نخلوا أكثر الأرض منها .

وهذا المطر الغزير الذي تقدم وصفه في العاصمة ، هو جزء من كثير مما غمر البادية^(١) ، ولم يقع فيها مطلقاً أى خسارة في الأرواح وإن كان قد وقع بعض الخسارة في المواشى دون الآدميين . وقد تحدث إلينا بعض الذين قدموا من البادية يومذاك عن الأمطار في ديارهم ، فقالوا إنها أمطار عامة غمرت بلادهم بمياهها المتدفقة

(١) نسمع في بعض بلاد الأنهر الزراعية الحصة عبارات غاية في الغرابة ، تثير العجب ، وتبعث الضحك في القلب الحزين ، فقد هطلت أمطار في إحداها ، وسمعنا من يقول لزميله : إن الناس لا يرفعون عن غيهم ولا يعتبرون بالمطر ، ولا يتعظون منه ، فكلان المطر نكبة من النكبات التي يصيبها الله على عباده ! بينما نراها نحن رحمة ورخاء .

من السماء ، كما غمرت بها بالسيول الجارفة التي ارتفعت في بعض المضائق إلى علو عشرات الأمطار فسدت ما بين جبيلين في كثير منها !!

والأمطار وإن كان ينتج عنها أحياناً بعض الضرر في المدن العامرة بالسكان والبنیان ، ولكنها لا تكون كذلك في البادية ، بل هي للبادية حياة وانتعاش لما يترتب عليها من الري والزراعة والسقيا والرخاء ، وما يعود نفعه بعد على المدن في جميع الحواضر من الرخاء العام والانتفاع بمباهج البادية وثمرات غرسها وتاج مواشها . فذلك كان خير هذه الأمطار للبلاد عمياً وفيراً . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون خيره على البلاد عمياً وفيراً ، فكان هذا المطر عاماً شاملاً غمر البلاد كلها ، بعد أن تقدمه ربيع نجد بالأمطار التي عمت ذلك الجانب من المملكة ، وبذلك تم الرخاء كله للبلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وتلك هي معجزة الله سبحانه وتعالى في شموله هذه البلاد المقدسة بما فيها المملكة كلها بنعمتي الأمن من الخوف والأمن من الجوع .

وقد تقدم الكلام عن وصف سيل وادي إبراهيم الذي يشق مكة من أولها إلى آخرها ، ومن خصائص هذا السيل أنه يمر على طائفة من أبواب المسجد الحرام التي هي في طريقه ، فكانت تلك الأبواب هي السبيل إلى دخوله المسجد ، وقد تكون السيل في أثناء انهمار المطر التي ظلت تهطل ساعات كثيرة من النهار ، وكان مروره أمام أبواب المسجد غزيراً فتدفع منها إلى داخل المسجد ، فكانت تلك الأبواب وهي تصب الماء في المسجد أشبه بميازيب البحيرات ، أو فتحات الخزانات ، أو هي بحيرات صغيرة تندفع بحيرة من كل باب ، أو كأن كل باب بحيرة ، فإن شئت قل إن كل باب بحيرة أو كل بحيرة باب . ومن هذه الميازيب الهائلة تدفقت المياه إلى المسجد الحرام ، وما أدراك ما المسجد الحرام ؟!

فالمسجد الحرام وهو أكبر مسجد وتبلغ مساحته الألوف من الأمتار غمرته المياه وطففت فيه وطففت على أرضه وحصبائه ، فكيف يكون إذا؟^(١) لقد كان بحيرة عظيمة صخابة الأمواج ارتفعت فيها المياه إلى علو مترين أى إلى باب السكبة ، ولا تسئل عن المصلين والعاكفين من العباد ، وكيف انتهى بهم الحال ، ولكن أظرف مناظر هذا السيل على الإطلاق ، هو أن سبىح الناس الذين كانوا فى المسجد على وجه ذلك البحر فمنهم من قصد النجاة عن طريق الأبواب للخروج من مأزق الفرق ، ومنهم من أتجه شطر السكبة للطواف حولها سابحاً ، ومنهم فريق ثالث التجأ إلى الله فإذا هناك دكك خشبية أعدت قواعد لشراب ماء زمزم طاف بها السيل وعامت عليه فالتجأوا إليها وركبوها وسيروها بأرجلهم فكانت كالزوارق طافوا بها حول السكبة طوافاً منظماً حتى إذا ما انتهوا منها تركوها بعد أن أوصلتهم إلى ساحل النجاة ، ساحل النجاة من المعاصى بالطواف حول البيت ، وساحل النجاة من الفرق بالالتجاء إلى الأبواب والخروج منها إلى اليابسة ، وكان هذا أروع ما فى مناظر السيل من الطرافة وتأصل العبادة والتقوى فى النفوس ، وأروع ما استرعى الانتباه ولفت الأنظار^(٢) .

(١) لقد اتخذ معالى وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ، عقب حادث هذا السيل طريقة عاجلة لوقاية المسجد الحرام من أخطار السيول ، وذلك بأن أمر معاليه بعمل حواجز حديدية خارجية تركيب خارج فتحات كل باب من أبواب المسجد عند حدوث الأمطار ، ومن خصائص هذه الحواجز أن ترد الماء المندفى من الخارج ، وتحول بينه وبين اقتحام الأبواب ، وقد نجح فعلاً فى أداء مهمته وكما أئذ الجوى بمطر بادر خدم المسجد وحراسه إلى تركيب هذه الحواجز ، ورفعها بعد انتهاء خطر السيول .

(٢) على أثر هذا السيل تدفقت أريحية حضرة صاحب الجلالة بمشروع عظيم لوقاية مكة والمسجد الحرام من أخطار السيول المندفقة ، فأمر بإنشاء سد فى أعلا مكة بالطريقة الفنية الهندسية =

وبالجملة فقد كانت هذه الأمطار شاملة لجميع البلاد ، وامتدت إلى جنوب المملكة فغمرت المدن والحواسر ، وفي مقدمتها مكة وجدة والمدينة على ما بينهما من أبعاد شاسعة ، وما بينهما من بادية متعطشة إلى السقيا ، وأودية متعطشة إلى الري ومواش تنتظر المرعى الخصيب !! ، ولقد كان النصيب الأوفر منها للعاصمة - مكة - حيث غمرتها مياه الأمطار ، ومياه السيول على النحو الذي تقدم وصفه !! ، فكيف كانت حالة الإنقاذ في العاصمة !!؟

ولقد ابتدئت حالة الإنقاذ منذ استهل الخطر ، وقد استهل الخطر بهطول المطر وهلول السيول ، فكانت أعمال المكافأة متكافئة في ابتدارها وسرعتها وقوتها بالبداية العاجلة المتكافئة مع سرعة الحادث وقوته وخطورته ، حتى تمت الوقاية من الأخطار بإذن الله ، وأعيد تنظيف المسجد وتطهيره في ساعات قليلة لانتجاوز عدد الساعات التي نجم عنها ذلك الحادث الخطير المستطير ، إذ خف إلى العمل السريع جميع رجال الدولة وفي مقدمتهم معاون نائب جلالة الملك الشيخ عبد الله الفضل ، ووكيل وزارة المالية الشيخ حمد السليمان ، ومدير الأمن العام مهدي بك المصلح ، ومدير عام وزارة المالية الشيخ محمد سرور الصبان ، حيث قصدوا إلى مكتب مدير الأمن العام مهدي بك في دار الحكومة ، وقام كل منهم بنصيبه من الواجب المشترك في تلك الحالة الراهية العاجلة ، وكان مهدي بك مدير الأمن العام يبذل من ذات نفسه مجهوداً مشكوراً في هذا الصدد جعل له اليد الطولى في هذا العمل الجليل .

== وخصص له أكثر من مليون ريال ، وتضافرت همم الخالصين من رجال المملكة على سرعة إقامته للانتفاع بنوائده ، وأقيم احتفال كبير لوضع الحجر الأساس في يد سمو الأمير عبد الله الفيصل نجل الأمير فيصل شهده ألوف من الأهالي فكان احتفالا مهيباً رائعاً يتناسب مع أهمية موضوعه أشدت فيه الخطب والقصائد ، وقد وضعت فيه رسالة جمعت كل ما قيل في هذا الحفل تخليداً لذكرى هذا العمل الهام في حياة هاتك المملكة ، كما بذل الشيخ عباس قطان أمين العاصمة في ذلك الوقت ، همه كبيراً ، وسهراً متواصلاً ، وجهداً عظيماً في هذا العمل .

وتضافرت الجهود الموفقة والهمم المبذولة في مكافحة السيل وتصريفه من المسجد الحرام بهمة عاجلة متواصلة ابتغاء رضا الله تعالى وقياماً بالواجب حتى لا تعطل الصلاة في المسجد ، بحيث لم يمض الشطر الأكبر من سواد تلك الليلة حتى تم تطهير صحن الكعبة من أكوام الرمال وتصريف تلك المياه الغزيرة حتى استطاع الناس أداء فريضة الصبح في وقتها بصحن الكعبة وفي الأجزاء التي تم تطهيرها من المسجد .

وقد أمر سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية بتقديم عدد وفير من السيارات الكبيرة نقلت عليها جبال الأتربة التي تركها السيل في الحرم طيلة الثلاثة أيام التي تلت هطول ذلك المطر وما تبعه من السيول ، وظل سماعته يشرف بنفسه على عملية الإنقاذ والتطهير مدة ساعات عديدة من ذلك الليل الأليل^(١) :

وهناك مروءة جديرة بالذكر ، وجديرة أن يسجلها التاريخ ، فهي صفحة ناصعة لمروءة الأهلين من كافة الطبقات ، وغرة مشرفة في جبين النجدة الإنسانية لا يمكن إغفالها . فقد وُجّه النفير إلى الأهلين من أبناء المحلات والاستنجاد بهم وبمروءتهم وشهامتهم للمساهمة في ذلك العمل الخطير السريع الذي يحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة وإلى سرعة الإنجاز في أقرب وقت ، وقد لقي النفير الأذن الصاغية ، ولبت

(١) سعادة الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية شخصية عاملة عرف بالجد والثابرة على العمل ، وقد زار مصر في العام الماضي وأقيم لسماعته حفلة تكريم في « دار قريش » وهي منزل الوجه الكبير إبراهيم بك شاكر بخدايق القبة أنشد فيها كاتب هذه السطور الأبيات التالية :

روض يانداء الأعبة عاطر	كالزهر غب المزن ، زاه ، زاهر
الشمع مجتمع به ، بعاشر	غره الوجوه ، من الرجال عباقر
« حمد » تصدره ، وحسبك أنه	من تعلمون ، صنائع ومآثر
في حفلة هزجت لها أنفاسنا	ورنت ليلها أنفاس وحاجر
رقصت بهجتها وبهجة ربها	بين الضلوع جوانح وخواطر
هو « شاكر » بصنيعه ، وأنا الذي	باسم الأعبة فيه أيضا « شاكر »

هم المروءة في القلوب والصدور ، نخف مئات الأشخاص من شباب المحلات عن
طبيعة خاطر ، وبادرت كل من أمانة العاصمة ومديرية الأوقاف العامة بأدوات الإنقاذ
والتطهير من زنا بيل ومساحى وما إلى ذلك ، وفي ساعات قليلة كان مئات من الأهلين
يعملون ليل نهار في تطهير المسجد الحرام حتى انتهى تطهيره تماما في مدة لا تتجاوز
اليومين بحيث لم يتعطل فيه ولا وقت واحد من أوقات الصلوات الخمس ، ومن ثم
انصرفت إليهم إلى تطهير الشوارع الرئيسية الملتفة حول المسجد من هضبات الرمال
والأوحال التي خلفها السيل وظلوا يعملون في ذلك بضعة أيام وبضعة ليال حتى تم
تطهير العاصمة من آثار ذلك السيل التاريخي الخطير .

وفي الحق ، أن ذلك العمل وما فيه من سداد الرأي وسلامة التفكير في
الإستنجاد بمروءة الأهلين ، كان عملا جليلا جديرا بالتسجيل لأنه أظهر سجيّة
الشهامة وطبيعة النجدة والمروءة ، السكّنتين في نفوس أبناء هذه الأمة ، علاوة على
ما أدى إليه من أطيب النتائج من إنقاذ العاصمة والمسجد الحرام - بإذن الله - من
خطر داهم خطير فادح الضرر بعيد الأثر ، وكان لذلك كله في نفوس الشعب العربي
السمودي أحسن الوقع وأنبّل التقدير !!

بين يدي صاحب الجلالة

وهذه هي الكلمات والقصائد التي ألفت بين يدي حضرة صاحب الجلالة الملك
المعظم في مخيّمه العالي بروضة الخفس .

كلمة فضيلة الشيخ عبد الله الشيباني

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وآله وصحبه وسلم .

مولاي : أرجو أن يسمح جلالتيكم بهذه الكلمة المتواضعة الوجيزة عني وعن
إخواني الوافدين المسائلين بين يدي جلالتيكم فنالوا شرف الوفاة الأسمى من بلد الله
الحرام إلى قصركم العاصر ، بهذا البلد الطيب ، مجدد عهد السلف الصالح في عهد الملك
الصالح ، لتعرب عما تكنه قلوب أبناء الشعب على اختلاف طبقاته من الحب والإخلاص
والولاء لعرش جلالتيكم المغدى بالمهيج والأرواح ، وتلهج أسنة جيران البيت الحرام
بالدعوات الصالحات ، وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بدوام بقاء جلالتيكم فخراً
للعرب والمسلمين .

مولاي : إن هذا الوفد الذي تشرف بالثول بين يدي جلالتيكم هذه البقاع
الكريمة ، يسره أن ينقل إلى جلالتيكم حقيقة وإن كانت معروفة للخاص والعام
إلا أنه لمس في مظهرها من فيض الشعور ما حمّله على الإعراب منها وترجمتها في هذا
المقام العالي .

مولاي : إن الأمة كتلة واحدة تمثل شعور رجل واحد في الشوق إلى اجتلاء
طلعتكم الباهرة المحبوبة ، وكان هذا الشعور بمجموعه يتمنى لو أنيحي له أن يكون

بذاته ماثلاً أملم جلالته ، وذلك أقل ما يمكن أن يكون معبراً عن حقيقة شعوره في هذه المناسبة السعيدة .

فأما وأن ذلك ليس في المستطاع ، فقد شعرنا ونحن نتلقى تحايا المودعين المرفوعة إلى مقام جلالته ، أن قلوبهم التي في صدورهم تنهادى إلينا بخفقاتها ، وتتصل بنبضات قلوبنا فإذا بنا نحمل رسالة من قلب أمة إلى قلب ملك ، وتنهادى بخفقات ولاء شعب مخلص ، إلى عطف والد شفيق فيها نحن نحاول أن نهض بأداء هذا الواجب الخطير ، وهو واجب لا يمكن أدائه إلا إذا توج من لدن جلالته بجميل العطف وحسن القبول .

مولاي : إننا مع عجزنا عن دقة التعبير في تصوير حقيقة ما لسناء من شعور الأمة في هذه المناسبة السعيدة ، فإننا نستدير بما أودعه الله في قلب جلالته من نور الإيمان ونتخذ منه نبراساً نستهدى به إلى حسن الأداء فنقول في إيجاز جامع إن الأمة بأجمعها تشعر بشعور واحد ، هو أنها تدين لله سبحانه وتعالى بالتوحيد والعبادة وتدين لجلالته بالولاء والإخلاص وأن الأمة التي تشعر هذا الشعور نحو ذات جلالته ، يسرها أن تسجل شعورها أيضاً نحو هذا الجزء من وطنها العربي الكريم ، وهو الجزء الذي أنجب للإسلام والعروبة أسرة آل سعود الكريمة ، وعلى رأسها جلالته فكتب لها على أيديكم النهوض والتقدم في عصركم الزاهر ، فإذا بها تضارع غيرها من الأمم الأخرى في مدارج الفلاح .

ونسأل الله تعالى أن يمد في حياة جلالته حياة طيبة يميز بها الإسلام والمسلمين ويعمل بها شأن العرب والعروبة وعلى الأخص رعاياكم جيران بيت الله الحرام وجميع سكان هذه المملكة وأن يبقى حضرات أصحاب السمو الملكي أمجاد جلالته الأمراء الغر الميامين محروسين بعناية الله تعالى ورعايته تحت ظل جلالته .

قصيدة الأستاذ السيد عبيد مدني شاعر المدينة وعضو مجلس الشورى

بدت (المعالم) من سفير الوادى	فاستوفز (الركب) الشعاع البادى
حيث الجلالة فى أجل صفاتها	موصولة الأسفاد بالأسفاد
حيث الحمية والبطولة والقوى	محفوفة بكتائبها الآساد
حيث التقى والدين فى أوجيهما	ومناهل التقويم والإرشاد
حيث العروبة مشمخر مجدها	فى طارف من عزها وتلاذ
حيث الفصاحة فى روائع سبكها	متصور فيها جمال الضاد
حيث السباحة والطلاقة والندى	ومراتع الأزوار والرواد
بل حيث (عاهل يعرب) وإمامها	ورئيسها فى الأمن والارعاد
(عبد العزيز) ومن إذا ذكر اسمه	قام الجميع له ودوى النادى
(ملك) يرى فيه الملوك صحيفة	يستلهمون بها الصواب الهادى
يترسومون خطاء فى أحكامهم	فتكون مصدر حكمة ورشاد
قبس يشع الهدى من جنباته	فيشيع نور الحق للآباد

مولاي أنا (وفد) من خلفهم	يشكون شجوا تشوق وبعاد
أنهلتهم بالقرب منك هنيهة	والآن كلهم بيمدك صاد
ودوا لو اسطاعوا المثل جميعهم	ليسكنوا بك لوعة الأكباد
ما كنت فيهم غير أحنى والد	حذب وكانوا خيرة الأولاد

وملأت بالإكبار كل نفوسهم وعمرت بالإخلاص كل فؤاد
والعرش ما ترسو قواعده على أسس الجوانح لا على الأعواد

لولا تصبرهم بطلمة (فيصل) نفدت جلادتهم وأى نفاذ
هو مثل ما أملتة وعهدته من رأفة وعدالة وسداد

إنا نبشك ما تسكن صدورهم من صدق تضحية وعمق وداد
هذى رسالة أمة أنشأتها فتظلت بلوائك التهادى
علمتها معنى الحياة فخطمت بقواك كل عوائق الأصفاذ
علقت بمرشك والأمانى حمة فاسترسلت لطماحها التهادى

مولاي قد هز الشعوب ودكها هول ألم ففت في الأعضاء
فتكت بها الحرب الضروس وزلزلت أركانها وأنت على الأطواد
صرع الرجال وغادروا أعراضهم يلجأن للأغوار والأتجاد
وتشرد الأطفال في أنحائها يتسكمون على طوى وقتاد
أما بلادك فهى ترفل غبطة فى الأمن والنماء والاسعاد
أما بلادك فهى - فى استقرارها بالراية الخضراء - خير بلاد
جنبتها الأحداث حتى أصبحت رمز الهدوء وصورة الاخلاذ
لم تقتنع إن صنتها ورعيتها وحكمتها فى منعة وحياد
حتى أفضت لها الهناء شاملا بالمعطف كل ثنية ومهاد

ووسمتها بالصالحات وبالحنى
هذا سبيل الملك إلا أنه
هل كل من قاد الشعوب محقق
ما نشرئ له من الأجداد

لا أسأل الله الكريم لأمتى
إلا بقاءك فهو خير مراد

قصيدة المؤلف

مولاي خذ صدق الولاء رمز المحبة والوفاء
من أمة قد أخلصت لك فى العنان وفى الخفاء
قد أعلنت بلسان شا عرها أهازيج الثناء
وتمثلت فى وفدها لمقام عرشك بالولاء
فكانها بلقائه إياك فازت باللقاء
كانت تود لو أنها تجتاز أجواز الفضاء
شوقاً لرؤيتك التى تسمو فتبهج كل راء
حتى تؤدى بعض ما فى نفسها حق الاداء
فاقبل فداء قلوبها فيما تكن من الفداء
واقبل تحيتها على ما فى البعاد من التناى
واقبل تحيتها تكن أعطيتها منح الهناء

مولای کم لك من يد	فی الحادثات بلا مرأ
جاءت كصبح العيد أو	جاءت كمنهل السماء
فكانها وضح السناء	يلوح فی وضح الضياء
كم منة لك أينعت	أو كم يد لك فی رواء
واست بجدواها الفقير	فراح يلهج بالدعاء
وتواترت بالخير فی	صبح عليه وفي مساء
فاذا العناء يزول عنه	وليس ثمة من عناء
عمت فأبناء الحواضر	مثل أبناء العراء
نالوا جدك جميعهم	فهموا على حد سواء
فجزاك ربك عنهم	بصنيعه خير الجزاء

مولای تلك تحية	جاءت تيمس من الحياء
جاءت لنجد رسالة	من بطن مكة بالأخاء
فهناك أبناء العمو	مة فی المودة والرجاء
وهناك شعب شقيق	يزجي أفانين الثناء
مزجت سريره معا	فی الود فی معنى الصفاء
من كل قلب فی مود	دته يشع من السناء
أو كل روح فاض جد	ولها ينبوع الرواء
جاءت تحيته بألوا	ن المودة والبهاء
كالروض فاح عبيره	متضوعا عبر الفضاء

يا باعثاً عصر النبوة	في العدالة والإخاء
ومؤيداً سنن الشريعة	في العيان وفي الخفاء
الله أَمَّنْ بيته	بك فهو محمى اللواء
وأعاد عهد الراشد	ين بما لعهدك من بهاء
فليبق عرشك للعرو	بة رمز مجد واعتلاء
وليبق ملكك خالداً	في العرب مرفوع البناء
وليبق أشبال العر	ين بنوك في رغد الهناء
فيهم سمود المشرقين	وفيصل الحق المضاء
متفيئين ظلال عر	شك في الأبوة والرضاء

كلمة وفد مكة بمد عودته

وبعد عودة الوفد إلى مكة نشر في صحف العاصمة الكلمة الآتية - :

نحمد الله ونثنى عليه ، ونصلي ونسلم على سيد خلقه أجمعين . إن من أعظم ما نغبط أنفسنا عليه ، وما تغبط عليه الأمة ، هو ما نالته وفودها الممثلة لها من مجد باذخ وشرف أئيل بخطوة المثل بين يدي حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أيده الله ، وما حظيت به من عطف جلالته وإكرامه ورعايته ، وهو شرف موجه إلى الأمة بذاتها علاوة على ما وجهه إليها جلالته من الإعراب من عطفه وحنانه .

لقد تفضل جلالته حفظه الله فطوق أعناق هذه الأمة بمنة جديدة مضافة إلى سابق مننه التي لا تحصى ، وذلك بما أسبغه على وفودها من الإكرام والعطف

وجميل الرعاية ، ولقد قابل الجميع هذه المنة الجديدة بالشكر الجزيل لمقامه العالى والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى أن يطيل في عمر جلالته وأن يتمتع بنعمة العافية ودوام الصحة والهناء^(١).

أيها الإخوان: إنا نرف لحضراتكم قليلا من كثير مما تفضل به جلالته من تصريحات قيمة عن نواياه الكريمة الموقفة نحو شعبه المتفاني في الإخلاص والولاء وعن عطفه السامى المتواصل ، وأياديه البيضاء المتصلة ودوام إحسانه على هذه الأمة ، مما أطلق الألسنة بمزيد الثناء وجليل الدعاء ، أدام الله جلالته وخلد ملكه ونفع به الإسلام والمسلمين ، آمين .

(١) فافتنا أن نذكر في الكلام عن الرياض، أن في الرياض مؤسسة كاملة للأشعة للكشف والعلاج تسمى «دار الأشعة» كان صاحب الجلالة أمر بتأسيسها فنهض الدكتور محمد بك الخاشقجي بعبء هذا العمل الجليل بعد أن تخصص في هذا الفن في باريس مدة ثلاث سنوات بأمر صاحب الجلالة، وهي في آلاتها وأدواتها كمؤسسة الأشعة بمكة التي يديرها في الوقت الحاضر مفتش الصحة العام الدكتور محمد بك الخاشقجي .

تقرير فني عن مشروع الزراعة في الخرج

وهو خلاصة ما كتبه البعثة العراقية التي استقدمتها الحكومة في عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٧ م. عن مشروع الزراعة والرى في هذه المنطقة .

مقاطعة الخرج : إن مقاطعة الخرج من أشهر إيلات نجد تقع في الجنوب الشرق من مقاطعة العارض في وادى حنيقة يتوسطها ملتقى خطى ٢٤° من العرض الشمالى و ٤٧° من الطول الشرقى ويبلغ طول المنطقة المسكونة منها من الشمال إلى الجنوب نحو ٨٠ ميلا ومن الغرب إلى الشرق نحو ٥٠ ميلا وأما بعدها من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية فالمسافة بين حدها الشمالى والرياض تبلغ حوالى ٧٥١١ كيلومترا .

أشهر بلدان الخرج الدلم وهى المدينة الرئيسية للمقاطعة وأراضيها خصبة وعامرة بنخيلها وزراعة الحبوب تسقى من آبار عمقها يتراوح بين ٣٥١١ و ٥٠١١ قدما ويبلغ عدد سكانها نحو ٦٠٠٠ نفس يشتغلون بالزراعة .

وهناك بلدان أخرى صغيرة يختلف عدد سكانها بنسبة كميات المياه ومساحات الأراضى الصالحة للزرع وسمه بساتين النخيل فيها وأنهم ما يجدر ذكره من هذه القرى هو السلمية واليامة ونعجان والمناصف والضبية والبدع وفرزان ... الخ .

وما هذه البلدان والقرى إلا سلسلة واحات منفصلة عن بعضها البعض فيها بساتين النخيل والأشجار ويقوم سكانها بزراعة ما يجاور هذه البساتين من الأراضى الصالحة

للزراعة على قدر ما تسمح به كميات مياه الآبار والقابلية المالية لاستثمارها بواسطة الآلات الزراعية الرافعة والحيوانات .

وفي بعض الأماكن تعلو المياه سطح الأرض وهناك تتكون السواقي السيحية فتروى القليل من أراضي المزارع والنخيل الواقعة على بعد بضعة كيلومترات من الينابيع ومثال ذلك الساقية التي تروى بساتين ومزارع فوزان .

منطقة الخرج ووديانها : إن من يطلع على طوبوغرافية منطقة الخرج يتضح لديه أن المنطقة ما هي إلا منطقة ملتقى الأودية فتتجمع فيها السيول وتترك في أراضيها الترسبات الغرينية مما يجعل أراضيها المنبسطة الحوضية غنية في الدهلة التي تزيد في خصوبتها وقابلية استثمارها لغرض الزراعة .

أما الوديان التي قلت إن هذه المنطقة هي منطقة تلاقيها فمن أهمها الوادي المعروف بوادي سير الذي ينحدر من سفوح جبل (علام) الواقع على خطى ٤٤° من الطول الشرقي و ٢٤° من العرض الشمالي .

يمر هذا الوادي بين نفود (قنيفذة) ونفود (داهي) فيمتد شرقاً على حد جنوب جبل برك ويسمى في هذه المنطقة وادي برك أو شعيب البرك الذي يقع مجراه بين حد جنوب الخرج وحد شمال الأفلاج ثم ينثنى باتجاه منطقة الخرج طولا إلى الشمال محاذيا المناطق الجبلية تاركا جبل طويق إلى الغرب فيسمى في هذا الاتجاه شعيب عجمي وهو الشعب الذي تقع عليه سلسلة واحات الدلم .

وأما شعيب العجمي فتصب فيه فروع عديدة وهي الفروع التي تنحدر من المنطقة الجبلية غرب الخرج ومن أهم هذه الفروع شعيب العين وشعيب النسا اللذان يصبان في شعيب عجمي شمال الدلم وبعد ملتقى شعيب العجمي بشعيب النسا يستمر الأول بمجره منتقلا إلى الجهة الشرقية حيث يمر ببلدة اليمامة وبمسافة بضعة كيلومترات شرق اليمامة يلتقي مجراه بمجرى وادي حنيقة ومن ثم ينتهي مجرى الواديين بوادي

السهبي الكبير الذي ينحدر مجراه شرق الخرج باتجاه الخليج الفارسي فيصب في الخليج جنوب سواحل القطر .

وقال المستر فيليبي عن وادي السهبي المذكور بأنه أحد الأنهر الكبيرة المندرسة في البلاد العربية القديمة ويبلغ مجموع طوله ما ينيف على الخمسمائة ميل من صدره في سفوح جبل (علام) إلى مصبه في الخليج الفارسي .

وكان المستر فيليبي قد قطع هذا الوادي في رحلته إلى الربع الخالي بالقرب من رمال الجافورة في مجراه المنحدر شرقاً نحو الخليج الفارسي على بعد حوالي ١٢٠١ ميلاً من مصبه في الخليج وقد سجل مستوى قعر مجراه في هذا الموقع بحوالي ٥١٠ أقدام فوق سطح البحر كما أنه قد قدر عرضه بمسافة ميل واحد وارتفاع ضفافه بما ينيف على العشرين قدماً .

هذا ولما كان مستوى أراضي الأودية المنبسطة بالقرب من مناصف يبلغ حوالي ١٢٧٣ قدمًا والمسافة بين مجرى الوادي في مناصف وقاع المجرى الذي سجل مستواه قرب رمال الجافورة هو حوالي ٣٥٠ كيلومتراً فيصبح بذلك فرق الارتفاع للمسافة المذكورة حوالي ٧٦٣ قدمًا أو ٢٣٢٥٠ مترًا مما يجعل إمكان اعتبار انحدار قعر الوادي حوالي ١ - ١٥٠٠ .

وادي حنيقة : ولا بد من كلمة عن وادي حنيقة الذي سبق ذكره والذي قلنا عنه أنه يلتقي مع شعيب المعجمي في منطقة الخرج : إنه لواد تاريخي مشهور يبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية الشمالية فيشق مجراه قلب العارض ثم يلتقي بشعيب المعجمي شمال شرق انيامة فيكون الاثنان مع فروعهما وادي السهبي الكبير المار الذكر .

وعدا ما لهذا الوادي من ميزات الخصوبة بنتيجة حفظ الماء في باطن مجراه حيث

حيث يمكن الوصول إليه بحفر آبار قليلة العمق فإنه يعتبر أثراً تاريخياً نظراً لأهميته من الناحية التاريخية فهو الذى تقع عليه الدرعية عاصمة نجد القديمة والمدينة مسقط رأس محمد بن عبد الوهاب وفيه قبور الصحابة وديرة مسيلمة الكذاب الذى قتل فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة ١٢ للهجرة .

أراضى الخرج وزراعتها : إن كافة الظواهر تشير بصورة قاطعة إلى أن مقاطعة الخرج مقاطعة خصبة بمياهها وأراضيها بالنظر لتوفر المياه فى أراضيها المنبسطة التى تمدّها الوديان بالمياه الأرضية ، والرواسب الغرينية فى آن واحد فبين الأودية والمنحدرات توجد مناطق خصبة بمياهها وأراضيها عامرة بالسكان فتكون سلسلة من الواحات أو (الروضات) كما تسمى محلياً منفصلة عن بعضها .

وفضلاً عن وجود العمران بين المنحدرات والوديان فهناك آثار تدل على أن زراعة أراضي الخرج كانت فى الأزمنة الغابرة على مقياس واسع ، فهذه الآبار المملوءة الكثيرة ، وهذه آثار الأنهر القديمة المدرسة منها سيحية ومنها عميقة يستدل منها على وجود عمران قديم واسع .

ويظهر أن الحبوب كانت تزرع بمساحات كبيرة ، إذ جاء فى معجم البلدان لياقوت (بأن وادى الخرج هو من خير واد باليمامة^(١) أرضه أرض زرع ونخل قليل) والدارج محلياً بأن نعت هذه المنطقة بالخرج جاء بسبب ما كانت تثمره من المؤن وتخرجه إلى الحرمين .

وهناك دليل آخر على أن المزارع السيحية كانت واسعة فى هذه المنطقة وأعنى بذلك ورود تسمية الأفلاج للمنطقة التى تقع جنوب الخرج ، ولا يخفى بأن كل مايجرى

(١) اليمامة كانت قديماً تطلق على منطقة واسعة ومابلد اليمامة الحالية إلا قسم صغير منها، وقد كتب المؤرخون عن اليمامة بأنها كانت أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخلاً .

سيحاً من عين فهو فلج ، وكل جدول شق من عين على وجه الأرض فهو فلج وجمع الفلاج أفلاج .

وأما أسباب اضمحلال هذه المنطقة واندراس آبارها فهو أمر بديهي لا يستوجب الاستغراب ، فإذا راجعنا تاريخ الحروب والشقاق بين القبائل العربية والأمراء نجد كثيراً من مثل هذه الوقائع ، كطمر العيون وتدميرها نكاية وانتقاماً لكي لا يشرب أو يستفيد منها العدو إذا خرجت بعدئذ من حوزة المحتل ، ومثال ذلك ما قام به عبد الملك بن مروان الأموي حين تمرد أهل البحرين على خلفاء بني أمية إذ أمر بردم كافة عيون البحرين ليقطع زرعهم وأموالهم فيستولى عليهم الفقير ويخضعون ، ويقال إن خمسمائة إلى ستمائة عين كانت قد طمرت في مقاطعة الخرج ، ولا بد أن يكون في هذا القول شيء من الصحة رغم ما ينطوي عليه من بعض المبالغة لأن آثار العيون لا تزال ظاهرة للعيان بما فيها آثار الأنهر والسواقي .

أراضي الخرج ومجاري مياهها : لا يوجد في بلاد نجد أنهار يصح أن يطلق عليها هذا الاسم وإنما يوجد في جهات كثيرة من البلاد ينابيع وعيون في مناطق الأودية حيث تمتص منبسطات الأراضي ومياه السيول الأمطار فتصبح هذه المناطق شبه بحيرات خفية يمكن الوصول إلى مائها بحفر آبار لأعماق مختلفة حسب اختلاف الموقع والتربة .

وأما اتجاه مجاري المياه في بلاد نجد فيصح القول بصورة عامة أن مجاري المياه الأرضية والخارجية هي تتجه نحو الشرق ، وبالنظر لامتداد سلسلة جبل طويق في طول البلاد النجدية من الشمال إلى الجنوب فيصح القول بأن المياه تنحدر من سلسلة هذا الجبل سواء كانت سيولاً أم مياهاً أرضية خفية باتجاه الشرق فالأودية الشمالية منها تنحدر نحو الخليج الفارسي بينما الأودية الأخرى تنتهي في رمال الدهناء أو رمال الربع الخالي جنوباً .

وعليه فإن أخصب الأراضي بالمياه والتربة هي الأراضي الواقعة على أطراف الجهة الشرقية من سلسلة جبل طويق تمتد من القصيم في الشمال إلى وادي الدواسر في الجنوب وفي ضمنها أراضي الخرج فنجد على أطراف السلسلة المذكورة واحات متشابهة في التشكيل قرب بلاد مجدبة رملية أو جبلية وهذه تؤلف معظم الأراضي الزراعية التي عليها مدار اعتماد أهل البلاد وزراعتهم وأما ارتفاع أطراف المرتفعات عن سطح البقاع فقد قدرت بحوالى ال ٦٠٠ إلى ٧٠٠ قدما .

وتمتد هذه الجبال من الشمال إلى الجنوب وتمتد من هذه الجبال نفسها أودية متوازية يأتى أحدها بعد الآخر ، وهذه الأودية بدورها تنحدر في الاتجاه الشرقى ، وأهم هذه الأودية وادى حنيقة ، ووادى السهبي اللذين من الحديث عنهما ، ومجموعة أودية الافلاج ووادى الدواسر ووادى نجران .

وقد جاء فى تأليف المستر قلبي عن رحلته للربع الخالى ذكر هذه الأودية التي يظن أنها كانت مجار لأنها قديمة فى بلاد نجد فاستطرد قائلا : وإن صح هذا فإن الفيافي الجافة المقفرة الآن كانت حوالى سنة ٥٠٠٠ ق . م مراعى خصبة ترنادها مواشى الإنسان الأول الذى لاشك أنه كان يعيش على صيد الغزلان والأياثل والنعام وقام بوضع أساس صناعة تربية الجمال وإنتاجها .

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مياه نجد التي تنحدر من المرتفعات المارة الذكر تؤلف مجرى أرضياً بنتيجة امتصاص أديم الأرض لمياه الأمطار والسيول ويمتد هذا المجرى إلى الجهات الشرقية فيصل الإحساء حيث يكون الينابيع الارتوازية الشهيرة فى هذا القطر ومن العجائب أن هذه المياه الأرضية تجتاز الدهناء والنفود ، ثم تعبر البحر ما بين ساحل الإحساء وساحل البحرين أى تحت قعر البحر فتظهر فى البحرين بشكل آبار ارتوازية ومما يستلفت النظر أن بعض العيون تنبثق من قعر البحر فينبع منها ماء عذب تحت المياه المالحة ومنها ما هى قريبة من السواحل تفور من القعر على

الدوام يستقى منها مياه الشرب من تحت المياه المالحة .

ويعلم المحليون بأن هذه المياه العذبة تنحدر من مرتفعات البلاد النجدية بدليل ما يظهر في بعض الأحيان من أثر روث الإبل وبعير الأغنام في المياه التي تنبثق من الينابيع المذكورة غير مستبعد جيولوجيا فإذا وجدت مياه الأمطار والسيول أرضاً رخوة حصوية أو كلسية فقد تمتص الأرض مع المياه بعض آثار الرواسب السطحية ، وليس ببعيد أن تجد هذه المياه الأرضية مجرى خفياً في تجاويف بعض الأراضي المكونة من كربونات الكلس فتحمل معها بعض هذه الرواسب .

وقد قال المستر هوغارث بهذا الصدد لاشك أن قسماً من هذه المياه (أى مياه العارض واليمامة) ترشح تحت ما يعترضها من ظهور الجبال فتجرى خلال الطبقات الحصوية وتظهر على الساحل فتسقى واحات الحسا والقطيف ، وتتكوّن منها الينابيع العذبة في مياه البحرين ^(١) .

عيون الخرج الحالية : قلنا إن منطقة الخرج غنية في عيونها ومياهها نظراً لكونها منطقة ملتقى الأودية وعليه فإن عدد آبارها الحالية ليس بقليل رغم ما طمر من الآبار الكثيرة التي لا تزال آثارها وآثار أنهارها ظاهرة في الوقت الحاضر ، وأما عمق الآبار في منطقة الخرج فيتراوح بين الخمسة والثمانية أمتار حسب اختلاف الموقع والتربة .

ولحسن الحظ إن منطقة الخرج فيها من العيون الغزيرة ما جعل طمرها أمراً متعذراً وكل ما استطاعت يد الإنسان عمله مع مرور الزمن هو ردم العمران الذي كان قد ازدهر بوجود مياه هذه العيون فقط .

وإن هذه العيون لهى من العجائب ، فهي أشبه ببحيرات صغيرة من أن تكون

(١) في كتابه « التوغل في البلاد العربية » ص ٣٤٢

عيوناً نظراً لمساحتها المائية وغورها الهائل ويوجد في منطقة الخرج أربع من هذه البحيرات ثلاث منها تقع شرق شعيب العجيمى في جنوب اليمامة والرابعة تقع شرق شعيب العجيمى في جنوب السلم .

أما الثلاث عيون الأولى وهى مدار الاعتماد فى الوقت الحاضر لإحداث مشروع رى عليها فتسمى محلياً كما يلى .

١ — عين الضلع أو عين العبيد .

ب — عين سمحة .

ج — عين أم خيسة .

تقع عين الضلع جنوب اليمامة وشمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجيمى على قدم سفح التالول التى تمتد بمحاذاة شعيب العجيمى فى الجهة الشرقية منه ، وقد سميت بعين الضلع بالنظر لوقوعها على كتف التل ، ويطلق عليها اسم عين العبيد لسبب استغلالها فيما مضى من قبل العبيد .

وتقع عين سمحة شمال عين الضلع بانحراف قليل نحو الغرب على مسافة ٢٤٠ متراً من عين الضلع ، وقد سميت هذه العين بعين سمحة لسبب سهولة سحب المياه منها بواسطة السيح حسب أقوال المحليين وليس ثمة مايشجع على نقض هذه الأقوال لأن آثار الأنهر القديمة تدل على أن صدور نهر السيح الكبيرة كانت على هذه العين كما سيأتى البحث عن ذلك فيما بعد .

وأما عين أم خيسة فتقع فى جنوب غرب عين الضلع بمسافة ١٢٢٠ متراً من عين الضلع و ١٥٦٠ متراً من عين سمحة ، وقد سميت بهذه التسمية لسبب تميزها عن أخواتها فيما مضى بوجود نخلة على ضفافها والخيسة فى نجد اصطلاح على لصغير النخل .

وعليه فإن موقع هذه العيون الثلاث يشكل شبه مثلث قاعدته عينا أم ضلع ومساحة بمسافة ٢٤٠ متراً كما جاء أعلاه وضلعاً المثلث يكونان الزاوية التي تقع عليها عين أم خيسة وطول الضلعين للمثلث المذكور هي ١٣٢٠ و ١٤٦٠ متراً .

وأما المساحة المائية لهذه العيون الثلاث فهي متساوية تقريباً وتقدر مساحة سطح الماء في كل منها بحوالى الـ ٤٠٠٠ متر مربع وذلك باعتبار معدل ٨٠ متراً طولاً و ٥٠ متراً عرضاً تقريباً ، وعليه فهي بيضوية الشكل وأغرب ما بهذه العيون أغوارها فأعماق الماء فيها متساوية تقريباً وتبلغ حوالى الـ ٣٦ قدماً ، وإن هذا العمق متساو تقريباً سواء كان على قرب من الضفاف أو في وسط العين .

عوامل تكون هذه العيون : ومما لا شك فيه أن هذه العيون هي قديمة العهد تكونت بنتيجة عوامل جيولوجية عديدة ومختلفة ، إن المعروف فنأى بأن أهم العوامل الجيولوجية التي تحدث تغيرات أرضية هامة هي أولاً خواص التربة التي تعمل فيها العوامل الجيولوجية ، فمثلاً وقوع هذه العيون وسط طبقات كلسية ملحية يشجع على إحداث تفاعل كيميائي ينتج انحلالاً وذوباناً في التربة مما قد يسبب حصول انشقاق أو انخساف أرضي ، وبالأصح انزلاقاً في كتل الطبقات الأرضية أو زلات صخرية كما يسمى جيولوجياً .

وهناك عوامل جيولوجية أخرى تؤثر في الأرضي التي من هذا النوع كالزلازل أو الهزات الأرضية أو مفعولات البراكين .

هذا وتوجد الآن آثار براكين ومواقع كثيرة تدل على بقايا الاندفاعات والسوائل النارية في الأزمنة القديمة ، وإن هذه المقذوفات البركانية تركت الحجارة السوداء المؤلفة من السائل البركاني المتجمد ، والتي نشاهدها في كثير من المواقع في المملكة العربية السعودية .

والدارج محلياً بأن هذه العيون حدثت بنتيجة مهوى النجوم .

وفضلاً عن ذلك فإن مناخ نجد الذى نجد فيه الاختلافات العظيمة بين درجتى الحرارة العظمى والدنيا قد يساعد على إحداث انفلاق فى الصخور وقد روى السواح والمنقبون عن كثير من مثل هذه الحوادث العجيبة سواء كان فى البلاد الباردة أو الحارة وذلك بسبب حدوث الامتداد والتقلص فى طبقات الصخور . لأن تأثير شدة الحر على الصخور يحدث امتداداً وتوسعاً فيها ، ثم البرد يسبب تقلصها وتضييقها . وعليه كثيراً ما ينتج الاختلاف فى درجة الحرارة انفلاقات وانشقاقات داخلية تترك الهوات والفجوات هذا وقد شاهدنا فى خلال مدة مكوثنا فى الخرج بأن الفرق بين درجة الحرارة العظمى والدنيا هناك فى شهر حزيران ١٩٣٩ ما يقارب الـ ٣٠ درجة سنتغراد خلال الأربع والعشرين ساعة .

وهذه الظواهر والعوامل المهدمة التى تحدث هذه الانشقاقات الهائلة فى جوف الأرضى هى فى الحقيقة مشتبكة مع بعضها ويتعذر فصلها أو اعتبار تأثير الواحد منها بصورة مستقلة وعليه فلا يستطيع المرء أن ينسب سبب حدوث التأثير إلى أحد هذه العوامل الجيولوجية وحده ، وإنما قد يصح القول بأنها قد قامت بمفعولها بصورة مشتركة خلال العصور الماضية لأحداث هذه المزالق الأرضية والانشقاقات الداخلية الهائلة التى أوجدت هذه العيون الطبيعية التاريخية ..

وخير مثال لتأثير هذه العوامل الجيولوجية فى طبقات الصخور الكلسية هو ما نجده من الانفلاقات الأرضية الداخلية فى مواقع كثيرة من نجد حيث نشاهد انخسافات فى طبقات الأرض لأعماق كثيرة ثم يمتد التجويف من قعر الفوهة لمسافة بضعة أمتار تحت طبقات الأرض فيكون شبه نفق تتجمع فى منتهاه مياه الأمطار أو الينابيع فيزحف المرء على طول هذا النفق للوصول إلى منبع الماء فى منتهاه وإملاء أجواء الماء منه لمثل هذا التجويف فى وسط الصحراء إذ يقع هذا الكهف على مسافة ٢٠٠ كيلو مترأ من الكويت ويسمى الدحل ومعناه فى العربية النقب الضيق فى أعلاه والواسع فى الأسفل .

مستوى مياه هذه العيون

وتأثيره في إنشاء مشاريع الري

ولما كان المطلوب كأول عمل فني يقام في منطقة الخرج استثمار مياه هذه العيون الثلاث وإنشاء مشروع ري منتظم سواء كان سيجاً أو بواسطة الضخ يستوجب قبل كل شيء معرفة كميات مياه العيون المذكورة ومدى قابلية انبثاقها في مختلف المواسم إذا ما سحب منها الماء بكميات وفيرة فقد أجرى التجري قبل كل شيء عن مستوى مياه العيون المذكورة بالنسبة لبعضها للتأكد من درجة ارتباطها مع بعضها فيما يخص مجرى الماء الأرضي .

ولتحقيق هذا الغرض أنشئ راقم تسوية ثابت بالقرب من ضفة عين الضلع ليكون هذا الراقم أساساً لأعمال التسوية بصورة عامة والمرجع لكافة أعمال المساحة في المستقبل .

وقد دلت نتائج التسوية لمستوى مياه العيون الثلاث بالنسبة لقيمة الراقم المنوه به أعلاه ما يلي :

سنتمتر	متر	
١٧٠	٩١	مستوى ماء عين أم خيسة مأخوذ بتاريخ ٤ حزيران ١٩٣٩
٥٢	٩١	» » » الضلع » » » » »
٩٧٣	٩٠	» » » » » سمحة » » » » »

ويستدل من ذلك أن عين أم خيسة الواقعة في جنوب غربي عين الضلع يرتفع ماؤها عن عين الضلع بـ $٠٠/١١٨$ متراً ومستوى ماء عين الضلع يعلو عن سطح الماء في عين سمحة الواقعة شمال عين الضلع بـ $٠٠/٠٧٩$ متراً وعليه فمجموع الفرق بين مستوى ماء عين أم خيسة وعين سمحة هو $٠٠/٠١٧$ متر وذلك مما يدل على أن مجرى

الماء الأرضى الداخلى هو باتجاه الشمال أى باتجاه مجرى شعيب العجيمى الواقع غرب العيون الثلاث كما سبق ذكره .

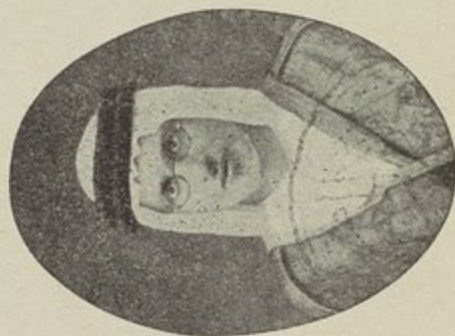
أما حول ثبات أو تغير مياه هذه العيون الثلاث ، فالمعلومات المحلية متناقضة وعليه فلا يعول عليها . إن أكثرية المحليين يرون أن مستواها الحالى حسب المناسيب البيئة أعلاه لم يتغير قطعياً غير أن الدلائل على ظهر الصخور التى تحدد أطراف الماء ترينا خلاف ذلك إذ توجد آثار تغير بسيط فى مستوى الماء ، وعليه إنى أميل إلى الاعتقاد بأن سحب المياه بكميات وافرة من هذه العيون لمشاريع رى كبيرة سوف يحدث هبوطاً فى مستوى الماء وربما تأثيراً على مناسيب ماء العيون الثلاث بأجمعها إذا ما سحب الماء من إحداها لأن ثمة دلائل على اتصال مياه العيون الثلاث بواسطة مجارى المياه الأرضية على أن درجة هذا الهبوط ليس فى الإمكان تقديره بصورة مضبوطة إلا بعد سحب المياه بكمية وافرة وإنشاء مقاييس على العيون الثلاث لتسجيل حركة مياه العيون الثلاث بالنسبة لكميات المياه المسحوبة وفى مختلف المواسم للسنة . والدليل الواضح لتوقع انخفاض عام فى مستوى المياه بعد سحب المياه بكميات وافرة من إحدى العيون هو ما نشاهده من الآثار فى طريقة إنشاء مشاريع الرى القديمة إذ كان الأقدمون قد حصروا مشاريعهم الكبيرة على العين الشمالية وهى عين سمحة فصدور الأنهر القديمة السيحية وغير السيحية .

والمقترح أن يكون مجموع قوة المضخات حوالى الـ ١٠٠ حصان فى الوقت الحاضر ، والمرجح أن تستعمل مضختان قوة الواحدة ٥٠ حصاناً وذلك لتسهيل نقلها إلى الموقع ونصبها فيه .

وإذا اعتبرنا مجموع العمق سبعة أمتار كما جاء أعلاه ، فالمساحة الممكن أرواؤها من المزرعات الشتوية بواسطة هذه القوة تقدر بحوالى الـ ٢٥٠٠ مشارة وهذه المساحة مع مساحة مقابلة للتير الثانى متوفرة فى هذا السهل الواسع الذى يمتد شمال ملتقى شعيب العين بشعيب العجيمى .



عباس قطان
سعادة الشيخ



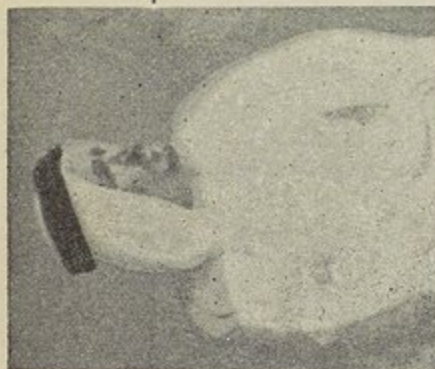
محمد الحارثي
سعادة الدكتور



عبد الله
الفضل
سعادة الشيخ



صالح شطال
سعادة السيد



عبد العزيز
ابن فوزان
سعادة الشيخ

في تاريخ جلاله الملك عبد العزيز

لم نستطع أن نفرد بحثاً خاصاً في فصول هذا الكتاب ، للتحدث عن شخصية حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود من الناحية التاريخية ، سوى ما استطعنا أن نورد من المعلومات التي تمت بصلة إلى موضوع هذه الرحلة . ذلك بأن جلالة الملك عبدالعزيز هو العربي الأول وأن سيرة جلالته^(١) بما فيها من ماضٍ حافل ، وما في ماضيها من تاريخٍ مفعم بالمجادة والبطولة ، لا يمكن أن يتسع له نطاق كتاب كهذا محدود الصفحات ، تحدد دفتيه غلافة مهما انفرجت سطورها فلا يمكن أن تلم بطرف من موضوعه ، فكيف بفصول أقل حدوداً وأضيق نطاقاً؟! . ذلك موضوع صال فيه الكرام الكاتبون ، وجالت فيه أسنة أقلام لم تجتمع فيما عُرف من قبل ، لإجماعها على ما هي بسبيله من سيرة ذلك الملك العظيم . ولقد كان من حسن حظ هذا الكتاب وعين طالعه ، أن شهد طبعه ، واشترك في مراجعة بعض مواضعه مواطن كريم هو سعادة الشيخ عبد العزيز بن فوزان أحد رجال حاشية صاحب الجلالة . وقد أبت نزعتة إلى السكال إلا أن يضع لبنة نفيسة في صرح هذا المؤلف فتحدث إلىنا عن

(١) من أبلغ ما وصف به العرب قول لسان الدين الخطيب :

«العرب لم تفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخير يرفع ، ولا قصر يبني ، ولا غرس يحمي ؛ إنما فخرها عدو يغلب ، وتناء يغلب ، وإبل تنحر ، وحديث يذكر ، وجود على الفاقة ، وسباحة بحسب الطاقة .

«فلقد ذهب الذهب ، وفنى النشب ، وتمزقت الأنواب ، وهلك الخيل العرب ، وكل الذي فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأعراس تجلي وتصل» .

شخصية صاحب الجلالة بالمعلومات الطريفة الآتية ، قال :

« إن مولاي صاحب الجلالة الملك الذى أسس ملكه على قواعد من التوحيد والتقوى راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ليس فى حاجة إلى إشادة ولا تنويه بما أناه الله من بسطة فى العلم والعقل ، وبما وفقه إليه من حسن تصريف الأمور ، ولقد نهض جلالته بأعباء هذا الملك العتيد يافعاً وصديقاً حتى صار إلى ما صار إليه من علو المسكاة ، ورفعة الشأن ، وما أنا فى حاجة إلى التذليل على ما أقول بالأرقام والتواريخ ، فهو غنى بمجده الغابر ، وتاريخه الحاضر ، ومستقبله الباهر ، عن كل قول وتأكيد ، وكل مدح وتمجيد ، لأن الأقوال غير الأفعال ، ولكننى أذكر ملخص سيرة جلالته فى سطور وأرقام ، عساها أن تكون عبرة ، وأن تكون سيرة وقدوة !

تاريخ فى أرقام

« ولد جلالة الملك حفظه الله وأطال حياته الغالية بالرياض فى شهر ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠ م ، واضطلع باسترداد ملك آبائه وتأسيس ملكه فى صراع عنيف وحروب متكررة حتى ظفر بتوطيد ذلك الأساس باستيلاء جلالته على الرياض نهائياً فى عام ١٣١٩ هـ الموافقة لعام ١٩٠٢ م ، وظل جلالته فى حروب متكررة ومساجلات حربية لاستخلاص القصيم وجنوب نجد من عام ١٣٢١ هـ حتى تم له فتح عنيزة فى محرم عام ١٣٢٨ حيث فتح بريدة عاصمة تلك المقاطعة فى ١٥ ربيع أول عام ١٣٢٨ وبذلك أصبح القصيم كله تابعاً لجلالته . وفى عام ١٩١٣ م استولى جلالته على الإحساء وأنشأ منطقة المهجر التى هجر إليها سكان البادية ، فاستقر قرارهم بعد طول رحلة وتنقل وعناء . وفى ٢٩ صفر ١٣٤٠ - ٢ نوفمبر ٢٩٢١ تم لجلالته الاستيلاء على حائل ، وفى هذا العام نفسه - ١٩٢١ - تعرض له ابن عايش باحتلال يشهه فأرسل إليه الأمير بن مساعد فاستولت قواته على عسير وفى شوال سنة ١٣٤٧ - يونيو ١٩٢٢ سافر

الأمير فيصل إلى عسير ففتحها . وفي ٦ صفر سنة ١٣٤٣ استولت قوات جلالته بقيادة خالد بن لؤى على مدينة الطائف مفتاح مدن الحجاز ، ثم نودى بجلالته ملكاً على الحجاز في ٢٢ جماد الثانية ١٣٤٤ - ٨ يناير ١٩٢٦ . وفي ٢٤ ربيع عام ١٣٤٥ - ٢١ أكتوبر ١٩٢٦ لجأ الأدارسة إلى حماية جلالته على تهامة عسير .

«وكان جلالته يلقب بالإمام - أى إمام المسلمين - وهذا لقب يحمله أبائهم وأجدادهم ثم طلب إليه أهل نجد أن يلقبوه سلطاناً على نجد ، وفي ٢٥ رجب ١٣٤٥ - ١٩ يناير ١٩٢٧ بعد استيلائه على الحجاز نودى بجلالته ملكاً على نجد أيضاً . وفي ٢١ جماد أول ١٣٥١ - ٢٢ سبتمبر ١٩٢٧ طلب الشعب النجدى والحجازى أن تجعل المملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية لكي لا يكون فارق بين الحجاز ونجد وتكون أمة واحدة ، فصدر مرسوم ملكي بتأسيس المملكة العربية السعودية الحالية .

من نعم الأمن والاستقرار

«ولقد كانت هذه البلاد في السابق مسرحاً للحوادث الأليمة المعروفة التي كانت منها عدم استقرار الأمن والنهب والسلب حتى قبض الله لها هذه الشخصية البارزة العظيمة التي ألهمها سداد الرأي وحسن التصرف حيث ساد الأمن في البلاد وانقطع دابر الفوضى وأصبحت مثلاً للعالم أجمع حتى أصبح الأوروبيون يتحدثون بما يشاهدونه فيها من الأمن والطمأنينة ، ويتناقلون أخبار هذا الأمن بدهشة وإعجاب . الشيء الذي ما كان يمكن تصوره عن أية دولة قوية وفي أية أمة أخرى . ويكفي ما يراه القارئ من الحوادث في الصحف السيارة حتى يعرف الفارق بين الحياة التي يعيشها أهل هذه البلاد وبين الحياة في سائر أنحاء الدنيا رغم أن جلالته لا يزيد في معاملته للمجرمين عما يحكم به الشرع الشريف فهو منقذ لسنة الله ورسوله وقائم بحدود الله ، ليس له غاية خاصة ولا يحمل حقداً على أى مخلوق ، فهو راع مسئول عن رعيته ،

ولكنه في نفس الوقت لا يفضل نفسه عليهم بشيء « رحم الله قوماً يوقرون كبيرهم ويرحمون صغيرهم » فهو يوقر الكبير ، ويرحم الصغير .

رعاية مصالح العرب والمسلمين

« وجلالته يسهر على مصالح رعيته أثناء الليل وأطراف النهار ولقد شهدته شخصياً يستوقفه بعض العامة من الرجال والنساء ويشكون له حالتهم ومعيشتهم ، منهم من يقول ليس عندي ما يقيت أولادى هذه الليلة ، فيمده بالمال في الحال بما يسد حاجته أياماً معدودة ، ثم يوعز إلى أحد المكافين أن يتحقق عما قاله هذا ، فإذا كان ما قاله صحيحاً ويستحق العطف لمجز أو مرض أجرى عليه من بيت مال المسلمين - الذى هو ناظر عليه - طول حياته وإذا كان له أطفال صغار قام بتربيتهم وتعليمهم . وتراه يتألم أشد التألم حين يتأكد ذلك وهذا نتيجة عقيدته الصالحة لأنه يرى نفسه مسؤولاً عنهم ، ولا يلد له عيش إذا عرف أن أحداً من المسلمين بات جائعاً أو عارياً وإن كان من غير رعاياه . وهو لا يفضل أحداً على أحد من المسلمين لأنه يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

« أما اهتمام جلالته بشؤون المسلمين فهي واضحة للعيان ، ومواقفه فيها معروفة لدى الخاص والعام وإننى أعرف منها الشيء الكثير ولولا معرفتى عزوف جلالته عن الدعاية والإعلان لأوردت منها ما يهز النفوس ويهيج القلوب تقديراً لصفائعه الخالدة وأياديه البيضاء في خدمة الأمم الإسلامية والعربية .

قوة الذاكرة وصفاء القريحة

«ولجلالة الملك ذاكرة عجيبة ذات مقدرة كبرى في استيعاب الحوادث وتسجيلها، بحيث تظل منقوشة في طياتها، خالدة في تضاعيفها فإذا ما عرضت مناسبة من المناسبات لحديث يتصل بالماضي ويحتاج إلى استشهاد، أفاض جلالته في الحديث كأنما يقرأ من كتاب أو كأنه يتدفق من نهر وحدث مرة أن كان بسياراته ماراً فاستوقفه رجل كهل يطلب منه المعونة، فقال له جلالته «هل أنت فلان؟!» قال نعم! قال هل تتذكر يوماً أتيتك فيه بدارك؟! قال نعم. ذلك قبل خمس وثلاثين سنة. عند ما أتيتنا ممتطياً صهوة جوادك عند الغروب، فالتفت إلينا وقال: صحيح ما قال؟! ونفحه جلالته بشيء من المال وأمره أن يقابل رئيس ديوانه فيخبره بحاجته وهو من قرية تسمى «البيصر» من مقاطعة القصيم. أما معرفة جلالته لهذا الرجل ودخوله لداره فهذه حدثت عند ما كان جلالته يحارب خصمه بن الرشيد وكان يخوض المعارك بنفسه على جواده وصادف أنه استمرت المعركة بينهما ليل نهار أياماً متوالية بجوار هذه القرية، وكان جلالته قام بجولة خاصة ممتطياً جواده دون أن يعرفه أحد ليستطلع مدى قوات خصمه، ومر بهذه القرية ودخلها يستمع إلى رأى أهلها وكان من بينهم هذا الشخص فدعاه إلى بيته، وهو لا يعرفه أنه الملك - ولكنه يعتقد أنه من أحدر جاله، تلك هي مناسبة دخوله منزل ذلك الرجل! التي لم تغب عن ذاكرة جلالته»

الشعر في بادية نجد

لا يفوتنا في ختام هذا الكتاب أن نتكلم عن بحث له صلة أدبية بموضوع هذه الرحلة . فقد حرصنا فيما تقدم من الفصول أن نقيّد كل ما يمكن أن يسوقنا إليه الاستطراد أو السياق بما له صلة - قريبة أو بعيدة - بموضوعنا . والذي نريد أن نشير إليه الآن هو الشعر في نجد إذ لا يمكن أن نغفل هذا الجانب الأدبي دون الإشارة إليه بما يقتضيه المقام وما يتسع له النطاق .

أما الشعر في نجد فله نصيبه الوفور على السنة قائله من الشعراء في المدن والحواضر كما هو الحال في أمثالها من مدن البلاد العربية ، وهو شعر عربي فصيح كثيراً ما نشره صحف المملكة العربية السعودية وصحف غيرها من البلاد الأخرى ، وليس هذا موضوع بحثنا وإنما أردنا الكلام عن الشعر في بادية نجد . ذلك بأن الشعر العربي الفصيح أشوق ما تكون الأسماع متلهفة عليه حين يصدر من رجل البادية الذي لم تتأثر عرييته بعجمة ، ولم يتطرق إلى فصاحته لكنته . ولكن أهو كذلك في بادية نجد؟! أن الواقع أن الشعر العربي في بادية نجد هو كغيره في مختلف البوادي متى ناحية تشابه الأسلوب وتقارب اللهجات ، ومن ناحية عزوفه عن الفصاحة التي عرف بها في بادية غابر الزمان ، وفي حواضر الأجيال ، فالشعراء في البوادي ينطقون الشعر بلهجاتهم الخاصة التي هي وإن لم تتطرق إليها عجمة الأعاجم ، فقد غمرها تحريف في الألفاظ كاد يخرج بها عن محيط الشعر ، وليس ذلك وحده بل ساعده عدوان آخر هو التحرر من قيود الشعر وأوزانه ودقة قوافيه ، إلى جانب القيود العلمية الأخرى المتصلة بفنون الشعر من نحو وعروض ، وصرف وبيان وغير ذلك .

ومع ذلك فالشعراء في بادية نجد وغيرها من البوادي يرتجلون الشعر ارتجالاً على الأسلوب الآتف الذكر ، فيجئ حفيلاً بالمعاني المستساغة ، مليئاً بالأفكار والآراء ، وإن كان محرراً من كل قيود الشعر ، على أن هناك طائفة من أهل البوادي ارتادوا الحضر في مناسبات مختلفة من تجاره أو غيره ، ممن يحملون نفوساً شاعرة ، فتعدلت لهجاتهم فكان لذلك أثره في منطوقهم . وجاء منظومهم خالياً من التعقيد بعض الشيء . وقد أشار إلى ذلك سمادة الأستاذ فؤاد بك حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » ، وأفرده بحثاً طريفاً أورد فيه نماذج من شعر البوادي من صفحة ٩٩ إلى صفحة ١٠٥ فليراجعه من شاء المزيد من البحث ، وليست قصة علي بن الجهم بعيدة عن أذهان الأدباء وقد عرفوا منها كيف دخل من البادية إلى بغداد بدوى جاف يقول لأمرها في غير تعثر ولا تلثم :

أنت كالسكب في احتفاظك بالود وكالتيس في قراع الخطوب
حتى هم أن يبطش به رجال الأمير ، لولا إنه استمهلهم عليه صبراً حتى اجتاحت
رقة الحضر ، فماد يقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
ومن الأمثلة الطريفة التي نحب أن نوردها ختاماً لهذا البحث أبيات رقيقة من الشعر قالها نجدى من صميم البادية ، ولكن ليس من أمثال الذين عناهم الأستاذ فؤاد بك حمزة في صفحاته المشار إليها ، بل هو ممن عنيتهم في سياق العبارة المتقدمة عن شعراء البادية المتحضرين هو الشيخ عبد العزيز بن فوزان قال :

سر حبيب القلب سبقها الرياحُ بالسلامه
واطو وسط الليل هاتيك البطاحُ والركامه

واترع الأفداح من نخب السلاح بالهامة
واشد يا خلى ، وغرد للصباح يا حمامة
يا عروس الروض نادتك تهامة

عيق الدرب أريج من شذاك للرياض
واعترت مضناك سراء لقاكى بالتراضى
وانبرى طيفك بالدعج يحاكى ويقاضى
وتصايينا ، فكم قبلت فاكى والأراضى
تحتنا تطوى ولم نخش الفطامة

ذات دل مارأت عيناى أروع فى الجمال
وجنتها الورد والثغر ترصع باللالى
ريقها المسجد ، ويحى كيف يسطع وهو حالى
نفس فى صدرها مامنه مشيع فى الوصال
حبها حلو ولو فيه الندامة

يا رعى الله ليال طيبات فى ركابك
صفعت قلبى بأحلا الذكريات من صفاتك
لا أراك الله صرف العاديات وسما بك
فوق أعلا الدرجات وبدارك
ضرب التوفيق والسعد خيامه

فهرس

٥٢ إلى الدواوى	٢ تصدير
٥٥ إلى مرات	٣ مقدمة - بقلم الكاتب الكبير
٥٩ تحقيقات تاريخية	الأستاذ عباس محمود العقاد
٦٣ إلى روضة الخفس	٧ مقتطفات مختارة من أقوال حضرة
	صاحب الجلالة الملك عبد العزيز

الفصل الثالث

٦٦ فى عربى الأسد - أو الخيام الملكى
٧٢ جولة حول الأشبال
٧٥ الأدب السعودى
٨١ روضة الخفس - ورياض نجد
٨٧ نظام الإقامة - أو أيام الروضة
٩٨ نظام الروضة - أو أيام الإقامة
١٠٤ أمراء آل سعود
١٢٣ المأدبة للملكية الكبرى
١٢٦ مأدبة معالى الشيخ يوسف ياسين
١٢٩ نجد - وحولية نجد
١٣٣ حولية نجد
١٣٧ وفود جدة ، والمدينة ، والطائف

الفصل الأول

١٧ أسباب وعوامل فى تكوين الرحلة
٢٠ فكرة الرحلة
٢٢ الشعور بالرحلة ، والشعور نحو الرحلة
٢٥ هوامش على ما تقدم
٢٨ أعضاء الوفد الملكى

الفصل الثانى

٢٩ ابتداء الرحلة - يوم السفر
٣٢ إلى الشرايع
٣٥ البدر والفجر - فى الشرايع
٣٦ فى السيل
٣٨ إلى المشيرة
٤٣ إلى المويه
٤٧ إلى القاعية

الفصل الرابع

- ١٤١ إلى الخرج
- ١٤٤ عاطفة الملك الرحيم
- ١٥١ بين الروضة والخرج
- ١٥٦ حول الخرج
- ١٦٣ إلى زرقاء اليمامة
- ١٦٨ الزراعة في الخرج
- ١٧٥ أيام الخرج
- ١٧٩ إلى الرياض
- ١٨٣ في الرياض
- ١٩٠ العودة إلى روضة الخفس

الفصل الخامس

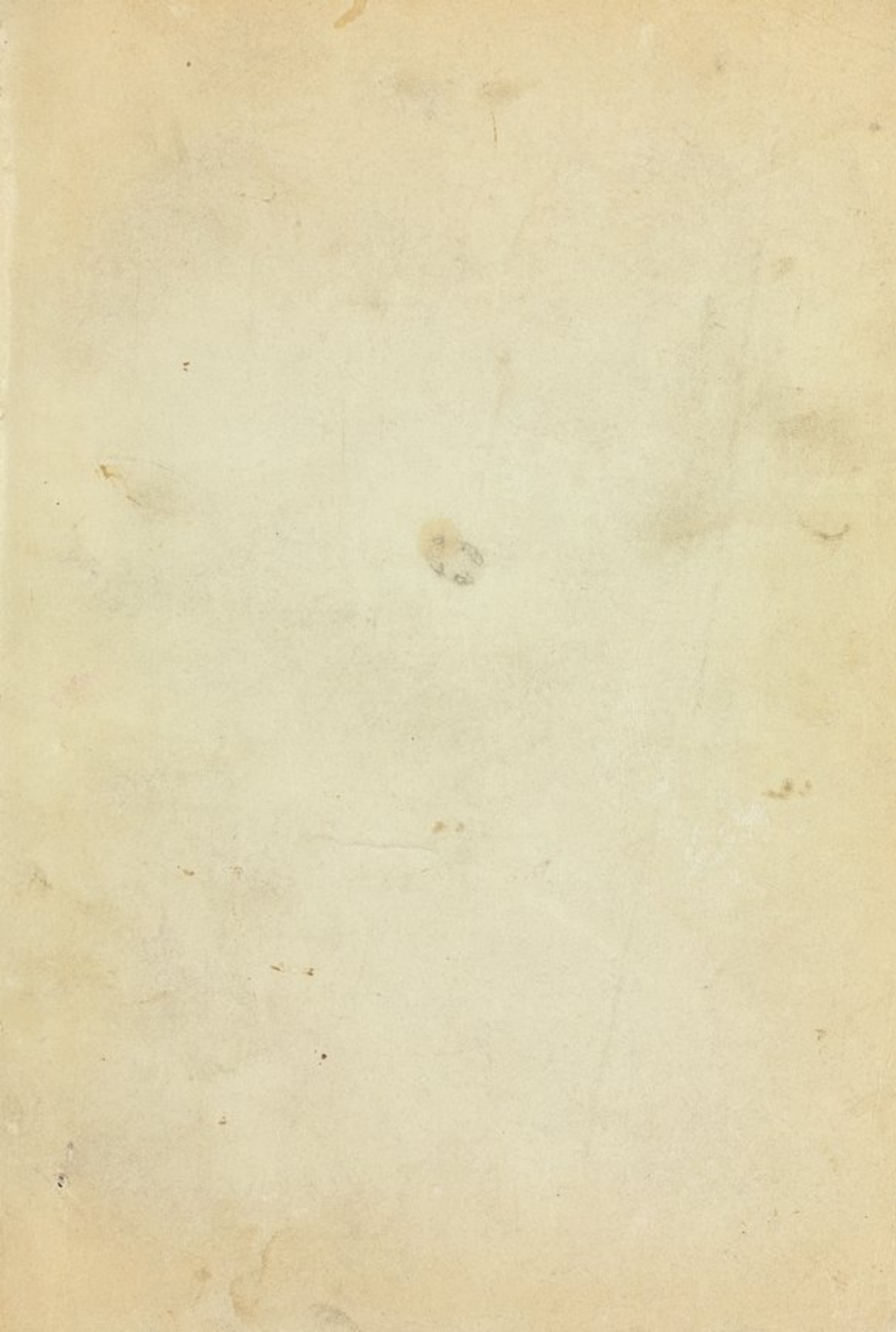
- ١٩٠ ليالى الحنين
- ١٩٧ ليلة السفر
- ٢٠١ يوم السفر وذكريات الروضة
- ٢١١ ختام الرحلة - الربيع في الحجاز
- ٢٢١ بين يدى صاحب الجلالة
- ٢٢٩ تقرير فنى - عن مشروع الزراعة
- في الخرج
- ٢٤١ حوادث وأرقام - في تاريخ
- جلالة الملك عبد العزيز
- ٢٤٦ العربي في بادية نجد

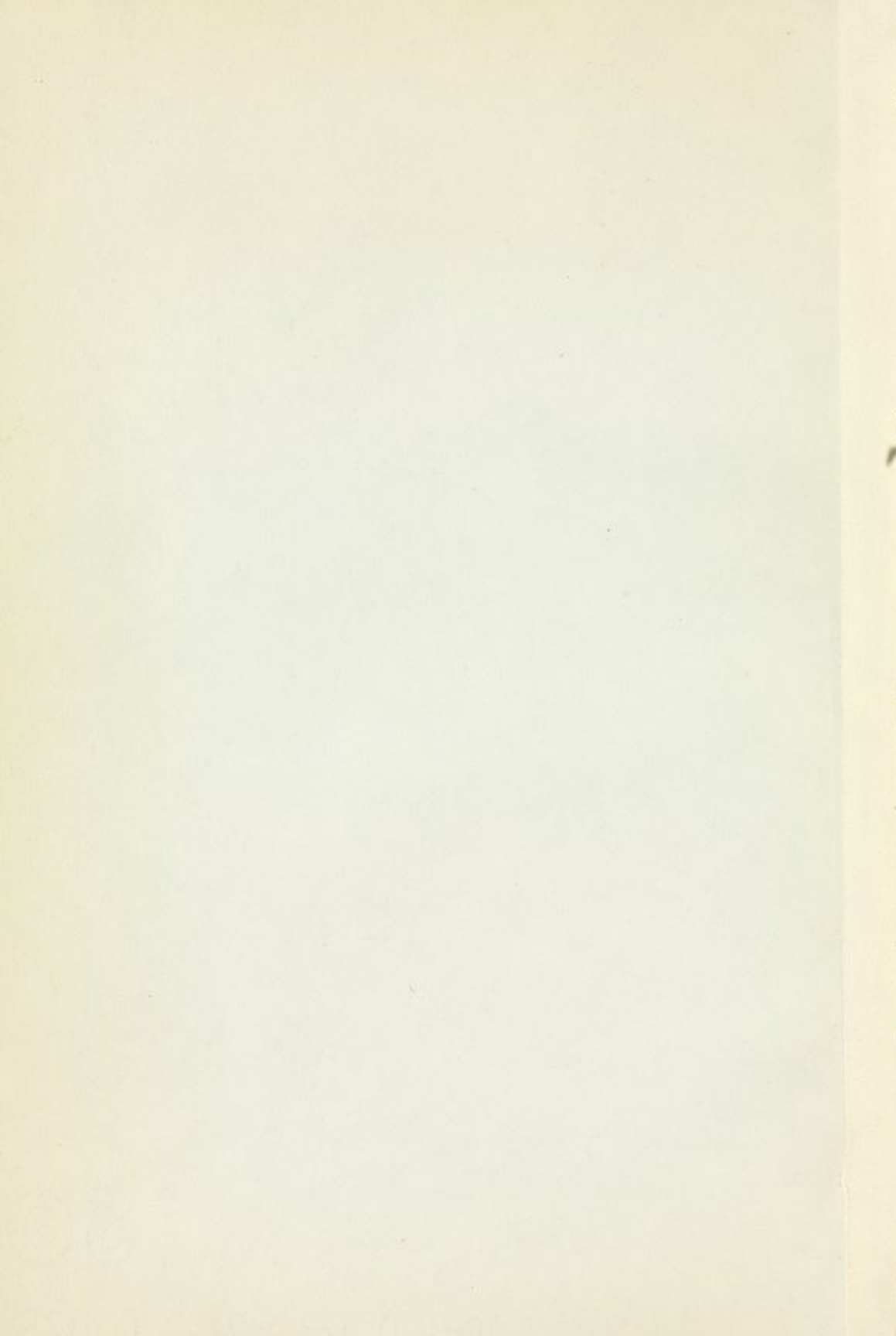
مطبوعات للمؤلف

- ١ - كتاب : صور الحياة . طبع بمطبعة حويلات مصر السياسية عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .
 - ٢ - كتاب : الصحفي أو كيف تكون صحفيا . طبع بمطبعة حويلات مصر السياسية عام ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ .
 - ٣ - كتاب : غزل الشعراء بين الحقيقة والخيال . طبع بالمطبعة الفاروقية عام ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م .
 - ٤ - كتاب : أدب القرآن . طبع بمطبعة الحكومة بمكة المكرمة عام ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨ م .
 - ٥ - رسالة : تخليد ذكرى إنشاء السد السعودي . طبعت بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه عام ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م .
 - ٦ - رسالة : دار الأيتام والصنایع بمكة . طبعت بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه عام ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ .
- تحت الطبع : السياسة والإدارة في البلاد العربية .
- » : أحاديث الربيع .











LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074328814